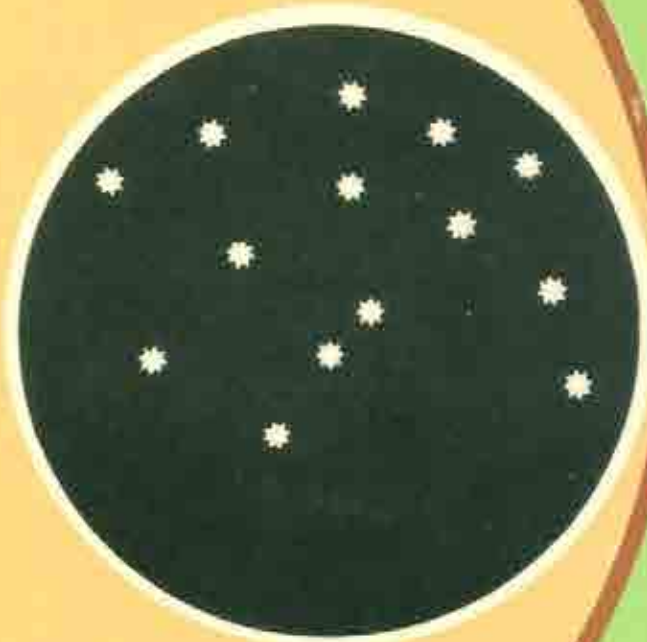


فَصِّصْ لِي
مِنْ الْقُرْآنِ
مِثْلَ
الْمِثْلِ



عَلِي الطَّنْظَاوِي

قصص
الرسالة

المكتب الإسلامي

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكتب هذه الفصول في يوم واحد، بل كتبت في أزمان متباعدة، لأن ذلك كان ما ترون من الاختلاف بين أساليبها . ولم أعدد أن أجعلها قصداً كما جاء في عنوان الكتاب . ولم أقيّد بقيود القصة . وأقفت عند حدودها . بل كتبت آخذاً بالخبر أرفع عليه . فأديره في ذهني . وأتصور تفاصيله . ثم أحاول أن أعرفه موسعاً واضحاً . فكان ما أجيء به . يقترب من القصة حيناً . ويكون أشبه بالعرض (الريپورتاج) حيناً . وربما غلبت عليّ الرغبة في التحليل النفسي فأطيل . وربما وقفت عند الحقائق فأقصر . ولو رجعت إلى أصول هذه الفصول في التاريخ لوجدتكم أن أكثرها لا يجاوز بضعة أسطر . جاءت متوارية في حاشية من الحواشي . أو زاوية من الزوايا . لا يتنبه إليها القارئ . ولا يفهم عليها . وليست أجمل ما في تاريخنا . ولا هي من أجل ما فيه . وإنما هي أخبار عادية . استطاع هذا القلم (على ضعفه وعجزه) أن يعرفها على الناس شيئاً جديداً أو هو كالجديد . فكيف إذا تولاهما قلم أقوى من هذا القلم ؟ وكيف إذا اختار لها مشاهد من تاريخ أعظم من هذه المشاهد ؟

وإذا كان أصل هذا الكتاب الذي تفرع عنه . وأساسه الذي بني عليه . بضع صفحات من هذا التاريخ العظيم . فكيف صورة رائعة . وكيف قصة بارعة . وكيف من الآثار الأدبية الخالدة . يمكن أن يستخرج من صفحاته كلها ؟

أما إن ذلك ليزيد عن العدم ويجعل من الحسبان . ولكن ادباًءنا لم يردوا هذا المورد !

(١) نشر الكتاب أول مرة سنة ١٩٣٩ باسم «تاريخ الإسلام» . انقصت فقد كتب كثير منها ما بين ١٩٣٩ و ١٩٣٦ وفي بعضه أثر من أساليب من كتبت مؤلفاً بهم . يومئذ في قصص الحجاج (الجزء الأول) . وليلة الوداع . ويزم القصة) أثر من أسلوب معروف الألفاظ وطوي في قصة (علم) الأثر من أسلوب الرافعي وسأثرها مكتوب بلسلوبي . وقد كتب النقاد من الكتاب فصولاً كثيرة أجمعهم وأوسعها ما تقبل به الأستاذ شكري مصطفى في كتابه « قصة في سوريا » والاسم الذي أتوا به في كتاب (أثر).

على أن هذا أسلوب من أساليب عرض التاريخ بقلم الأديب ، وفي كتابي (رجال من التاريخ)^(١) أسلوب آخر . و (على هامش السيرة) لخطه حزين ، وفي (وحي القلم) للرافعي وفي (سيد قريش) المعروف الأرنؤوط ، و (محمد) لتوفيق الحكيم ، و (في منزل النوحى) خيكل ، أساليب غير ذلك .

ولو أن كل كاتب وأديب ، أخذ من تاريخنا على مقدار طاقته ، وعلى أسلوبه وطريقته ، وبلغ ما أخذ منه ، وصدر عنه ، ألف كتاب ، لما نقص من كنوز تاريخنا شيء .

ولو انى بقيت خمسين سنة أحدث الناس كل اسبوع ، عن عام من اعلام الإسلام ، أو أعرض عليهم قصة من قصص بطولاتهم وعبقرياتهم ، لما انتهت ولما قاربت الانتهاء . وكيف ؟ وعندى في مكتبة بيتي الصغيرة أكثر من خمسين مجلدة في تراجم الرجال . لو أن في كل مجلدة منها مئة ترجمة ، لكان من ذلك وحده خمسة آلاف ترجمة ، لخمسة آلاف علم من اعلام الإسلام . وما ليس عندى من كتب التراجم أضعاف ذلك .

ثم ان في كتب التاريخ والأدب ، والمحاضرات والرحلات ، آلاف أخرى لم تفرد في كتب التراجم :

ولقد كنت أتسلى من أيام بالظفر في (رحلة ابن بطوطة) ، فاستخاضت منها تراجم كثيرين ، لأجعل منها أحاديث . منهم السلطان المسلم العادل طر مشيرين من حنونة جنكيزخان ، وكان يحكم مملكة واسعة المدى ، مترامية الأطراف ، كثيرة الجيوش ، وافرة الخيرات ، فهل سمعتم بطر مشيرين ؟

وهل سمعتم بالملوك المسلمين الذين حكمهم اروسية ، وكان لهم فيها حكومة عظيمة ، عاشت دهوراً ، وكانت تسمى دولة الباغار . وكانت عاصمتها بترب ستالينغراد ؟

(١) هي كتب 'دعوة من اذاعة دمشق' .

وهل تعرفون سير الملوك المسلمين الذين حكموا الهند قروناً طويلاً ، وكان منهم
أورنك زيب أشبه الملوك سيرة بالخلفاء الراشدين ؟

ودول الإسلام في جنوبي آسية ، وسواحل افريقية السوداء ؟

لقد بلغ الإسلام بلاداً ، تعجبون انتم الآن إذا سمعتم بأنه بلغها ، وأقام فيها دولاً ،
وأنشأ فيها حضارات ، وترك فيها آثاراً ، وأكثر القراء لا يعرفون شيئاً عنها .

بل اني اعترف اني لم أكن اعرف شيئاً عن تاريخ الإسلام في الملايا وأندونيسيا ،
وعن مراحل تاريخه في الهند ، حتى زرت تلك البلاد . ورأيت آثار الإسلام فيها ،
ولا سيما في دهلي وما حولها ، لقد كنت أظنني في الأندلس ، ولكنها أندلس أجل
وأكبر ، لقد حكمتنا الهند الف سنة ، فمن يعرف دقائق تاريخنا في الهند ؟

لقد كدت أقول : لا أحد !

اننا أمة تجهل تاريخها !

هذا التاريخ الذي ليس لأمة مثله . هذا العالم الذي يفيض بالحب والنبيل والتضحية
والبطولة والإيمان .

هذا السجل الأدبي الذي اشتمل على بذور مآس ، وملاحم ، وقصص ، ودواوين .
لو وجدت من يستخرجها ، ويزرعها في الذهن الحبيب . لكان حصادها أدب جديد
يزحم بمنكبيه آداب الأمم جميعاً ، وإذا كان اسكندر دوماس وشارلز ديكنز . قد
استخرجا من تاريخ فرنسا ، وتاريخ انكلترا ، على قصر مدتهما وكثرة مخازينهما ،
هذا الأدب كله ، فماذا يستخرج لعمرى من تاريخنا الطويل الشريف الغني ،
لورزقت العربية أديباً كدوماس أو كديكنز ؟

ولست أعني التاريخ السياسي وحده ، تاريخ القصور والملوك ، بل أعني التاريخ
العلمي أولاً ، تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم لله مجاهدين في ميادين الطروس .
بأسنة الأفلام ، وهجروا لذلك لذائذهم . ونسوا حاجات بطونهم . موغرائهم
واطرحوا رغبات الغنى والجاه وكل ما يتراحم عليه الناس . واستهانوا في سبيله بكل

صعب ، حتى أنهم كانوا يرحلون الإبل ، أربعين ليلة ، من مشرق الأرض ، إلى بغداد أو الشام أو الحجاز ، في طلب مسألة مفردة . أو حديث واحد . أحرقوا أدمغتهم فجعلوها مشاعل القرون الآتية . فماتت (البشرية...) في طريق الحضارة على ضوئها .

هذا التاريخ الذي أعنيه ، هو تاريخ القضاة الذين استطاعوا في عصر كان الحكم فيه في الدنيا كلها حكماً مطلقاً ، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم ، استطاعوا في هذا العصر ، أن يجعلوا لأنفسهم منزلة . وأن تكون لهم بكفائاتهم وبأخلاقهم حصانة دونها حصانة القضاة اليوم التي ضمنها لهم القانون .. فاقروا وأخبارهم في كتب التاريخ والأدب والمحاضرات ، وفيما أفرد لهم من كتب ككتاب الكندي في قضاة مصر ، وكتاب قضاة الأندلس وكتاب قضاة الشام ، تروا كيف كان أحدهم يستند إلى سارية المسجد . وما معه إلا كاتبه - ما معه جند ولا شرط ، ثم يحكم على الخليفة ، وعلى الأمير ، وعلى صاحب السلطان ، فلا يرد له حكم ، ولا يستعصي على حكمه أحد . واقروا مقدمة كتاب (الحراج) . تروا كيف كان أبو يوسف القاضي ، يخاطب أكبر ملوك الدنيا في عصره : هارون الرشيد !

هذه ناحية من أوسع نواحي العظمة في تاريخنا ، لأن القضاء (منذ كان في الدنيا قضاء) هو مقياس الخير في الأمم ، وهو معيار العظمة فيها ، وهو رأس مفاخر كل أمة حية راشدة . وليس القاضي موظفاً كالموظفين^(١) فالموظفون ، حتى الأمراء منهم والوزراء . أعوان الملك أو الرئيس وأتباعه ، يأمرهم فيأتمرون ، ويدعوهم فيلبون ، أمرهم من أمره . وسلطانهم من سلطانه . يتكلم بألسنتهم ، ويبطش بأيديهم . أما القاضي فلا حكم عليه إلا لربه . ولا استمداد له إلا من قلبه . يتكلم بلسان الشرع . والشرع فوق الناس . ويحكم بحكم الله . وحكم الله على الجميع . هذا هو التاريخ الذي أعنيه . لا تاريخ القصور وأهلها . وهذا الذي عني به علماءنا ، فألفوا فيه آلاف الكتب ، واستحدثوا منه علماء لم تعرفه أمة من الأمم . قبلهم

(١) الوظيفة في اللغة المرتب ، ولكننا آثرنا ما يقول الناس .

ولا بعدهم ، هو (علم الرجال) ، الذي يميز صادق الرواة من الكاذب ، والأمين من المزور . والمنشبت من المساهل . وكان لأهل هذا العلم مثل (دوائر الاستخبارات) في الحكومات . وبها توصلوا إلى وضع قواعد . ورفع دعائمه .

وإبدأ فانظر ما ألف في سيرة سيد البشر ومعلم الخير صلى الله عليه وسلم . وكيف دونت حركاته وسكناته ، وألفاظه وإشاراته . في مئات من الكتب - إذا شئت كتاباً يكاد يفني عن هذه الكتب كلها . ولا يفني عنه كتاب . فاطلب « شرح المواهب » للزرقاني . ثم انظر سير الصحابة فاقرأها في الإصابة أو في أسد الغابة أو في الإشتياع .

ثم انظر العمل الذي قام به مؤرخو رجال الحديث . ومبلغ ما وصلوا إليه من الإحاطة والتدقيق والصدق . وأنظر هل أفلت منهم خبر ؟ أو خفيت عليهم حقيقة ؟ وهل صنع علماء أمة كالذي صنعوا ؟ أو تصوروا إمكان هذا الصنيع المعجز الخائل ؟

لقد صنعوا في الرجال الكتب الجامعة^(١) وأفردوا الضعاف والمروكين بالتأليف ، ووضعوا الكتب في ضبط الأسماء ، وبيان ما تشابه منها أو ما اشبه . وبحثوا في تواريخ الوفيات ، وحققوا الأسانيد ثم انظر ما ألف من كتب الرجال في سائر العلوم والعلوم ، كطبقات الأطباء . وأخبار الخلفاء والوزراء والنحاة والأدباء . بل وفي أخبار الطفيليين والحمقى والمغفلين وعقلاء المجانين . وما ألف في رجال المذاهب ، كطبقات الشافعية . والديباج في أعيان المذهب المالكي ، وطبقات الحنابلة والحنفية : وما ألف منها في المدن كتاريخ بغداد الذي ترجم لكل من دخل بغداد فلم يبق ولم يذر والكتاب الذي لم يؤلف في بابيه مثله . كتاب ابن عساكر العجيب . الذي عجزت دمشق عن طبعه وعن نشره . وما ألف على العصور ، وعندنا سلسلة كاملة لأعيان كل عصر . من العصر السابع إلى الثاني عشر الهجري^(٢) . وما كان منها جامعاً كوفيات الأعيان الكتاب النفيس الممتاز وغير ذلك مما يتعسر الإحاطة به . وتقصي خبره . في مثل هذا المقام . وفي كل صفحة

(١) حسبكم منها كتاب الكمال في أسماء الرجال . الذي رآه طويلاً فاختصروه في كتاب التهذيب ثم اختصروا هذا المختصر فكان الكتاب النفيس الممتاز كتاب تهذيب التهذيب وهو في ١٢ مجلداً .
(٢) وقد ألف أحد المشيخ في دمشق في أعيان القرن الثالث عشر كتاباً ينقصه التحقق والترتيب . ثم طبع كتاب الشيخ عبد الرزاق البيهقي جده شيخنا بهجة الشام حفظه الله ، هو كتاب جامع دفع .

من هذه الكتب مبعث إلهام للأديب، وأصل قصة للكاتب، وكثر من كنوز العقل والقلب لا يفنى .

ألقوا هذه الكتب كلها في (علم الرجال) ، على حين لا نعرف من تصانيفهم في تاريخ الملوك إلا بضعة كتب كالطبري وابن الأثير وابن كثير والمسعودي واليعقوبي وابن خلدون وأمثالا . وباليات وزارات المعارف في بلاد المسلمين . تدع هذا كله ، فلا تجعله أكبر همها من درس التاريخ ، وغاية مطلبها . وتنصرف إلى التاريخ العلمي . فتعنى به^(١) . ورب عالم كان أبلغ أثراً في عصره من خليفة العصر . وكان أولى أن يعرف العصر به ، وينسب إليه ، فتقول عصر أبي حنيفة مثلاً . وعصر ابن أبي دؤاد . وعصر أحمد ، وعصر الغزالي ، وعصر ابن تيمية وابن القيم

ولست أدري إلى متى يبقى تاريخنا عبداً واقفاً على أبواب الملوك . لا ينظر إلا إليهم . ولا يهتم إلا بهم ، ولماذا لا يصير حراً . يخالط الشعب ويسجل مناقبه . ويصف أخلاقه ؟

ومن منا يعرف ماذا كان يأكل الناس في عهد الرشيد مثلاً أو الواثق . وماذا كانوا يلبسون . وماذا كانوا يصنعون في أفراحهم وأتراحهم ، وجددهم ولذوهم . وكيف كانت حياة التاجر والصانع والجندي والزارع ؟

إننا نستطيع أن نقف على ذلك . إذا بحثنا عنه وتصديداً أخباره تصديداً . من كتب الأدب والأخبار ، ككتب القاضي التنوخي . ولكن ذلك يحتاج إلى جد وكد . ونحن أهل كل : نأكل ما وجدنا . ولو كان شر الطعام ، ولا نكلف أنفسنا عناء الأعداد والطبخ :

ثم إن تاريخ ملوكنا وإن كان أشرف بمئة مرة من تواريخ أمم الغرب . لا يرفع الرأس ، وإذا استثنينا نمرأ من الحكام كالحلفاء الأربعة وعمر بن عبد العزيز ونور

(١) حققت هذا بفضل الله لما عهد إلى وضع مناهج المدارس الشرعية في سورية اليوم الوحيدة . وجمعت مكان التاريخ درس (أعلام الإسلام) .

الدين وصلاح الدين وأورثك زيب وأمثالهم . على نادرة أمثالهم . لم نكذ نجد إلا حاكماً مستهداً إذا وزنت سيرته بميزان الإسلام . لم نرجح في الميزان .

إن رواية المؤرخين رواية عامة . والرواية العلمية هي رواية المحدثين . لذلك كان المرجع الأول لتاريخنا ما رواه المحدثون . وكان الجاهل بمصطلحهم وعلمهم . لا يعد مؤرخاً . وكتب التاريخ هذه . هي المواد الأولية لتاريخ . وليست هي التاريخ . لأن تاريخنا لم يكتب . ولا بدأ من تنقيتها أولاً . ثم ترتيبها . ثم إدخالها المصنع لتصير حينئذ تاريخاً . وإنما على ما هي عليه مخلوط فيها السم بالدمسم . وانقطن بالبرسيم . وإن علمنا كان يعتمد على الرواية . والرواية تقوم على معرفة الرجال .

والطبري وغير الطبري . حين يذكر أن الخبر مروى عن فلان وفلان . يستقطب الشبهة عنه . ويقينها عليك . وعليك أنت أن تعرف الكاذب من الصادق من الرواية . لتعرف الصحيح من الباطل من الأخبار . فإن لم تعرفه حفظاً عرفته مراجعة .

ومن هنا يتبين أن الباحث الذي يدل بحثه بذكر صفحات الطبري (الطبري . صفحة كذا) . مقرر على نفسه بأنه خاطب ليل لا يدري ما يأخذ وما يدع (١) . وأداء هو الذي يسميه عالمنا (المتمش) !

ولذلك كان الاعتماد الأول على رواية المحدثين . ورواية المحدثين ذا درجات . منها الرواية المتواترة الثابتة . والمشهورة . والعزيرة . والصحيحة . والحسنة . والضعيفة . وذا من جهة اسنادها درجات . منها المسندة . والموقوفة . والمرسلة . والمنقطعة . والمعضلة .

وكان لها من جهة افرادها وتعارضها بغيرها أصناف . منها المتفق عليه . والغريب . والشاذ . والمنكر . والعاقد لغيره . والمخصص . والمنقيد . والناسخ . والصحيح درجات . تختلف باختلاف المصححين واختلاف شرائطهم في التصحيح .

وليس يمكن أن يكون مؤرخاً إسلامياً . أو استاذاً للتاريخ الإسلامي . إلا من كان عالماً بالرجال أو كان ممن يحقق عن أحوالهم . عارفاً بالحديث . ومفان وجوده .

(١) فكيف بمن يجعل مستند كتاب « الانفاني » وهو كتاب ادب ومحاضرة لا تغير له لكن لا يستد عليه ولا يروي عنه لان أبا كثرج معروف بالكذب والوضع . وهو فسد لسيرة . بعد من العناد . وهو فوق ذلك شيعي المذهب رغم أن أموي النسب - وهذا من العجائب .

(ومصطاح) أهله . عارفاً بالعربية . يفهم فنواهر الكلام وبواطنه ، وإشاراته
ومعارضه وكان متجرداً عن العصبية والحموى . يريد أن يبحث الحق ورضاء الله .

فإن لم يكن كذلك لم يكن إلا جاهلاً بالتاريخ أو دجالاً . ولو كان استاذ الجامعة
ولو كان صاحب الشهادات الكبار . لأن الدولة تستطيع أن تجعل الرجل استاذاً
بمرسوم . وتقدر أن تجعله دكتوراً بشهادة . قد تكون شهادة زور . ولكن الدولة
لا تستطيع أن تجعل الجاهل عالماً . ولا العصبي نزيهاً . ولا الكاذب صادقاً .

وبعد فهذه كلمة انجر القلم اليها . أردت فيها أن استحث الأدباء . وأثير هدمهم ،
علمهم يقبلون على هذا المنجم البكر فيستخرجوا كنوزه . ويعرضوا على الناس جواهره .
والله الموفق للصواب .

كتبت في دمشق سنة ١٩٣٩ .

بين يدي الكتاب

نحن المسلمين!

سلوا عنا ديار الشام ورياضها . والعراق وسوادها . والأندلس وأرباضها ،
سلوا مصر وواديها . سلوا الجزيرة وقيافها . سلوا الدنيا ومن فيها .
سلوا بطاح افريقية . وربوع العجم . وسفوح التفقاس .
سلوا حناني الكنج . وضياف اللوار . ووادي الدانوب .
سلوا عنا كل أرض في « الأرض » ، وكل حي تحت السماء
إن عندهم جميعاً خيراً من بطولاتنا وتفجحاتنا
ومآثرنا ومفاخرنا وعلومنا وفنوننا
نحن المسلمين!

• • •

نحن المسلمين!

هل روى رياض المجد إلا دماؤنا؟ هل زانت جنات البطولة إلا أجساد شهدائنا
هل عرفت الدنيا أنبل منا أو أكرم ، أو أرفأ أو أرحم ، أو أجل أو أعظم ،
أو أرقى أو أعلم؟

نحن حماتنا المنار الهادي والأرض تبه في ليل

الجهل وقلنا لأهلها : هذا الطريق !

نحن نصبنا موازين العدل يوم رفعت كل أمة عصا الطغيان
نحن بنينا للعلم داراً يأوي إليها حين شرده الناس عن داره
نحن أعلننا المساواة يوم كان البشر يعبدون ملوكهم
ويؤهلون ساداتهم .

نحن أحيينا القلوب بالإيمان . والعقول بالعلم ، والناس كلهم
بالحرية والحضارة

نحن المسلمين !

• • •

نحن بنينا الكوفة والبصرة والقاهرة وبغداد
نحن أنشأنا حضارة الشام والعراق ومصر والأندلس
نحن شيدنا بيت الحكمة والمدرسة النظامية وجامعة قرطبة والجامع الأزهر
نحن عمرنا الأموي وقبة الصخرة وسر من رأى والزهراء والحراء ومسجد
السلطان أحمد وناج شبل
نحن علمنا أهل الأرض وكنا الأساتذة وكانوا التلاميذ

نحن المسلمين !

• • •

منا أبو بكر وعمر ونور الدين وصلاح الدين وأورنك زيب
منا خالد وطارق وقتيبة وابن القاسم والملك الظاهر
منا البخاري والطبري وابن تيمية وابن القيم وابن حزم وابن خلدو
منا الغزالي وابن رشد وابن سينا والرازي
منا الخليل والجاحظ وأبو حيان
منا أبو تمام والمتنبي والمعري
منا معبد واسحاق وزيباب

منا كل خليفة كان الصورة الحية للمثل البشرية العليا
وكل قائد كان سيفاً من سيوف الله مسلحاً
وكل عالم كان من البشر كالعقل من الجسد
منا مائة ألف عظيم وعظيم . نحن المسلمين !

* * *

قوتنا بإيماننا ، وعزنا بديننا ، وثقتنا بربنا
قانوننا قرآننا ، وإمامنا نبينا ، وأميرنا خادمنا
وضيفنا المحقق قوي فينا ، وقويننا عون لضعيفنا
وكلنا إخوان في الله ، سواء أمام الدين . نحن المسلمين !

* * *

نحن المسلمين !

ملكنا فعدلنا ، وبنينا فأعلينا ، وفتحنا فأوغلنا ، وكنا الأقرباء المنصفين ، سننا في
الحرب شرائع الرأفة ، وشرعنا في السلم سنن العدل ، فكنا حير الحاكمين ، وسادة
الفتاحين

أقمنا حضارة كانت خيراً كلها وبركات ، حضارة روح وجد ، وفضيلة
وسعادة ، فعم نفعها الناس ، وتنقياً لظلالها أهل الأرض جميعاً . وسقيناها « نحن » من
دمائنا ، وشدناها على جماجم شهدائنا

وهل نلت أرض من شهيد لنا قضى في سبيل الإسلام والسلام ، والإيمان والأمان؟

* * *

نحن المسلمين !

هل تحققت المثل البشرية العليا إلا فينا ؟

هل عرف الكون مجعاً بشرياً (إلا مجمعنا) قام على الأخلاق والصدق والإيثار؟

هل اتفق واقع الحياة ، وأحلام الفلاسفة وآمال المصلحين ، إلا في صدر الإسلام ؟

يوم كان الجريح المسلم يجود بروحه في المعركة يشتهي شربة من ماء فإذا أخذ الكأس رأى جريحاً آخر فآثره على نفسه ومات عطشان .

يوم كانت المرأة المسلمة يموت زوجها وأخوها وأبوها فإذا أخبرت بهم سألت : ما فعل رسول الله ؟ فإذا قيل لها : هو حي ، قالت : كل مصيبة بعده هينة .

يوم كانت المعجوز ترد على عمر وهو على المنبر في الموقف الرسمي وعمر يحكم لإحدى عشرة حكومة من حكومات اليوم

يوم كان الواحد منا يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويؤثره عليها ولو كان به خصاصة.

وكنا أظهاراً في أجسادنا وأرواحنا ومادتنا والمعنى

وكنا لا نأتي أمراً ولا ندعه ولا نقوم ولا نقعد ولا نذهب ولا نجيء إلا لله

قد أمتنا الشهوات من نفوسنا فكان هوأنا تبعاً لما جاء به القرآن

لقد كنا خلاصة البشر وصفوة الإنسانية

وجعلنا حقاً واقعاً ما كان يراه الفلاسفة والمصاحون أملاً بعيداً

نحن المسلمين !

• • •

تنظم في مفاخرنا مائة ألياذة وألف شاهنامه

ثم لا تنقضي امجادنا ولا تفتنى ، لأنها لا تعد ولا تحصى

من يعد معار كنا المظفرة التي خضناها ؟

من يحصى مآثرنا في العلم والفن ؟

من يستقري نابغينا وأبطالنا ؟

إلا الذي يعد نجوم السماء

ويحصى حصى البطحاء

اكتبوا (على هامش السيرة) ألف كتاب

و(على هامش التاريخ) مثلها ،

وأنشوا منة في سيرة كل عظيم
ثم تبقى السيرة ويبقى التاريخ كالأرض العذراء والمنجم البكر ؟

• • •

نحن المسلمين !

لسنا أمة كالأمم تربط بينها اللغة ففي كل أمة خير وشرير .
ولسنا شعباً كالشعوب يؤلف بينها الدم ففي كل شعب صالح وطالح . ولكننا
جمعية خيرية كبرى
أعضاؤها كل فاضل من كل أمة ، تقي نقي .

تجمع بينا التقوى إن فصل الدم . وتوحد بينا العقيدة إن اختلفت اللغات
وتديننا الكعبة ان تئامت بنا الديار

أليس في توجهنا كل يوم خمس مرات إلى هذه الكعبة . واجتماعنا كل عام مرة
في عرفات . رمزاً إلى أن الإسلام قومية جامعة ، مركزها الحجاز العربية وإمامها
النبي العربي وكتابها القرآن العربي ؟

• • •

نحن المسلمين !

ديننا الفضيلة الظاهرة ، والحق الأبلج
لا حجب ولا أستار ولا خفايا ولا أسرار .
هو واضح وضوح المثناة . أفليس فيها ذلك المعنى ؟
هل في الدنيا جماعة أو نحلة تكرر مبادئها وتذاع عشر مرات كل يوم
كما تذاع مبادئ ديننا نحن المسلمين ، على ألسنة المؤذنين :
أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله

• • •

نحن المسلمين !

لا نهن ولا نحزن ومعنا الله

ونحن نسمع كل يوم ثلاثين مرة هذا النداء العلوي المقدس هذا النشيد القوي :

الله أكبر

البطولة سجية فينا ، وحب التضحية يجري في عروقنا

لا تنال من ذلك صروف الدهر ، ولا تمحوه من نفوسنا أحداث الزمان

لنا الجزيرة التي يشوى على رماذا كل طاع يمتأ تراها ويعيش أهلها من جحيمها

في جنات

لنا الشام وغوصتها التي سقيت بالدم ، لنا فيها الجبل الأشم

لنا العراق لنا (الرميثة) وسهول الفرات

لنا فلسطين التي فيها (جبل النار)

لنا مصر دار العلم والفن ومثابة الإسلام ..

لنا المغرب كله ، لنا (الريف) دار البطولات والتضحيات

لنا القسطنطينية ذات المآذن والقباب ، لنا فارس والأفغان واذند وجاوة

لنا كل أرض يثلى فيها القرآن وتصدح مناراتها بالأذان

لنا المستقبل .. المستقبل لنا إن عدنا إلى دتنا

نحن المسلمين!

• • •

وديعته

كان فتى من أبناء التجار . يارع الفتوة . واسع الغنى . قد جمعت له اللذائذ .
وسميت إليه النى . دكانه البحر تنصب فيه جداول الذهب . ودوره البهة تجري من
تحتها الأنهار ، وفيها الخور العرين . خمسون من الجوارى الفائنات اللاتي حمان إلى
بغداد من أقطار الأرض وحشدن فيها . كما تحمل إلى شمع العروس كل وردة فائنة
في الروض . وزهرة جميلة في الجبل :

ولكنه لم يشعر بنعيم الحياة . ومنتعة العيش . حتى اشترى هذه الجارية بخمسة
دينار وكان قد رآها في سوق الرقيق فرأى جمالاً أحلى من أحلام الحب . وأجمل
من بلوغ الأماني . وأظهر من زنبقة الجبل . فهام بها هياماً . وزاد فيها حتى بلغ بها هذا
الثمن . وانصرف بها إلى داره . وهو يحسب أنه قد حيزت له الدنيا . وأمتع بالخاود .
واشغل بها وانقطع إليها . ولم يعد يخرج إلى الدكان إلا ساعة كل يوم ثم لا يستطيع
أن يصبر عنها . ويزلزله الشوق إليها . وتدركه هواجس الحب فيغار عاينها . لا من
الناس فما يصل الناس إليها . بل من الشمس أن تلمعها عين الشمس . ومن النسيم أن
تلمسها يد النسيم . ويشعر بهذه الغيرة المحرقة في قلبه . فيهرع إليها ليظفنها بامائها .

لقد صار هذا الحب مصدر لذته . وسر حياته . ما كان يدري من قبله ما البذة
وما الحياة . وما كان يحس أنه يعيش حقاً . وأن له قلباً . وما كان يدرك من قبله بهاء
النهار ، ولا فنة الليل . ولا سحر التمر ، كان ذلك عنده كالألغناظ بلا معنى . يفهم منسه

ما يفهمه الأعجمي إذا تلوت عليه غزل العرب ، فلما عرف الحب أدرك أن وراء هذه الألفاظ معاني تهز الفؤاد ، وتستهوِي القلب . وكان يمشي في طريق الحياة كما يمشي الرجل في المتحف المظلم ، فطلع عليه هذا الحب نوراً مشرقاً أراه هذه التحف الفاتنات وهذه الروائع .

•••

وتالت الأيام ، وزاد إقبالاً عليها وإعراضاً عن الدكان . وكان يبصر دنياه تدبر عنه ، وتجارته تذوب في ضرم هذا الغرام كما يذوب الثلج ، وتتبدد كما يتبدد الندى في وهج الشمس ، ولكنه لا يكره هذا الحب ولا ينفر منه ، ولا يزداد إلا تعلقاً به وتمسكاً بأهدابه . . . وكان كل ما في الحياة من متع ، لا يعدل عنده لحظة واحدة من لحظات الوصال . وذهب الأرض كله لا يساوي هناة من هناعات الحب ، فكان يترك البائعين والمشتريين ، ويسمى إليها ليشتري منها اللذذات والقبل .

وكانت كلما نصحته وأرادته على العود إلى تجارته ، قال لها : مالي وللمال ! أنت مالي وتجارتي ومكسبي ، فلا تستطيع أن تفتح فمها بجواب لأن شفثيه تقيدان فمها فلا يفتح ! وأصبح الرجل ذات يوم فإذا التجارة قد بارت ، وباد المال ، وذهب الأثاث ، وبيعت البخاري . ولم يبق في يده شيء يباع ؛ فأقبل ينقض الدار ويبيع أنقاضها ، ولم يأس على ذاهب ، ولم يحس بفقد مفقود ، فقد كان يلقي الحبيبة ، ويجد في حبها غذاءه إذا جاع . وريته إذا عطش ، ودفته إذا برد ، وفي وجنتيها ما يغنيه عن الأوراد ، وفي ثناياها بدلاً من الآنى ، وفي ريقها عسله المصنفي ، وخمره المعتق ، ومن ريحها عطره الفواح ، وفي صدرها دنياه ، ويرى الدار الخالية معها قصرأ عامراً ، والصحراء روضة مزهرة ، والليل المظلم معها نهاراً مضيئاً . . .

وأثمر الحب وجاء الحصاد ، ولكنه قد خالف مواعده ، فلم يجيء في الربيع الطلق ، ولا في الصحو الجميل ، بل قدم في الشتاء الكالح ، والأيام القاتمة الدكناء ، أيام الفقر والعوز ، وأخذها المخاض فجملت تتلوى من الألم على أرض الحجر ، وما تحتها

إلا حصير تقطعت منه الحيوط، وفراش بلي وجهه، وتناثر قطنه حتى اختلط بالتراب...
وطال عليها الوجع وهو واقف أمامها يحس أن ألمها في ضلوعه، وأن كل صرخة منها
سكين^(١) محمى يحز في قلبه، ولكنه لا يسند لها شيئاً. وقالت له بعد أن عجزت عن الاحتمال:
— اني أموت... فأذهب فاحتل بشيء تشتري به عسلاً ودقيقاً وشيرجاً^(٢) اذهب
وعجل: فإنك إذا أبطأت لم تجدني.

وخرج... وصار يعدو كالمجنون، أين يذهب والليل قد مالت نجومه؟ والناس
نيام في دورهم. ولا يجد من يلجأ إليه، فقد فصله الحب عن الدنيا وصبره غريباً فيها.
ليست منه ولا هو منها: وكذلك يصنع الحب!

وجعل يهيم غنى وجهه حتى بلغ الجسر، جسر بغداد، وكان الليل خاشعاً ساكناً.
والناس قد أمّوا بيوتهم، وأنسوا بأهليهم، وهو الوحيد الشارد، لا أهل له إلا التي خلفها
تعاني سكرات الموت، وعجز عن إسعادها. ولا دار له إلا هذه الخربة التي فرّ منها.
لقد كانت هذه المرأة حظه من دنياه، وها هي ذي تموت فلا يبقى له في دنياه حظ:
وكانت هي نورها فلن يبقى له بعدها من نور.

وتصور الوحشة المخيفة، والوحدة المرعبة، التي سيقدم عليها إن ولت عنه هذه
المرأة التي كان يعيش بها وطناً، ونظر إلى ماء دجلة يجري اسود ملتقاً ببرد الليل،
فأحب أن تواريه أحشائه، وتراءى له الموت حلواً فيه متعة اللقاء، وأنة الاجتماع...
وعاد فذكر آلام الحية وانتظارها، وعجزه عن معونتها وإسعادها، فتوجه إلى
الله ودعاه من قلبه صادقاً مخلصاً وقال: «يا رب، إني استودعتك هذه المرأة وما في
بطنها...»، وهمّ بإلقاء نفسه في الماء، وفكر في الموت فوارت صورته أحلام الحب

(١) السكين مذكر، وحكي فيه التأنيت.

(٢) دهن السمسم: معرب شيرة، وعامة اشام ومصر تسميه اليوم: السبرج.

بورواه ، ولم يعد يرى إلا هذه الهوة التي سيتردى فيها . وتناق (درايزين) ^(١) البحر
 فأدركه حلاوة الروح فراح يتصور برودة الماء ، ويفكر في الموت هل يأتيه سهلاً هيناً ،
 أم هو سيذيقه العذاب ألواناً ، وحاول أن يتذكر ما سمع عن القرقي ، وهل يختنون
 عاجلاً أم يبطيء عليهم الموت ، وذكره هذا العذاب بعذاب الله يوم القيامة ، أليس الله
 قد حرم الانتحار ؟ أليست هذه النفس ملكاً لله وحده أودعها جسده أمانة ليستردها
 متى شاء ، ليست له هو ولا يملكها ، وليس هو الذي خلقتها وأبدعها ، وذكر أنه
 توجه إلى الله واستودعه حبيته فكيف يأتي الله آثماً وبئسأه عونها وحفظها . وتبه
 إيمانه فتردد ، ووقف ... ثم عاوده التفكير في حياته بعد اليوم . وكيف تكون إن
 ذهبت منها متعة الحب ، فرجع إليه يأسه وقنوطه وعزم عزماً مبرماً على الموت وأغضض
 عينيه . وخفق قلبه من هول ما يقدم عليه ، وكاد يقفز ولكن ... ولكن قوة لم يطقها
 دفعاً ، ولم يملك معها حراكاً أمسكت به ... تلك هي الصيحة التي أحس بها من بعد ،
 ثم رآها امتدت حتى بلغت الأفق الذي أطل منه النجم ، والأفق الذي انغمس فيه
 الليل ، ثم غمرت النهر والشاطئين والمدينة ... فأحس بها تشرق على نفسه كهذا النجم
 فتبدد ليلها ، ذلك هو صوت المؤذن ، بنادي في صفاء الليل وإصغاء الدنيا . أجل وأجمل
 نداء اهتر به هذا الفضاء ومشي فيه : « الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله » .

وسمع : « حي على الصلاة ، حي على الفلاح ، فرأى فيها مجد الآخرة بالعبادة ،
 ومجد الدنيا بالنجاح ، وصبت القوة والعزم في أعصابه فعدل عن الموت ، ورجع
 إلى الدار فرأى فيها نساء من نساء الجيران سمعن صوتها ، فجنن إليها ، فسألن
 عنها ، وكانت مغنى عليها فحسبوا ماتت وأخبروه بموتها فلطم وجهه وشق ثوبه ،
 وانطلق ماشياً على غير هدى تقذفه قرية فتلقاه قرية ، يضيفه الناس ، وقد كان في
 الناس سلائق العرب وآداب الإسلام ، يضيفون الغريب لا يسألونه من هو ولا يتغنون
 منه أجراً ولا شكراً ، وجعل يطوي الأرض ، والأرض تطوي صحائف عمره ، حتى
 حطت به النوى في خراسان .

(١) الدرايزين : فارسي عرب من القديم .

ولقي من عرفه فيها ومد إليه يده مسعداً معيناً فعاد إلى تجارته ... وجعل يفكر لما استقر به المنزل في داره في بغداد. ويكتب الكتب يسأل ويستنجد ويلج ويتوسل حتى كتب ستة وستين كتاباً^(١) ، ولم يرجع إليه جواب .

وأثرى وامتلأت يده بالذهب ولكن قلبه ظل خالياً من الحب . وما كان يوسع فيه الأسى مكاناً لحب جديد ، فكان كلما احتواه العشية منزله ، وأغلق عليه بابَه جفا عالم للناس وراحت روحه تسبح في عالمه هو ، عالم ذكرياته وماضيه الذي أحبه وافتقده ولم يجد منه بديلاً ، فيشعر بحرارة تلك القبل . ويسمع وسوستها ، ويلمس دفء ذلك العناق ، ويستروح نسيم تنك الدار التي كانت جنة وارفة الظلال ، فيها الروح والريحان وفيها من كل فاكهة زوجان . فصيرها الحب قاعاً صمغاً ... ولكن تلك الخبرة كانت أحب إليه من هذا القصر الذي يعيش فيه اليوم وحيداً لا يؤنسه فيه إلا الذهب .

وتصرمت السنون ، وتتابعت خالية فارغة ، حتى أقامت بينه وبين ليلة المخاض حاجزاً من الأيام سمكه ثمان وعشرون سنة ، وهبت على عمره رياح الخريف ، فنوى غصنه ، وكاد يدركه الجفاف ، فأفزعته أن يموت بعيداً عن بغداد وعن داره التي ثوت فيها الحبية . فباع كل ما يملك بعشرين ألف دينار من الذهب ، واشترى قماشاً وبضاعة حملها إلى بغداد ، وسار في قافلة له ضخمة يؤم أرض الوطن ... ولم يكن له من أمل إلا أن يقيم بهذا المال قبراً ضخماً للحبية ويجعل له فيه مكاناً ، ولكن الدهر لم يبلغه حتى هذا الأمل ، فقد خرج على القافلة اللصوص . فنهبوا ، وقتلوا من فيها ، ولم يتركوا منهم أحداً .

ونفض من بين الموتى ، وسار على رجليه وقد تبدل ذهنه من عظم الفاجعة حتى ما يقدر على الحزن ، ومشى حتى حاذى النهر ، وجعل يمر على مغارم التخيل ، ومشارع المياه ، ومنابت الورد والنفل ، وهو سادر ساهم ، كأنما يمشي في حلم ، قد ماتت في نفسه كل رغبة إلا الرغبة في الموت . . . وماذا بقي له في الحياة بعد ما فقد

(١) كذا في الأصل التاريخي .

الحب ، وفقد المال ؟ ولكنه لم يشأ أن يموت إلا في داره ولم يرد أن يضم عظامه إلا الثرى الذي ضم أعظم الحبيبة كي يجاورها في الموت كما جاورها في الحياة. وتحامل على نفسه وقام يجر رجله جراً ، وكلما دنا من بغداد وأحس ريحها انتعش واشتد ، وعاش بذكريات الحب الذي ذهب ولم يبق إلى عودته سبيل ، وآتسه أن يرى مرة ثانية الديار التي شهدت صور هذا الحب ، ولكنه أعيأ أخيراً وسقط على الشاطئ ولم يعد يستطيع الحراك ...

وجعل يفكر تفكيراً مبهماً ملتائماً ، يقطعه الجوع الذي يفري أمعاءه ، والتعب الذي يهد عظامه ، فيرى أنه كان في حلم وصحاً منه ... الدنيا كلها حلم كاذب : الحب . والمال ، والصحة والسعادة والمجد ... لا يخلد شيء من ذلك ولا يبقى . لا يبقى منه إلا ذكرى تبعث ألماً ، وتثير حسرة ، وتحرق القلب . وتتمنى أن لو كان خلق فقيراً منفرداً ، ما عرف لذة الألفة ، ولا متعة الغنى ، وعادته فكرة الموت التي كانت مرت بذهنه منذ ثمان وعشرين سنة ، ولكن دينه منعه أن يختم حياته بهذه الخاتمة البغيضة ، وأن يجمع على نفسه شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وهبت عليه نفحة من نفحات الإيمان فاستراح إليها ، وذكر أنه استودع فتاته الله ، ولا تضع عند الله الودائع ، وأن وراء هذه الأحداث حكمة بالغة ، وقدرأً حكيماً . فاطمأن إلى حكمة الله وسلم أمره إليه ووجد بهذا الاطمئنان راحة وشعباً . . .

وسمع صوت بوق يرعد على حاشية الأفق فنظر فإذا (زلال)^(١) فحتم قد أقبل عليه ، فلما حاذاه أشار ونادى ، وسأل صاحبه أن يحمله إلى بغداد ، وكان فيه أمير كبير ، ولكن (الديموقراطية) كانت شعار العرب ، وكانت سليقة فيهم ، لا يمنع الأمير مجده ان يقف لفقير سائل ويحمله معه - فأدخله الزلال وأطعمه وخلع عليه ولم يسأله عن خبره لأن النوم قد غلب عليه فهجع كالقتيل قبل أن يسأل وقبل أن يجيب .

(١) كلمة عباسية مولدة ، معناها: السفينة الحربية .

ولما أفاق كان المساء قد حل ، وكانت بغداد قد بدت ، وسربت الزوارق والسفن على سطح دجلة الفاتن تنشد خوراً وتبغى لذة . وتملأ الضفتين نعماً سائغاً . وحباً ومجداً . وترنحت القصور طرباً ، وانتشت الرياض أنساً . وتعانق النخيل وتشاكي الغرام ، وترافقت الأمواه من دجلة وتناجت بالحب . وسكرت السفن وهامت . وسدرت بغداد في نشوة الظفر . وكانت بغداد هي الدنيا . وكانت دائرة الخلافة . وكانت عاصمة الأرض . وكانت منبع العلم والتميز . ومثابة الغنى والترف . وكان فيها الإصلاح وفيها الفجور . وفيها الخيرات وفيها الشرور . وفيها من كل شيء ... وكذلك تكون الدنيا . !

وكان دجلة يسير مزهواً طرباً . فقد بدأ سيره منذ الأزل . ورأى الحكومات تقوم وتقع حتى مل قيامها وقعودها . وشهد من بأساء الحياة ونعيمها ما زهده في نعيمها وبؤسها ، ورأى الأنام حتى كره مرأى الأنام . ولكنه لم ير أياماً أحلى ، ولا مجداً أبقي ، ولا ناساً أتقى وأتقى . من تلك الأيام وناسها .

وجاز الزلال بتلك ثسفن والزورق الخاتمة السكرى . كأنه لبطن تقوي يعر بالحسان في يوم عرس ، فاجتمع على الصنفة الحب والخرب . والعز وافوى . هذا يمثنه زلال الثغائد ، وتلك تمثنها زوارق العشاق ، وكان يمضي إلى غيبته مسرعاً كأنه يسابق شعاع الشمس إلى الأفق الزاهي ، وكان هو أيضاً شعاعة من الشمس التي أضاءت الدنيا في هاتيك الأيام ، فأشرقت على القلوب عاطفة وجمالاً . وعلى العقول عنماً وكالاً . وعلى المسلمين عظماً وجلالاً ، وعلى الناس كلهم حضارة وتمدناً وسلاماً وأماناً ، وضوأت لهم طريق المجهول ، وشقت لهم السبيل الموصلة إلى تحقيق المثل العليا في المجتمع البشري ، تلك هي شمس بني العباس إذ كان بنو العباس سادة الأرض .

وأنزله الزلال على الجسر ، حيث قام تلك الليلة . فأعاده البحر إلى ماضيه ، فأحس بأن هذه السنين كلها لحظة واحدة ، وأنها صفحة قد سقطت من سفر حياته ، فاتصل ما قبلها بما بعدها . ورأى الناس من حوله ، فهم بأن يسأفهم درهماً يشتري به عملاً

ودقيقاً وشيرجاً لامرأته التي أخذها المخاض ، وأسرع يريد أن يدركها قبل أن يشتد بها الألم ثم انتبه فرأى هذا الحجاب الصفيق من الزمان يقوم بينه وبينها ، ثمان وعشرون سنة ليست يوماً ولا يومين ... دهر طويل ولد فيه ناس ومات ناس ، عمر كامل ... ، وتهاقت وخمدت هذه الشرارة من الأمل التي أضاعت في نفسه ، وسار محطماً مكدوداً يبصر الوجوه من حوله فبرأها غريبة عنه لا يعرفها ، ويرى المسالك والدروب فينتش عن ذكرياته فيها فلا يجدها ... حتى بلغ الدار ونظر فإذا الحربة التي خلف فيها الحبيبة قد صارت داراً فخمة على بابها الجند و (الشاكرية) فوقف ينظر إليها من بعيد ... هذه داره التي رجع إليها ليتخذ لنفسه من ثراها قبراً ولكنها انكرته واعرضت عنه . لقد عاد غربياً في بيته منكرأ في بلده . إنه ميت يمشي بين الأحياء . لقد بحث عن أثر واحد من دنياه التي كان يألفها ، فإذا كل شيء قد تبدل ، فلا الوجوه بالوجوه ، ولا الأمكنة هي الامكنة ! فيا ويح الزمان كيف صنع ذلك كله ! هذا الجبار المخيف الذي يفعل الأفاعيل ، ولا يحس به أحد ولا يبصره ولا يلمسه بيده ... ثم استغفر الله واناب إليه ، انه هو الفاعل المدبر ، فلا الزمان ولا الاحداث بقادرة على شيء إنه هو وحده الذي يصرف الأكروان .

وولى ليعود فيضرب في الأرض حتى يموت . فما يبالي الآن أين يدركه الموت بعد أن حرم آخر أمانيه ، وهو أن يواريه الثرى الذي وارى جسد الحبيبة ، ولم تسل من عينيه دمعة ، ولم يتحرك لسانه بكلمة وداع . ولم يفكر في شيء فقد تواردت الآلام على قلبه حتى صار هو كتلة من الألم جامدة تسمى قلباً ، وتتابعت عليه المصائب حتى صارت حياته كلها مصيبة ... ويئس من السعادة حتى ما عاد يفكر فيها ، او يؤمله فقدها ، وتلفت ليودع المكان الذي اصطفاه من دون الامكنة ، وأودعه اعز شيء عليه : حبيته وذكرياته ، ويشمله بنظرة فإذا هو يرى دكان بقال (كان يعرفه) لا تزال قائمة على العهد بها . كما يقوم الظلل البالي في المدينة العامرة ، فأسرع إليها ..

« وكان فيها شاب حدث علم منه أن أباه البقال مات من عشرين سنة ، وأن الدار لابن داية أمير المؤمنين المأمون وصاحب بيت ماله ، وأن لهذا الرجل قصة عجباً . فقد

كان ابوه من سراة التجار ، فاشترى جارية اولع بها وعكف عليها حتى افتقر ، وجاءها المخاض فذهب يطلب خا شيئاً فلم يرجع ، وأسعفها البقال ابو الغنمى ، وولد للرشيد مولود فطلبت له المراضع فلم يقبل ثدي واحدة منهن فدئ على الجارية فقبل ثديها ، وصارت ظفـره وكان المولود هو أمير المؤمنين الذأمون « (١) .

ويسمع الرجل القصة فيحس أن الأرض تدور به . فيمر بآلاف الصور والألوان ، والشكوك والأمانى . ثم يسأله : وأين ام الولد ؟ ويحس أن هذه اللحظة التي انتظر فيها الجواب ، قد طالت حتى غدت دهرأ ، وأنه كالثائم ليسمع الحكم عليه بالبراءة أو القتل . فيقول الغنمى : إنها باقية تغدو إلى دار الخليفة اياماً ، وتكون مع ابنتها اياماً ، ولكنها لا تزال حزينة لم تسمح آلامها الأيام ، ولم ترقأ دمعها .

وبدء الرجل ويركض إلى الدار . يشعر أنه يشي في الزمان . يعود ادراجه إلى عهده الماضيات . إلى عهد الحب الفصاحك . ولياليه المترعات بالقبيل . لقد نسي في هذه الخطوات كل ما نسي من شقاء . وما حصل من ألم . وامتلأ قلبه شكرياً لله الذي استودع حبيبته وما في بنتها فما ضاعت عنه الزينة . وهذه الحبيبة التي طالما بكأها بحسبها ميتة وجاء ليدفن جسده ألواني بجانب رفاتها . قائمة تنتظره ، لتمنحه عطرها وسحرها ونحرها . وهذا الجنين الذي خلفه على باب الموت قد غدا شاباً ممثلاً قوة وأيداً ومالاً ومجداً .

ووصل إلى هذا الشاب ، فقال له : ما تبغى ؟

فحمق قلبه ، وتلاحقت أنفاسه ، وهمت مقلتاه ، ولم يجد ما يمهده به الحديث ،

فقال له :

— أنا أبرك !

(١) مابين الهالين الصغيرين من النص التاريخي للقصة .

ونظر الشاب شاكاً . وقال له : اتبعني .

فاتبعه . فاجتاز به صحناً بعد صحن . حتى انتهى إلى مكان الحرم فأقامه أمام ستارة .
وذهب ليسأل امه : ودل الرجل قلبه على أن الحبية وراء الستارة فناداها : وإذا الستارة
تهتك . والمرأة تثب إلى عنق الرجل . تبكي وتضحك . وتضحك وتبكي . وتتفون
ما لا تدريه ...

ويدبر الشاب وجهه فما يحسن به ان ينظر إلى أبويه وهما يجددان عهداً اخوى
والشباب .



في بيت المقدس

كانت (مارييت) تدور في البيت ، ماتستطيع ان تستقر ، من جزعها على زوجها واشفاقها ان يصيبه مكروه ، تضم ولدها الرضيع إلى صدرها ، تناجيه وتناغيه ، ثم يدركها اليأس ، ويخيل اليها انه قد غدا يتيماً لا أب له ، فتساقط الدموع من عينيها على وجه الطفل فيفتق مذعوراً ويبكي ، فتمترج دموع الحب ، بدمعة الطفولة ...

وكان زوجها قد خرج من الغداة لرد الأعداء المسلمين عن بيت المقدس ، ومالت الشمس ولم يعد ، ولم تعرف ماذا حل به ...

وكانت مارييت فتاة باسلة ، ثابتة الجنان ، لم تكن تعرف الخوف ولا تخلع الحوادث فؤادها . ولكن وقعة (حطين) لم تدع لشجاع من الإفرنج قلباً ، ولم تترك لغارس فيهم مأملاً في نصر ، فقد طحنت جيوشهم طحناً ، وعركتها عرك الرحي ، وزعزت قلوب الكماة عن مواضعها . فكيف بقلوب الغيد الحسان ؟

وكان زوج (مارييت) فارس الحلبة ، وبطل القوم ، وكان قد رأى البنات من الإفرنج والألمان والإنكليز وكل أمة في أوربة ، يملأن جوانب القدس ، فلم ير فيهن من هي افتن فتنة وابهى جمالا ، من (مارييت) ، فهام بها وهامت به ، وتزوجها فكانا خير زوجين ، وكانت حياتهما التعميم كله ، ودارهما كأنها لها جنة عدن ... ولكن حبه لها لم يشغله عن حبه لوطنه ، وتمسكه بصليبه ، وحرصه على أن يبقى ابداً

فارس النصرانية المعلم ، وبطلها . فكان كلما سمع نامة طار إليها . وكلما دعا داعي القتال كان أول المالبين ...

وفتح الباب ، فحتم قلب مارييت وتلاحت انفاسها ، ولم تدر أهو البشير أم هو الناعي ، وتلفتت فإذا هي بزوجها يدخل عليها سالماً . يمد لها ذراعيه فتلقي بنفسها بينهما ... ويحدثها حديث النصر : لقد رد (يسوع) الأمداء ، وفدت في انضادهم فانطلقوا هاربين ، قبل ان تباشر حرباً ، او نشرع في قتال . لقد استقر إبتها الحبيبة ملك المسيح في بيت المقدس إلى الأبد ، ولو إبسرتهم يا مارييت ، وقد ذهب الفرع بألبابهم لما رأوا اسوار المدينة ، تطل من فوقها أبطال النصرانية . وفرسان الصليب ، فهذه اخيامهم ، وولوا الاديار لا يلبون على شيء ، لا يريادون إلا النجاة ... لما صدقت ان هؤلاء هم الذين فاءوا تلك الذمعة في (حطين) . لقد فروا فالعاج الشاردة ... فيا ليت أبطال المقدس كانوا في (حطين) ، ليروهم يومئذ ما القتال !

ألا تقدس الصليب ، وتبارك اسم الناصرين ، ان اورشليم لنا إلى الأبد ! !

ومشت معه إلى الكنيسة الكبرى ، لتحتفل الاحتفال بالنصر ، وكان يحدثها في الطريق عن هؤلاء الوحوش الكافرين ، ويرصف لها فظاعة ديانتهم ، وقسوة رجالهم ، وكيف يأكلون لحوم اعدائهم ، ويشربون دماءهم ، ويرصدون لها ملكهم (مسالح اثنين) كما وميند له الكهنة ورجال الكنيسة . فترتجفت اضالعها خوفاً وفزعاً من هذه الصورة المرعبة ، وتفسم ولدها إليها ، وتصلب ، وتستجير بالانديسين جميعاً ، وبالمدراء ، ان لا يجعلوا له سبيلاً إليها ... وأن لا يروها وجهه المخيف ...

وينتضي الاحتفال ويرجعون من الكنيسة ، وهي تحس أن الدنيا قد أنقت اليهم مقاليد الأمان ، وان الدهر قد حكمهم فيه ، ونزل على حكمهم ، وتستلقي على فراشها ، وهي تدايب الآمان ، تتأججها ، حتى إذا بان بها التأميل أن ترى هذه البلاد كلها قد بادت للمسيح ، وأباعد . ولم تبقى في جنباتها منارة مسجد ، ولم يعد يتردد في جوارها أذان ، وترى زوجها قد علا في المنامب حتى صار القائد المفرد . انعدمت

عينها على هذه الصورة الحلوة وأخذتها معها في أحلامها ... ونامت ... ولكنها لم تجد إلا حلماً مزعجاً : لقد أحست كأن المدينة تتقلقل وتميد ، وكأن حصونها تدك دكاً ، وتخر حجارتها ، وتتهدم كما يتهدم عش عصفور ضعيف بضربة من جناح نسر كاسر ، وخالطت سمعها أصوات العويل والبكاء تتخللها صرخات الرجال ؛ فعلمت أنه ليس بحلم ولكنها الحقيقة ، فوثبتت تحمل إبنتها ، ونظرت إلى سرير زوجها فلم تلقه في مكانه ... فخرجت تسأل ما الخبر ، فخبروها أن (صلاح الدين) ، قد دار حول البلد حتى حط على جبل الزيتون ، ثم صدم المدينة صدمة زلزلتها وهزتها هزاً ، وكادت تقتلعها من أساسها ، كما تقتلع الشجرة من الأرض الرخوة ، ورماتها بالمنجنيقات والعرادات ، وقذفها بالنيران المشتعلة ، وهجم جنوده على الأسوار كالسيل المنحط ، بل كأبالسة الجحيم ، لا تحرقهم نيراننا ، ولا يقطع فيهم حديدنا ، كأن المردة والشياطين كلها تقاتل معهم ...

وكانت (مارييت) واثقة من قوة الدفاع ، فالقدس بلد النصرانية لبثت في أيدي أهلها مائة سنة لا سنة ولا سنتين ، وفي القدس ستون ألفاً هم خيرة أجناد الصليب ، يقودهم (بليان) ويصرفهم البطيريك الأكبر ، ولكن هذه المفاجأة روعتها ، وأدخات الشك إلى قلبها ...

وظفقت الاخبار تصل إليها متعاقبة ترى وكل خبر شر عليها من الذي قبله ، وكلما مرت دقيقة سمعت نبأ جديداً عن شدة الهجوم ومضائه ، وعن تحطم أدوات الدفاع ، حتى جاءها الخبر بأن الرايات البيض ، قد رفعت على الأسوار ، وأنها قد عقدت الهدنة ، على أن يخرج من شاء من المدينة في مدة أربعين يوماً ، ومن أراد البقاء بقي في حكم صلاح الدين ، وان تفتح له المدينة أبوابها ، وأن يدفع الرجل الذي يريد الخروج عشرة دنانير والمرأة خمسة والولد دينارين .

وتركت (مارييت) القوم في رجعتهم ، وخرجت تفتش عن زوجها الحبيب ، ومشت في الظلام تدور حول الأسوار ، تنظر إلى الأبواب المفتحة ، والجنود

الظافرين يدخلون بالمشاعل والطبول ، فتشد يدها على ولدها وتمضي متباعدة ، حتى تبلغ ساحة القتال ، فإذا هي تظأ على أعلام الصليبيين ممزقة محرقة ، مختلطة بجثث الأجناد ، مقطعة الأوصال ، فامتألت نفسها رهبة وخوفاً ، وهمت بالعودة ولكنها غالبت النفس ومشت ، فقد كانت تفتش عن زوجها ، ولا تستطيع أن ترجع حتى تلقاه أو تعرف خبره . وكان حولها رجال ونساء كثيرون يبحثون كما تبحث ، عن قريب أو صديق ، وتمثلت ذلك الأمل الضخم أمل (الوطن القومي) الصليبي ، فألفته قد مات هو الآخر ، وألقت جثته ... ورأت هذه الارض قد عادت للقوم الكافرين يسوع وأمه ... وأحزنها ذلك كما أحزنها فقد زوجها ، وتضاعفت به مصيبتها وحاولت أن تتعرف وجوه القتلى ، من أحبائها وعشيرتها ، فأخفقت وعجزت ولم تبصر شيئاً من الظلام ، ومما أصابهم من التبديل والتغير . وتمثلت لما حياتها كلها ، فإذا هي قد ذهبت . وجاءت في مكانها حياة جديدة : حياة رعب وفرع وشقاء ، لا تعرف عنها شيئاً ، ولا تدري ولا يدري أحد من قومها كيف يكون مصيره في ظل الحكم الجديد ، وذكرت ما قاله لما زوجها عن فظاعة هؤلاء الفاتحين ، فأحست عند ذكر زوجها كأن قلبها قد انتزع من صدرها ، وطار في أثره ، وفكرت فيه : أي أرض تقله ؟ وأي سماء تظله ؟ وهل هو قتيل قد تمزق جسمه الجميل ، وانتثرت ثناياه الرطاب ، و ... ولم تستطع المضي في هذه الصورة ، فأغمضت عينيها ، وألقت عليهما غشاء من الدمع ، وأحست كأن فؤادها يسيل حزناً عليه ، فانكبت على الولد تقبله بشدة ، وشغف ، كأنها تصب في هذه القبل أحزانها وعواطفها ، حتى أوجعت الطفل فصرخ وبكى ... ورغبت في الفرار من هذه المشاهد كلها ، ولم تقدر أن تتصور كيف يتبدل كل شيء بهذه السرعة ، وتوهم حيناً أنها في حلم ، وأنها ستيقظ فترى كل شيء قد عاد كما كان ، ولكن الحقيقة سرعان ما تفجعها بهذا الوهم ، وتبدده أمام عينيها ...

وكان أشد ما روعها ، وحز في فؤادها ، انصراف الناس عنها ، وكف أيديهم عن

مساعدتها ؛ فقد شغلت المصيبة الداهمة كل واحد بنفسه ، فكأنه يوم المحشر كل يقول فيه : أنا ...

وكرت راجعة وهي تعرض في ذهنها فصول هذه الرواية التي مثلت الليلة ، فابتدأت بالظفر والمجد ، والحب والوصال . ثم انتهت بالخيبة المرة ، والمزيمة الماحقة ، والفراق الطويل ، ولم تفهم كيف يمكن أن يهوي في لحظة الصرح الذي أقيم في مائة سنة ، وكيف يهدم رجل واحد ما تعاون على إنشائه أهل أوربة جميعاً ، أيكون أمير مسلم واحد معادلاً في الميزان للملوك النصرانية كلهم وأمرائهم ؟ إذن كيف لوتحالف المسلمون كلهم؟ كيف لو كانت هذه الحروب في أيام الخلافة، إذ كانت مملكتهم مملكة واحدة تمتد من الصين إلى قلب فرنسا ؟

وجعلت تسأل كل من تلقاه عن زوجها . فلا يتف لها أحد ولا يرد عليها ، وإذا لقيت كريماً منهم رقيق القلب فسألته فعطف عليها بجواب ، لم يكن جوابه غير (لا أدري) ! .

وظهر القمر نحيلاً هزيباً من بين فرج الغمام ، فألقى على الساحة ضياءً شاحباً حزيباً جعل الدنيا كأنها وجه مريض محتضر ، فرأت قطع اللحم البشري مخلوطة بالوحل ، تبرز من خلفها الدروع المذهبة ، وتبدو من بينها قطع الرماح المكسرة والسيوف ، فأشجاها التفكير في هذه الجيف المنتنة ، التي كانت في الصباح أبطالاً كراماً تخطر على أرض الموعد ، وكانت حصن الصليبية وسياجها ، وعادت إلى البحث عن زوجها والتحديث في الوجوه ، فمر بها شيخ كان يتحدث عليها ، ويحب زوجها ، فأدركته الشفقة عليها ، فأخذ بيدها فاستخرجها من الساحة . وكان الخطب قد حطم إرادتها وتركها كالتي تمشي في نومها ، فانقادت إليه طيبة وسارت معه ، وسأته هامسة كأنها تخاطب نفسها .

— يا أبتاه هل رأيت زوجي ؟

فلم يحب أن يثبتها بما تكره فلوى الحديث وشغلها بغير ما تسأل عنه ، فقالت .

— وما تظن أنهم يصنعون بنا يا أبتاه ؟ هل يخطفون ولدي أياكلوا لحمه أمام عيني ؟

— قال : ومن خبرك بهذه الأكاذيب . إن المسمين قوم كرام . أصل وفاء
وتبل . وإن ملكهم صلاح الدين خير الملوك قاطبة ...

ومضى يحدثها عما عرفه من صفة الماسين ، وهي فاتحة فمها دهشة لا تكاد تفهم
ما يقول ولا تصدقه . فعاد يقول :

— ولو أنهم ذبحونا لما كانوا معتدين ، بل كانوا متصفين منا ، فإننا لما دخلنا
القدس منذ مائة سنة ، قتلناهم في البيوت والشوارع والمساجد ، وحيثما وجدناهم
حتى صاروا يلقون بأنفسهم من فوق الأسوار لينجوا منا ، وحتى بلغ عدد من
قتلنا منهم سبعين ألفاً ولم يتحرك قلب بشفقة . ولا لسان بإنكار ...

وأصبح الصباح وهي لا تزال تفتش وتبحث ، والولد على يدها ينادي : بابا ،
فيذكرها به ، وما كانت تاسية .

وان كلمة (بابا) لأجمل كلمة في الدنيا . وفاتحة اللغات وأما . فهي أول لفظ
بشري يجري لسان الوليد ، وهي كلمة الإنسانية . تختلف اللغات ، وتتحد فيها .
وهي كلمة الطهر ينطق بها الطفل قبل أن يعرف الشر ويدري ما المكر . وهي أحلى
من كلمة (حبيبي) لأن من الحب ما يمدح وما يذم ، أما الأبوة فخير كلها ، والحب
رابطة يصنعها الإنسان . أما الأبوة فمن صنع يد الله .

وانكن (مارييت) لم تكن ترى في هذا الصباح الا ناراً تحرق كبدها ، وشفرة
تمزقها . وضاق بها أمرها ، فهرعت إلى جارات لها واجتمعن يترقبن ما يكون من
الأهوال ، فإذا القدس ترتج بصرخة واحدة ، اجتمعت عليها حلوق المسلمين والنصارى
أولئك ينادون : الله أكبر . وهؤلاء يعولون ويبكون . فنظرن فإذا أحد الجنود الفاتحين
علاقة الصخرة . فأزال الصليب الذهبي ، الذي لبث فوقها قرابة مائة سنة ، وحسبوه
سيلبث إلى يوم القيامة .

وجاءتهن الأخبار بما يصنع المسلمون في المدينة ، فجمعوا يعجبون ، ولا يعدقون ،
أن المسلمين لم يؤذوا أحداً ، ولم ينيهوا مالاً . وأن من شاء الخروج دفع ما اتفق عليه
وحمل معه ما شاء وخرج . وأن النصارى يبيعون ما فضل عنهم من أمتعتهم في الأسواق
فيشترىها منهم المسلمون بأثمانها . وأنهم يروحون ويجيئون آمنين مطمئنين . لم يروا
إلا الخير والمروءة والنظف . وأن المسلمين قوم أهل حضارة وتمدن ليسوا وحوشاً
ولا آكلي لحوم البشر . وروى عن ما صنعوا في الحرم . فقد نزعوا منه كل ما أحدث
النصارى . وردوه إلى حاله الأولى . وجأؤوا بالمنبر الذي صنع نور الدين الشهيد
ليقام فيه . فأقاموه في الحرم . وخطب عليه خطيبهم يوم الإسراء . . .

وجاءهن شاهد عيان يصف عن ما رأى وما سمع في المسجد . قال : ودخلت فلم
يمنعني أحد . ولم يسألني من أنا . فاختلطت بالمسلمين . فإذا هم جميعاً يجلسون على
الأرض لا تتفاوت مقاماتهم . ولا يمتاز أميرهم عن واحد منهم . قد خشعت
جوارحهم . وسكنت حر كاتهم . وخضعوا لله . فعجبت من هؤلاء الذين كانوا جن
المعارك ، وشياطين يوم القتال . كيف استحالوا هناك رهباناً خشعاً . ورأيت الخطيب
قد صعد المنبر فخطب خطبة . لو أنها ألقيت على رمال الببغاء . لتحركت والتقايت
فرساناً . ومضت حتى تنتجح الأرض . ولو سمعتها الصخور الصخر الصم . لانبثقت فيها
الحياة . ومشت فيها الروح . ووجدت هؤلاء الناس لا يغلبون أبداً ما داموا مسلمين
ولو اجتمعت عليهم دول الدنيا . لأن قوة الإيمان أقوى في نفوسهم من كل قوة .
إذ لا يخيفهم شيء لأن الناس إنما يخيفون بالموت ومنه يخافون . وهؤلاء قوم يحبون الموت
ويريدون أن يموتوا . كلا . لا يطمع قومنا بهذه الديار أبداً . أنا أقول لكم . وأنا قد عرفت
القوم وتكلمت بلسانهم وخالطتهم ووقفت على ديانتهم وسلالتهم . كلا . انه لا أمل لنا فيها .
لقد أنزلوا الصليب اليوم . بعدما لبث مائة سنة فان يعود . لن يعاود هذه القبة إلا شعار
محمد . فلا نصرانية . ولا يهودية . إن كل بقعة في هذه الديار تنقلب إذا حارب الأمر
وجد الجدد (حنظلي) . وكل ما بيد فيهم يصير (صلاح الدين) . فلا يهرق قومنا
دماءهم هدراً . ولا يزهقوا أرواحهم في غير طائل .

ونظرت (مارييت) فإذا قومها قد آثر فريق منهم البقاء في ظل الراية الاسلامية حينما رأوا في ظلالها العدل والأمن والهدى . مع الخضارة والتسدين والغنى . وأبى فريق إلا الرحيل ، فاختارت أن تكون مع هذا الفريق لا كرها بالمسلمين . فقد بددت شمس الحقيقة ظلام الأوهام : وكذب الواقع ما سمعت عنهم من الاحاديث ، ولكنها لم تستطع أن تقيم وحيدة في البلد الذي يذكرها كل شيء فيه . بزوجها ، وبحبها . وبسعادتها التي فقدتها ...

ومشت القافلة وتلفتت مارييت إلى الوراء . تودع هذه البلدة الحبيبة إلى قلبها ، المقدسة عندها ، بلدها التي ولدت فيها ، ولم تعرف لها بلدا غيرها . ونظرت إلى موضع الصليب الذهبي الذي كان يشرق كالشمس على قلبها فرأته خالياً منه . فأحست أنها تركت قلبها في هذا البلد الذي كان لقومها . فصار لعدوها ، والذي خلفت فيه زوجها ، لا تدري في بطن أي طير أو في معدة أي وحش صار قبره ... وخلفت فيه ذكريات صباها ، وبقايا سعادتها وحبها ، ولكنها فرحت بالخروج منه ، حتى لا ترى ما يذكرها كل يوم بما فقدت ، ولتلحق بديار قومها ، وأهل ملتها ...

سارت وهي سابحة في أفكارها ، فتخيلت زوجها وهو يبشي معها في الموكب الظافر تحت راية الصليب ، فبكت واختلط نسيجها بنسيج النسوة من حولها ، وهن يبكين من خلفن من الأسرى والقتلى ، وإذا بالجنود يقفونهن ، فسكتن من النزع ووقفن وأيقن بالهلاك ، فأرجعوهن فإذا على راية طائفة من المسلمين بينهم شيخ على فرس له ، لم يرع (مارييت) وصحبها إلا قولهم : هذا هو السلطان .

هذا هو السلطان ، هذا (صلاح الدين) المخيف . آكل لحم البشر . وشارب الدماء . وجعلت تختلس النظر إليه فلا ترى ملامح الوحش الكاسر ، ولا تبصر الأنياب ولا المخالب . لا ترى إلا الهيبة والنور والجلال ، فلما وقفن عليه . قال : ما تردن ؟

قالت امرأة : رجالنا في الأسر ، أزواجنا ...

وتصايحن وبكين ، فبكى السلطان رقة لحن ، وأمر بإطلاق أسراهن ، وأعطاهن
الدواب والطعام والمال ...

لما رأت (مارييت) زوجها صحيحاً معافى ، نسيت الشقاء والحزينة ، وألقت
بنفسها بين ذراعيه . لم تخف أن يبصرها الناس ، فقد جعل كرم السلطان كل واحد
يشغل بسعادته ، ثم مشت الطريق بهؤلاء النازحين لم يمشوا هم فيها ، لأنهم
مأزوها فلم يعد يعرف أول لهم من آخر ، فكأن الطريق كالنهر الممتلئ بالماء من
منبعه إلى مصبه . نهر من الأسي والفرح ، والحزينة في المعركة . والظفر بلقاء الأحبة .
وكره الغالبيين وشكرهم على إحسانهم ، وأحست (مارييت) في قلبها بالاعتراف
بفضل هذا الرجل المحسن ، ورأت خلال الانسانية والحق والنبيل تتمثل فيسه هو ،
لا فيمن رأت من رجال قومها . وكادت تحبه ثم تنبه في نفسها دينها ، وما علموها من
بغض الإسلام ، فتوقفت ، وحاولت أن تذكر سيئة واحدة لهذا الرجل ولقومه ،
تستعيد بها بغضاءها إياهم فلم تجد ، وجعلت تقابل بينه وبين البطريرك الأعظم . الذي
خرج مع القافلة بعدما إستلب المعابد وكنوزها ، وكنس الكنائس ، وحمل كل
ما كان فيها ، ولم يعط من هذا المال أحداً . لم يجد به على امرأة ضعيفة تمشي معه ،
ولا على شيخ عاجز ، وذكرت ما سمعت من أن السلطان تركه يخرج بهذا المال ،
مع أنه شرط لهم الخروج بأموالهم لا بأموال الكنائس ، وذكرت ما كان يصنع قومها
من إخلاف الوعود ، والحث بالعهود . فتمنت لو أنها كانت مسلمة ، ولكنها
لم تجهر بهذه الأمنية وخفتها في نفسها .

وتدفق هذا النهر البشري بحمل اعجب أنواع السلائق الانسانية ، وأغرب
التناقضات ، ففيه حن الأملات وإيتارهن ، وفيه أثر الأغنياء وقسوتهم ، وفيه
الصبر وفيه الجزع . وفيه الصدق وفيه التزوير ، وفيه البطريرك الذي يزعم أنه خليفة المسيح
ليساعد الفقراء . ويذهب في الدنيا . ثم يأكل مال الله وحده . ويعرض عن الفقراء والمحتاجين .
مشت هذه القافلة في الطرق المقفرة . والمسالك الموحشة ، لم تكن تحب أن تعرج

على شيء من بلاد الإسلام ، كانت وجهتها طرابلس ، فلما بلغتها بعد الجهد البالغ ،
والمشقة المهلكة وبعد أن تركت في الطريق ضحايا الجوع والتعب . ماتوا وفي القافلة
الأغنياء معهم الذهب ، وفيها البطيريك يحمل من أموال الله مائة ألف دينار ...

... لما بلغتها ، أغلق أميرها السور في وجه القافلة وردها . ثم بعث رجاله فاستلبوها
ما كان معها^(١) . فانبرى لهم الشجعان والأبطال ليردوهم . فأوقعوا بهم وقتلواهم ،
وكان فيمن قتل زوج (مارييت) .

وتاه من بقي في البرية ، كما يتيه الزورق في لجة البحر . وعاد أكثر أهلها إلى
دنيا الأمن والمروءة والنبيل دنيا المسلمين ؛ وكانت (مارييت) مع التائهين : تمشي معهم قدمات
حسها وتبلد شعورها . ولم تعد تستطيع أن تفكر في شيء . تنزل بتزلزلهم وترحل برحيلهم .
وتأكل إن أطعموها ، وتصمت إن تركوها ، وكأنما قد خولطت في عقلها ،
أو أصابها مس من الجنون ؛ حتى بلغوا أسوار انطاكية . فطردهم أهلها وردوهم^(٢) ...
... فرجعوا إلى بلاد الإسلام وقد أيقنوا أنه لن يكون في الأرض أنبل ولا أفضل
من هذا الشعب الذي علمه محمد صلى الله عليه وسلم كيف تكون الإنسانية ...

أما (مارييت) فبقيت مكانها ذاهلة كأنها لا تبصر ولا تعي . فأقبل عليها شاب من
أهل انطاكية من قومها ، فأخذ بيدها وواساها . فانقادت له . وسارت معه : حتى
احتواها منزله على سيف البحر ، فسمطت من التعب والاعياء نائمة ...

وأيقظها لفظ حولها ؛ فاستفاقت فسمعت صوت رجل يقول لصاحبه :

— ما ندعك تنفرد بها إنها أجمل امرأة وقعتنا عليها .

فيقول الأول :

— ولكنها صيدي أنا ... أنا الذي إصطادها .

(١) كل ذلك حقائق تاريخية ، رواها مؤرخو أوروبا ، رجعت فيها إلى « حياة صلاح الدين »
للدكتور البيلي .

فتفهم أن الخلاف عليها ، على شرفها وعفافها . ويريد إليها ذهنها . فتذكر الماضي كله ، وتذكر أنها فقدت زوجها وحاميتها ويشد الغضب من عزمها . فتقول لهما :

— ويحكم . أهذه هي مروءتكم وإنسانيتكم . أهذا هو دينكم يا أهل أوربة؟ ...
فيضحكان ويتهمتان . فيشتد بها الغضب . وتصرخ بهما :

— بأي لسان أخاطبكم ؟ بلسان الدين وأنا أراكم ملحدين كافرين ؟ بلسان الانسانية وما أنتم إلا وحوش في جلد بني آدم ؟

بلسان المرأة وقد فقدتموها ونسيتم حدودها ؟

وبلكم لا تستحيون أن يكون هؤلاء الماسمون أشقوا على نساءكم ، وأحفظ لشرفكم منكم . وأن يكونوا أنبل وأفضل وأحفظ لوصايا السيد المسيح ؟

لا والله لستم للمسيح ولا لمحمد أنتم للشيطان ... أولئك هم الذين جمعوا المسيح ومحمداً . أولئك أهل الفضائل أرباب الأمجاد . خلاصة الانسانية .

إنكم لن تغلبوهم . لن تأخذوا أرضكم المقدسة من أيديهم أبداً . كلا ، إنهم أحق بها ، لأنهم أوفى منكم لمبادئ المسيح ..

إنهم أعرق منكم في الانسانية . إن المستقبل لهم . إن لهم المجد والظفر ، ولكم أنتم اللعنة ، لكم الحية والخزي .

فلا تجد منهما إلا إيهالا في الضحك . وتتلقت حولها فلا تجد ناصراً . وأين المعين على الحق ، المدافع عن الشرف في بلد ليس فيه مسلم .

وتراهما قد أقبلتا عليها بعيون محمرة . فيجن جنونها . فتلقي بولدها في اليم وترمي بنفسها .

وكان البحر ساكناً فصعدت من الماء فتاعتان . فيهما اللعنة الحمراء التي خرجت من فؤادهما المحترق ، على هؤلاء (الواغليين على فلسطين) ! .

وعاد البحر ساكنا كما كان ...

وأسدل الستار على القصة التي تتكرر دائماً منا ومن هؤلاء الغربيين : قصة نبل
لا يدانيه في عظمته البحر . ونذالة لا يغسل البحر أوضارها ، ولا يظهر الأرض
من عارها .



ثلاثون ألف دينار

سرى في المدينة أن قد سأل العتيق . فانتقلت المدينة بمساكنها وساكنيها . وزورها وكبرياتها . وذورها وغنائها . وترفها ونعماتها . حتى استقرت في العتيق . وأثناء كانت المدينة على عهد الخلفاء من بني أمية قلب الدولة الذي يخفق بالحب والشعر . كما كانت الشام رأسها الذي يفكر في السياسة والملك . والعراق يدها تلوح بعلم (المعارضة) . وتهز سيف الثورة . وذلك أن فتيان قریش وشباب الانصار ثقل عابهم المال الذي حمله آباؤهم الثناحون . الذين ورثوا كنوز كسرى وقیصر : ما حوى القصر الأبيض في المدائن : وما اشتملت عليه قصور الشام البلق . وكثر في أيديهم حتى ما يدرون فيم ينفقونه . وكان من سياسة دمشق أن تقصدهم عن الولايات والأعمال فأتسع عليهم الوقت حتى ما يعلمون بم يملؤونه . فأنصرفوا إلى تزجية الأيام ، وانتهاج اللذائذ فجدولوا الحجاز دائرة المنه والترف ومثابة الشعر والغناء . وناهيك بالشباب والنراغ والحدة إذا اجتمعت على قوم من الأقوام !!

وكانت ليلة مشرقة غسل البدر بنوره ظلماءها . وأحاطا مثل الغادة المائسة بغلائتها البيضاء ، ثم ذهب يغتسل في العتيق ، فظفنا ضياؤه على وجهه . يعانق قطراته . ويراقص أمواجه الصغيرة ، وكان منظرأ عجبا . تحسب معه أن الوادي لا يجري بالماء . وإنما يجري فضة سائلة . ونورا مذابا .

وكان الناس منشورين في كل مكان . في التمسور الشم التي يفيض بها الوادي . وتمتلئ بها اللال والصخور . وعلى سفوح الربا . وذرا الهضاب . وجوانب الحرّة ،

وفرش الرمال ، حلقاً يستمعون إلى مغان أو شاعر . أو يدبرون بينهم أطياب الحديث .
أو يأكلون ويشربون ، أو يلهون وينعبون . ولم يكن فيهم إلا من ملأ الفرح قلبه .
وغمرت السعادة فؤاده . أما النساء فقد اعتزلن جانباً . ياخذن حظهن من ليالي العقيق .
وقد بدون في شعاع القمر بثيابهن المأودة الزاهية . كالرروس الزاهر . الثامن بكل
ساحر أخاذ . من الورد والياسمين . والرجس والبنفسج . والزهر من كل شكل ولون .
أما عطر الروض . فكان ينوح من أعطافهن وشعورهن وثيابهن .
ذلك هو العقيق .

كم شهد من أعراس الحياة ومباهجها
كم جال في أرجانه عمر بن أبي ربيعة . ينضح حواشيه بشعره .
كم غنى فيه معبد وابن سريج ومالك بن أبي السمع وعزة الميلاء . فاستفاضت
ألحانهم على صفحة الماء . وشطآن الأفق . وطفت على وجه النسيم ففتنت الجبال
والربا . وسكر منها شعاع القمر . فضل طريقته مترخلاً في مسالك الجور .
كم رأى العقيق من العلماء الزاهدين كعروة ومالك . والسمحاء الأكرمين كابن
جعفر وسعيد بن العاص ، والمجان المخنثين كأشعب وطويس والذلال .
كم كتب في العقيق من تاريخنا الأدبي والفني
كم أظم شعراءنا رائعات الشعر ومعجزات القصيدة .

» « «

إذا جلت تلك الليلة أنحاء العقيق . رأيت على طرف الحرة مما يلي بر عروة وقصره .
حيث تنحدر الرمال الطرية حتى تبلغ الماء وتدل فيه أقدامها ... رأيت سرباً من الضباء
الفاتنات ، يتدافعن ويتراشن بالماء . وهن يتصايحن ويتضحكن فرحات عابثات .
حتى إذا تعبن جلسن على الرمل ، يتأملن صفحة الماء - وللماء الجاري في الحجاز سحر
ليس للفرات مثله ولا للنيل - وينظرن مأخوذات بجمال هذه الليلة وفتونها . وكن

يتلفتن أثناء الحديث كأنهن يرقبن من يطلع عليهن من الشبية . فلما طال الانتظار قلت
واحدة منهن :

— لقد طان غياب سهيلة . فياليت شعري ماذا عاقها عنا هذه الليالي المتقرات ؟

فردت عليها فتاة سمراء قد تلفعت بثوب من الحرير الاحمر :

— ألا تدرين ماذا عاقها ؟ لقد شغلها هوى « فروخ » يا حبيبي . لقد خسرنا
سهيلة إلى الأبد .

— ولم بأمنية ؟ أهي أول فتاة تزوجت ؟ كلنا عرف الزواج . فما قصرنا في حق

الرجل . ولا أهملنا حق أنفسنا ؟

فأجابت أمينة ضاحكة :

— ولكن ما كل زوج فروخ ... أرأيت إلى جماله وشبابه ؟ إن له فوق إجمال

والشباب ثلاثين الف دينار ، أفليس من حق سهيلة أن تنسى معه العقيق ولياليه
المتقرات ؟

— إن تنس العقيق . فليس لنا أن تنسى صويحبات صباها

— لو كنت مكانها لنسيت أمك وأباك . إن ناحب سكرة ، ولالمال مثلها ، فأني

لسهيلة أن تصحو من سكرتين ؟

فقالت فتاة من طرف المجلس قد آلمها غياب سهيلة :

— لتكن قد وجدت كترأ أفيطير هذا الكتر من يدها اذا فارقت مترها ليلة ؟ لم بين

في المدينة أحد إلا أمّ العقيق هذه الليلة ، أفتبقى سهيلة في عزلتها الموحشة . وهي الفتاة

اللعوب ؟ ، لا ، لا ، إني لا أستطيع أن أفهم هذا .

قالت أمينة :

— مسكينة أنت يا رفيدة ... تقولين : إنها في عزلة ؟ إنها في جنة الحب يا صديقي ،

إن الدنيا على سعتها أضيقت من هذا العش الذي تعيش فيه مع من نحب ...

• • •

وكان الفتيات في غمرة الحديث حينما مرّ بهما فارس يحمل لأمته وسلاحه ، قد أرخى عمته وتلثم ، فلم يعرفن من هو ، وإنما نظرن إليه وهو يخترق جماعات الناس حتى جاوز الجماء وغاب وسط النخيل ، فلم يحفظنه ولم يابهن له . وكان ذلك فروخ زوج سهيلة ...

وكان فروخ قد عزف عن اللهو ، ورغب عن المتع ، فتلفت إلى وجهة أخرى من وجهات الحياة في العصر الأموي ، إلى حياة الجدد ، حياة الجهاد في سبيل الله

وكان جيش المسلمين يسيح في الأرض يغمرها من كل جانب ، كأنه البحر ، لولا أنه بحر يمتد أبداً لا يعرف الجزر ولا يدرية ، وكان قد بلغ أواسط آسيا وأوائل أوروبا ، ولا يزال يمضي في وجهه لا يقف حتى يطوق هذه الكرة ، ويرفع عليها علم الحق والهدى ، ويوحدها حتى تمشي كلها إلى الفضيلة والمجد والخير صفاً واحداً ترفرف فوقه راية القرآن ... فترك فروخ منزله . وخلف زوجته الحناء تنقاب وحيدة على فراش العرس الذي لم تجف أزهاره ، وأودعها ماله كله ثلاثين ألف دينار تحفظها له إلى أن يعود من جهاده وقد قضى حق الله عليه فيستأنف الحياة معها رغيدة سعيدة . لم يدر فروخ أن جهاده في حفظ زوجته وعصمتها ، وإنشاء أسرة سالحة ، خير له من أن يدعها وحيدة ، وأن يهجرها بعد أن أذاقها من كأس الحب الرشفة الأولى .

• • •

ومرت الأيام ، ولبثت ليالي العقيق على أنسها وطربها ، ولكن سهيلة التي كانت تملأ الوادي أنسا وطرباً ، وتشيع فيه السرور والبهجة ، قد اختفت في سمائها كما تختفي النجوم في الليلة الماطرة . أما رفيقاتها فلقد حرصن على أن يخفن من لوعتها ، وينسينها آلامها ، وسقن عليها أمينة رفيقة صباها وصاحبة سرها ، وأحب الفتيات إلى قلبها ، فكانت تعرض عنها ، ولا تنظر إليها ، وكن يسألن أمينة عنها كل ليلة ، فتقص عليهن ما رأت منها :

لقد جزت بها اليوم ، فإذا هي يا أسفي عليها قد تبدلت حتى كأنها لم تكن يوماً من الأيام سهيلة التي نعرفها . وجدتها قابضة في زاوية المنزل تفكر هادئة وان في قلبها لئاراً ما يقر قرارها ، تذيب الحشى وتأكل التلب ، فكلمتها فنظرت إليّ بعينين ساهمتين كأنهما لا تبصران شيئاً ، فحاولت أن أعيدما إليّ فسررت عليها أجمل ذكريات صباها . حدثتها عن ليالي العميق ، وأطرفتها بنوادير أشعب ، وقصصت عليها أقاصيص الشاعر وعبثنا به ، بل لقد تلوت عليها أجمل أشعاره فلم تستمع . فحدثتها عن فروخ فرأيت جسمها يهتز ، ولونها يشحب شحوباً هائلاً ، وأفيتها تحب حديثه لأنه رجوع أحلامها ، وصدى أفكارها ، ولكنها تفرغ من حديثه لأنه يذكرها بآلامها . لقد حدثتها عنه ... فقطعت عليّ حديثي وقالت بلهجة حسبتها تجمع كل ما في الدنيا من آلام وأوجاع : كلا ... إنه لن يعود .

ولو أن امرأة أخرى كانت في مكانها لفسقت وانسأقت في طريق الفحشاء ، ولكن سهيلة في دينها ونقواها وشرفها أمتع من أن يستهويها الشيطان ، وما أحسب إلا أنها ستجن إلا أن يتداركها الله برحمة منه .

فببظان يفكرون في سهيلة ، كيف يسعدنها وينتشلنها من قرارة آلامها ، فلا يجدن إلى ذلك من سبيل .

وكانت سهيلة قد علققت من زوجها وهي لا تدري ، فلم تكن إلا شهور حتى بدأ عليها الحمل واضجاً ، فزادها ألماً على ألم ، فأمعنت في القرار من الناس ، والبعد عن صاحباتها ، فضاعف الانفراد هو اجسها وشجونها ، فكانت تتلفت أبداً إلى الشرق البعيد ، على نسمة من زوجها الحبيب تنعش فؤادها ، وتساءل الغادين والرائحين عن فروخ (أبي عبد الرحمن) فلا تجد عنماً عن أبي عبد الرحمن . فتناجي البدر وتساءله عنه عله يراه كما تراه هي ، وتحمل الرياح سلامها ، وتساءل الشمس إذا أشرقت لعل عندها من أخباره علماً . لا تفعل ذلك كما يفعل الشعراء ، فالشعراء يناجون البدر ويسألون الرياح ، ليأتوك بالطريف العجيب من المعاني ، ثم ينامون آمنين مطمئنين ،

ويجمعون ملء عيونهم ، ولكن سهلة لم يكن يطيب لها منام ، ولا تنبل على طعام ، وإنما كانت حياتها كلها في هذا الماضي القصير الذي نعمت به حيناً ثم خسرتـه وهي أشد ما تكون حباً له وشوقاً إليه . وطفى عليها الفكر حتى كادت تجن حقاً . فلم يجد من يعنى بها من صديقاتها . الا وسيلة واحدة إلى نجاتها هي أن يستعن عليها بأحد الأئمة من أصحاب رسول الله أو التابعين لهم باحسان . يهديها ويرشدها ويداوي أمراض قلبها . وليس يغلب الحب الا الدين ، ولا يجد المحب راحة نفسه وأنس قلبه الا في اللجوء إلى الله ، عن نية صادقة ، وإيمان متين . ولقد وجدت سهلة راحتها في اللجوء إلى الله فكانت تقضي أكثر نهارها في مسجد رسول الله ﷺ ، في البقعة التي أذن الله أن تنقل من رياض الجنة فتستقر على الأرض بين محرابه ومنبره . وألا يرى أزهارها وبشم عبقتها ويدوق نعيمها الا من صفا قلبه من العلل ، وتزهت بصيرته عن العمى ، وأنشأ له التقى جناحين يطير بهما في هذه « الروضة » من رياض الجنة .

• • •

ومرت الأيام ... وغدا ابنها « ربيعة » طفلاً يدرج . فصرفت سهلة إلى تربيته همها ، ورضيت به نصيباً من الحياة . وكانت تحدثه عن أبيه ، وتصفه له كما كانت تراه بعين الحب ، وترقب عودته دائماً فلا تسمع بركب قدم من الشرق الا تمت أن تجده فيهم ، وتخيلات أي مفاجأة ، وأي دهشة .. وتصورت لقاءه ايها . وبالغت في التصور فرأت نفسها بين ذراعيه تقبله وتشم عبقه . ثم تقصيه عنها بدلال ، وتعاتبه عتاباً موجعاً . ثم تقدم إليه ابنه .. ولكن الركب يصل ولا تسمع عن فروخ خبراً من الأخبار . وكبر الصبي وضاق ما كان بيدها من المال . فكانت تصبر وترقب ، لا تمد يدها إلى الكثر الذي ائتمنها عليه حتى لم يبق معها شيء . فكانت تصبر هي وابنها على الضيق وتبيت على الطوى ، وتسي ابنها وتحدثه عن أبيه .

— غداً يعود أبوك ومعك المال الوفير ، فنعيش في رغد وهناء . ونستمع بما أحل الله

من الطيبات :

— ومتى يعود أبي يا أماء ؟

— عما قريب . إنه سيأتي مع الراكب

وتعود إلى انتظار الراكب . وتخيّل انقضاء !

وفي ذات صباح ذهبت تسأل القادمين من خراسان . وتصف لهم زوجها . فدنا منها رجل من الثقافة وخبرها أنه شاهد بعينه قتيلاً في معركة من المعارك .

فرجعت شظية يائسة . وولّحت إلى الله . فأراحها باليأس ، واليأس إحدى الراحين . فقتعت بابنها . ونذرت نفسها وماذا لتربيته وتنشئته على العلم والتقوى ، ووضعت المال بين يديه ، يفتقه على نفسه وإخوانه في طلب العلم . ويرحل به إلى الآفاق .

• • •

ومرت الأيام والسنون .

وتبدلت الدنيا وتغيرت الدول ، وأفل نجم بني أمية ، ولكن البحر لا يزال يدوج ويمند . ويغمر أرجاء من الأرض جديدة ، فيحمل إليها الحياة والخصب ، وتعيش في ربيع دائم تحت راية القرآن .

وباع الفتح في الشرق أراضي نصيب . فرفرف ثابها علم الاسلام إثر معارك هائلة اصطرع فيها الجن والباخل صراعاً عنيفاً .

في عشية معركة من المعارك . خرجت منها الراية الاسلامية مظفرة منصوره . ونشفت على بقاع جديدة طالما نختت قلوب أهلها شوقاً إلى الحكم الاسلامي ، انصرف المسلمون إلى المعسكر يؤدون في الليل واجب تذكّر والعبادة ، كما أدوا في النهار واجب الحرب والجهاد ، ويعطون اجسادهم حقها من الراحة ، كما أعطوا الأمة حقها من التضحية والبذل ، ولقد كان هؤلاء المجاهدون جنأ في النهار ، ورهباناً في الليل ، وكانوا مثالا للشرف والنضية والاخلاص .

وهضى الخزيق الأول كاه . ونام المجاهدون ولم يبق ساهراً الا الحراس يجيبون

ويذهبون من حول المعسكر ، ورجل آخر أصابه الأرق ، فبقي مسهداً يحس كأن
يداً خفية تهز قلبه . فيخفق ويشتد خفقانه . وتحمله على الرجوع إلى سالفات أيامه ،
فاذا هو يذكر عالماً بعيداً متوارياً في ظلام ثلاثين سنة فلا يطيق البقاء في خيمته فيخرج
إلى العراء ، فيجد الليل ساكناً موحشاً لا يسمع فيه الا نداء الحراس وأصوات الوحوش
التي تزدحم على الجثث التي تغص بها ساحة القتال . فيتعد عنها وينأى عن المعسكر
فلا يعترضه أحد لأن الجيش كله يعرفه . بل لعله أقدم جندي فيه ، لم يفارقه منذ سبع
وعشرين سنة ، يتنقل فيها من ميدان إلى ميدان .. ومضى يمشي وحيداً حتى صار في
الوادي فجعل يجول فيه . حتى بلغ قرارته . وكان يجري في الوادي جدول ماء له
خرير وزئير . يبدو في الليل مربعاً مخيفاً فتركه وتسلق الجبل ، حتى بلغ قننه فأشرف
منها على الفضاء الواسع ، وكان النجم قد دنا ، فسرت خيوط ضعيفة من النور حبال
المشرق ولكنه أعرض عنها ، وولى وجهة تلقاء الافق الغربي المظلم . فطفق يحدق فيه ،
ويحس كأنه ينشق منه أريجاً يحيي نفسه وينعشها وجعل يحس بأن قلبه يرق رقة
شديدة . ونفسه تسمو . وأن خيالات الحب تلوح لعينيه من وراء الافق البعيد غائبة
في ظلمتين ، ظلمة الليل الذي لم ينحسر بعد ، وظلمة الماضي البعيد ، فجعل يتأملها ،
فيبصر وجه سهيلة وقد وقفت على الباب تودعه ، وتسأله ألا يذهب ، فلا يبالي بها
ويضي لطيته ، وكانت ليلة قمراء ، إنه يذكرها كأنها كانت أمس ، ويذكر العقيق
وأهله .. ثم يفكر في حاضره . إنه سيموت وحيداً شريداً لا يدري به أحد ، انه
لا يبالي الدنيا ولا يحفل الناس ، وحسبه أنه سيموت مجاهداً في سبيل الله ، ولكن
ألا يسأله الله عن زوجته ؟

وأحسن في تلك الساعة بإساءته اليها ، وانطلق يفكر فيها : هل هي حية لا تزال ،
أم هي قد ماتت حزناً وكمداً ؟ وهل هي في المدينة أم قد رحلت فلا يدري اي أرض
تقلها ، وأي سماء تظلمها ؟ وهل بقيت على العهد بها ، أم قد استهواها الشيطان ووطأ
لها أكناف المعصية ، والثلاثون الف دينار ، هذا الكثر ماذا صنعت به ، هل احتفظت

به أم أنفقته ؟ وإن تكن قد ماتت فماذا جرى على المال ، وأي يد ألقيت عليه ؟
وظفقت يذكر ، ويقلب صفحات سبع وعشرين سنة .. هجر فيها زوجته ، وتركها
تتقلب وحدها على الفراش ، تفكر فيه كل ليلة وتشتاق إليه ، وتمني نفسها بعودته في
صباحها تسعة آلاف وسبعمائة وعشرين ليلة .. غبرت عليها وهي تتجرع كل ليلة منها
هذه الكأس فماذا حملت من هم ، وماذا ذاقت من ألم ؟ وهل بقيت بعد ذلك في الأحياء
وتمني لو أن مخبراً يخبره عنها وعن ماله ، ثم يطلب إليه ما يشاء ، وأحسن كأن
رأسه سيصدعه من التفكير ، ولكنه طفق يفكر على الرغم منه .

ذكر كيف لبث أياماً وليالي لا تفارق صورتها مخيلته ، حتى واجه العدو ، وانغمس
في القتال ، فلم يكن يذكرها الا حين يأوي إلى فراشه ، ثم أمعن في الجهاد ، فلم يعد
يذكرها ابداً ، وظن أنه لم يبق لها في نفسه أثر حتى انفجرت ذكرياته كلها في هذه
الليلة انفجاراً ...

وجعل يتخيل هذه الدهشة اللذيذة التي ستغمرها حين تراه قد عاد إليها . ولم يعد
يقوى على البقاء ، وتمني لو طار إلى المدينة طيراناً .

لقد خرج منها وهو شاب ما في وجهه ولا في رأسه شعرة بيضاء .. فاشتعل رأسه
ولحيته شيباً وتصور كرة أخرى أنه سيموت فاستفزع أن يموت ولما ير زوجته ،
ولما يقبض ماله ، ولما ير العقيق ووادي النقا ومسجد الرسول . واشتد به الحزن ، فأسرع
من فوره إلى القائد يستأذنه بالقفول .

• • •

عاد يطوي البلدان لا يستقر في مكان ، ولا يقيم في بلد حتى يعاوده الحزن فيدعه
يوالي مسيره ، لا ينقطع لحظة عن التفكير في زوجته وماله ، تلك الثلاثون الف دينار ،
ثروته كلها وكنزه الذي يبني عليه الأمان . إنه سيضم إليه هذه الأربعة من الآلاف
التي جمعها من عطائه ، ومن نصيبه من الغنائم ، وكان يتصور ألوان الممكنات ،

ولكنه لا يطعن إلى صورة حتى ينتقل إلى غيرها ، لا يهدأ ولا يستريح ، وكان يخشى أن يدركه الأجل قبل أن يبلغ أمله . فَيَكْزِرُ فرسه ويعدو بها عدواً شديداً كأنما كان يسابق الموت .. حتى اذا لاحت له طلائع الجزيرة ، وبدت رمالها الأزلية التي أعجزت الجبابرة والقاتحين فلم ينالوا منها منالاً . وأعجزت الحياة فلم تقدر عليها ولم تدخل حماها . ولم تخرج فيها نبتة مخضرة ، وأعجزت الممات فلم يبدلها ولم ينل منها . فكأنها كانت تعيش فوق أنظمة الحياة والموت . لما بدت له هذه الرمال اطمان اليها وأنس بها . وأحس أن سمومها روح لقلبه ونعيم . وأن شمسها المحرقة ظل عليه ظليل ، وأن جبالها الجرد ويدها القاحلة رياض في عينيه وجنات . وجعل يغدو السير فيها حتى بدت له جبال المدينة تلوح له على حواشي الأفق ، فلم يتمالك نفسه أن يصيح من الفرح ، ويطير اليها ..

• • •

رقص قلبه في صدره حين بدت له طلائع المدينة ضحى . وأحس كأنه لم يرها قط بهذه البهجة وهذا الرواء . وكان ذهنه قد كل من التفكير فترك كل شيء للمقادير ، وانطلق يعد نفسه لكل ما تفجؤه به . وكان قد صار حيال (أحد) فوقف يتأمله وهو مأخوذ برويقه وجماله . وهذه الألوان التي تمتزج فيها حمرة الرمال بزرقة الصخور وبياضها ، فيكون منها صورة فاتنة لا يمل الناظر من النظر اليها . وكان فروخ يجد في النظر اليه لذة ويذكر فيه عالماً مبهماً من الذكريات والمتع ، أنساه غايته لحظات . استدار على أثرها فترك العقيق عن يمينه وكان خالياً في تلك الساعة من النهار . وساق راحلته فانكشفت له المدينة ورأى مسجد رسول الله ﷺ ، ولم تكن قد أنشئت عليه هذه القبة لأن القوم لا يزالون إلى ذلك العهد على السنة الصحيحة ، ولم تكن هذه البدع وهذه المظاهر قد عرفت طريقها إلى نفوسهم ، فذهب يوم منزله وهو بسلاحه على راحلته ، وكان يعرفه كأنه قد فارقه أمس ، ولم تتغير المدينة عن عهده بها كثيراً ، ولكن آثر أن يغلب هواه ، ويقهر رغبته . ويبدأ بمسجد الرسول . ومنذا الذي

يدخل المدينة ولا يبدأ بالسلام على رسول الله؟! .

صلى في الروضة ، وسلم على الرسول ، ثم تلفت فاذا هو بحلقة عظيمة ، تزدحم فيها العمائم ، فتطاول فلم يبصر وجه صاحبها ولم يعرفه . فوقف يستمع فسمع عجباً أنساه الدار والمال والزوجة ، فظل في مكانه حتى أذن المؤذن بالعصر فانقضت الحلقة ، وذهب فرّوخ يصلي مع الجماعة فشغلته الصلاة عن كل شيء .

لم ير فرّوخ المدرّس ولم يعرفه . فذهب يسأل جاره قال له :

— من صاحب الحلقة التي كانت هنا آنفاً ؟

فحدق فيه الرجل وقال له :

— الا تعرفه ؟ ألا تعرف ربيعة الرأي ؟ من أين أنت أيها الرجل ؟

— غريب ، قدم الساعة . فمن ربيعة الرأي هذا ؟

— هذا فقيه البلاد وإمامه . هذا شيخ مالك وسفيان الثوري وشعبة والميث بن سعد ..

ألا تعرف هؤلاء ؟ هؤلاء هم علماء المسلمين . وأئمة الدنيا ، هذا الذي يجلس في حلقاته أربعون معتمداً من شيوخ الحديث .

أعرفت من هو ربيعة الرأي ؟ هذا الذي أنفق على نفسه وعلى طلبة العلم ثلاثين ألف دينار ، وأرأيت مثل هذا ؟ أسمعت به ؟ إنه لم يجلس للناس حتى بلغ من العلم والعبادة مبلغ من يشهد له ابن عمر ، أفتعرف من هو ابن عمر ام أنت لم تسمع به ؟

فقال فرّوخ : بلى لقد عرفت . لقد عرفت . وقام إلى فرسه وقد ارتبطها بباب المسجد ، فركبها وحمل رمحه وانطلق إلى داره . وقد هاجت ، في نفسه ذكرياته وشكوكه وعادت اليها صورة زوجته . فاذا هو يبصرها لمرّة الواحدة والسبعين بثيابها البيضاء تشير اليه ألا يذهب . وصورة الثلاثين النما .

ماذا جرى عليها ، وأي جديد مفاجيء ستلقاه به المتأدير ؟

ولم تكن داره نائية عن المسجد ؛ فبلغها بعد قليل ونزل عن فرسه ورمحه بيده . وهم بخفق الباب . فما رآه الا شاب حسن الثياب . مكتمل الفتوة يخرج منه . تشيعه امرأته . نعم امرأته سهيلة . لقد عرفها من النظرة الأولى ، برغم ما تغيرت . ورآها

بعينه تشيع هذا الشاب ثم تدخل وتغلق الباب فهاج دمه في عروقه ، وأقبل عليه مزمجرأ صارخاً ، فنحاه عن الباب وهم بدخول المنزل ، فعجب منه الشاب^(١) وصاح به :

— يا عدو الله ، أتتهجم على منزلي ؟

— قال : بل أنت عدو الله ، تدخل على زوجتي ؟

وتواثبا وتلبب كل منهما بصاحبه حتى اجتمع اخيران ، وبلغ مالك بن أنس والمشيخة فأتوا يعينون ربيعة ، فجعل ربيعة يقول :

— والله لا أفارقك الا عند السلطان :

وجعل فروخ يقول :

— والله لا أفارقك الا بالسلطان ، وأنت مع امرأتي .

وكثر الضجيج . فلما أبصروا بمالك سكت الناس كلهم فقال مالك :

— أيها الشيخ ، لك سعة في غير هذه الدار .

قال الشيخ :

— هي داري وأنا فروخ مولى بني فلان .

فسمعت امرأته كلامه ، فخرجت فقالت : هذا زوجي . وهذا ابني الذي خلّفته

وأنا حامل به . فاعتنقا وبكيا جميعاً . ودخل فروخ المنزل .

، ، ،

قال فروخ لزوجته . وقد خرج ربيعة وبقيا وحيدين :

— سامحيني يا سهيلة ، سامحيني ، لقد أسأت اليك . اني أحبك ، أحبك .

— أتحبني وقد صرت عجوزاً ؟

— الجمال هو الاخلاص يا سهيلة ، أحبك دائماً ، اني أراك أجمل النساء .

وانطلقا يتحدثان ساعة ، فقال لها :

(١) تاريخ بغداد (٨ : ٤٢٠) والذي هو بين الأهله هو كل ما روى التاريخ من خبر فروخ بحيث

أن أثبتة كما هو . والقصة في « وفيات الاعيان » .

- هذه اربعة آلاف دينار ، فأخرجي المال الذي عندك ، لقد صرنا أغنياء يا سهيلة !
مالك تترددين ؟ ألا تخرجين المال ؟
— قالت : لم لم تصل في مسجد رسول الله يا فروخ ؟
قال : لقد صليت فيه ، ورأيت عجباً ، سمعت من رجل يدعونه ربيعة الرأي
كلاماً ، ما كنت أظن أحداً يقول مثله . لكأنه والله كلام الأنبياء ، لقد ندمت على أن
أنفقت حياتي ولم أطلب علماً .
— قالت : أيسرك انك مثله وتخسر كل ما تملك ؟
— قال : نعم إن ذلك ليسرني .
— قالت : فان كان ابنك مثله أيسرك أن تكون أنفقت عليه مالك كله ؟
— قال : نعم ذلك آثر عندي .
— قالت : هو والله ابنك ، وقد أنفقت عليه المال كله . ألا تشتريه بثلاثين الف
دينار ؟

فوثب الرجل وهو يصيح :
— ابني ؟ ربيعة الرأي ابني ؟
وخرج يفتش عن ابنه كالجنون .

* * *

ابن الحصب

(الطائف) ... تلك القرية المسحورة التي سارت ذات يوم - كما تروي الأساطير^(١) سارت من ربوع الشام بينا يبيعها وجداولها ، وبساتينها ورياضها ، وزهرها وثمرها ، فطافت حول الكعبة ثم تسلقت الصخور حتى استقرت في أعالي جبل (غزوان) ، وهجعت على سرير من السحاب حاملة بالسهول والأنهار والنعمة والحصب ، لتستيقظ مع الفجر فتصنع العظماء والقادة ، وتقذف بهم إلى الدنيا الواسعة .

وكانت منازل الطائف كأنها أسراب من العشاق قد تغلغت في هذه البساتين ، لتنيء إلى عزلة سعيدة ، تنعم فيها بذكرى اللقاء الماضي ، وتحلم بلقاء جديد .. وأوى الزراع إلى بيوتهم فناموا بين أهليهم ، كما نام الرعاة إثر نهار حافل بالتجوال الفاتن ، في هذه الجبال التي تتفجر صخورها السود بالنبت الأخضر والزهور البرية ذوات الألوان العارية ، ولم يبق في المدينة عين ساهرة ، إلا عين سيد غريب يذكره هذا الليل الساجي ، وهذا البدر المطل بلده ، فيورقه الشوق ، فهو يطوف بهذه المربع ويده على قلبه ، وعيوناً أخرى خلال تلك البيوت التي تبدو سرجه المضيئة من بعيد ، كليلة الضوء « ترتجف » من الحجل ، وهي تضرب بأشعتها تائهة وسط الفضاء حيث يجلس على العتبات فتيات بائسات يعرضن في استحياء أجساداً قد عرّتها هاتيك المهنة الآثمة .

(١) راجع ياقوت في «معجم البلدان» .

ينتظرون عابراً يسوقه المقدار اليهن فيبعنه اللذة ، ويطعمنه من لحمهن ... ليعطيهن
دراهم يحملنها إلى أسيادهن الذين يكرهونهن على البغاء . ولا يكون نصيبهن بعد
ذلك إلا أرغفة من الخبز معجونة بالدم والشرف والوحل .

تلك هي سنة قوم لم يتأدبوا بعد بأدب الإسلام !

فلما مال ميزان الليل ، وغلبهن التعب ، ولم يطرقهن طارق ، تسللن إلى بيوتهن
فمنن على فرش العار ، إلى الصباح ، ليستقبلن من يقذف به القدر إليهن من الرجال .
ولم يبق إلا فتاة صغيرة . تنظر إلى السماء بعينين زرقاوين بلون السماء ، تفيضان بالطهر
... رغم أنهما في وجه بغي ، ولها فم صغير حلو ينطق بالصفاء من غير أن تتحرك شفتاه
الرقيقتان ، وكأن هذا الفم وردة من ورد الجنائن ، غير أنها لا تذوى ولا تذبل ، وأنها
من لحم ودم ، وأنها تشم بالفم ، وتلمس بالشفاه .. وكانت من بنات الروم ، فما
تحترف عربية حرفة الحنا ، وكان لها شعر أشقر متموج يبرق تحت أشعة القمر كبريق
الذهب . وجسم أبيض لदन ، له لون العاج . ولين الحرير ، وسحر الخب ، وفعل
الحمرة ... فهي وردة نمت في غير أرضها فازدادت بِنُدْرَتِها جمالاً إلى جمالها . وكان
مكان هذه الفتاة بين ذراعي أم تحنو عليها . أو زوج يحميها ، يكتم سر هذا الجمال
أن يفشو ويستعلن وتعبث بقدسيته العيون السارقة والأيدي المجرمة ... ولكن من بيده
أمرها لم ير لها إلا هذا المكان الذي تنتهبها فيه العيون وتعبث بها فيه الأيدي ، وتفترسها
فيه سباع البشر . أفرأيت الزهرة اليانعة تلقى بين أسنة اللهب ؛ والحمل الضعيف
يرمى بين أنياب الذئاب ؛ كذلك كانت هذه الفتاة وقد قذفت بها الحياة بين ذراعي كل
وَبَشْ فظ غليظ من ذئاب الناس وكلابهم . هي زهرة ، ولكن الرياح العاتية قطفتها
من غصنها ثم ألقته بين الأشواك البرية لتجف عليها وتذوى ؛ هي وردة ولكن النهر
الجياش اختطفها من منبتها ثم رمى بها في الحقل لتموت تحت أرجل البهائم والأناسي .
لبثت هذه الفتاة جالسة تطارد النوم الذي يعبث بعينها الناعستين من غير نعاس ،
تأمل أن تجد امرأة يدفع إليها المال الذي فرضه عليها سيدها حين أرادها على هذه

الحياة الداعرة ، فنزلت على إرادته ، وجعلت جسدها مائدة لكل جائع . وهل تستطيع له دفعاً وهي أمته ومملك يمينه ، حملها من وطنها البعيد فنهل من كأس جماها حتى شبع وروي ، فوضع الكأس على حافة السبيل تلغ فيها الكلاب ، إنه يصرفها كما يصرف دابته . ويصنع بها ما يصنع بثوبه ، يلبسه أو يرميه في الطريق أو يهديه إلى صديق ، أو يرضى له التحريق والتمزيق ، وذكرت عرضها الذي مزقته مطامع سيدها ، وجسدها الذي أبلته وحشية الرجال طلاب اللذة ، من كل شكل ولون : فانطلقت تبكي ، وذهبت هائمة على وجهها ، حتى ابتعدت عن هذه البيوت ، وإذا هي بشبح يسير في شعاع القمر ، متشجاً بثوب أسود لا يبين منه شيء ، فظنته من رجالها . ومشت إليه ، فلما رآها ارتاع وأرتد ، وعجب أن يرى فتاة صغيرة كأنما هي حوراء من من حور الجنان تسير تحت ذوائب الليل ، وسأذا : مالك أيتها الفتاة ؟

— ما لي ؟ ماذا ترى في ؟

فلم يجب وجعل يحرق فيها تحديقاً شديداً . مأخوذاً بجماها ، وهي تنظره متعجبة لأنها كانت من السداجة والصفاء بحيث لا تدري جماها وفتنتها . ولأنها لم تجد من الرجال من يرفع عينيه إلى وجهها ، وإنما وجدتهم جميعاً يخفضون عيونهم إلى غير الوجه ... فما بال هذا الرجل .؟

ومرت دقائق حسبها كل منهما دهرأ طويلاً ، ثم قال لها بصوت حلو رقيق ، وقد أشفق عليها أن تنال برودة الليل من هذا الجسم الناعم الذي خلق لينعم بدفء الحب :

— لم لا تدخلين إلى دارك ؟

فأجابته هذا الجواب الذي ألفته حتى ما تفكر في معناه ، ولا تدري منه إلا أنه واجب عليها يجب أن تؤديه كآلة جامدة :

— بعشرة دراهم ... هل تدخل ؟

ووثبت بين يديه تسعى إلى الدار بخفة ظلي أفات من شبكة الصياد ، وتبعها حزياً
مثالاً ، يفكر في هذا الجمال كيف تعلق به الأرجاس ، ويأسى لها ، ويتمنى لو استطاع
أن يسمو بها إلى أفق الظهر والعناب ... حتى بلغت الدار . فدخات ودعته إلى الدخول ،
ثم أغلقت الباب ووقفت بين يديه تنظر ما يريد .. يا لحذه المسكينة التي عاشت وسط
الرجس ولكن قلبها ظل نقياً ظاهراً لأن الحطينة لم تصل إليه ... فلم يبد الرجل حراكاً ،
فجعلت تنظر إليه حائرة وقد بدأت تخشاه وتظن به الظنون . ما له لا يصنع ما يصنع
سائر الرجال يأخذونها عارية كشعاع القمر . فيعبثون بها . ويسخرونها لذاتهم ،
كأنما هي أداة لا تعقل ولا تشعر . ويضطرونها إلى فتح صدرها وشفقتها لقبحهم
ووحشيتهم وأقدارهم . ثم يلقونها بعد أن تكل أجسادهم الجشعة ، كما يلقي المرء
برتمالة امتصها حتى لم يدع فيها إلا قشرة خالية من الماء .

ماله لا يفعل شيئاً من هذا ؟ إنه يتزع ثوبه فيلقيه عليها يحفظها من برودة الليل ،
فيبدو من ورائه شبابه وجماله . وثيابه العالية . ثم يأخذها برفق ويجلسها على ركبتيه .
وينطلق يسألها عن أصلها ومنبتها .. ويلقي في أذنيها من أحاديث الحب ما لم تسمع
مثلاً من قبل . فيحیی في نفسها الظهر والفضيلة . ويغسلها من أدران هذه الحياة المائعة .
فتحس كأن جناحها النادين حطمتها يد الأيام قد لبثا من جديد . وتحس بأن هذا
السياد الذي هبط عليها هذه النياة هبوط ملك الرحمة . يطير بها في آفاق طال عهداها
بمراقبها . آفاق واسعة كأنها نور و عطر ..

وتذوق المرة الأولى لذة القبلات المعسولة . التي تسترجع بها النفسان وتتحدان .
وتعرف حرارة الصدر المحب . وحلاوة العناق اللذ .

ولما خرجت تشيعه كان الليل قد تصرم وبدت طلائع الفجر من وراء الصخور ،
تغسل الأرض بالندى . بعد أن خامت عنها رداء الغمام . فرفقت النناة تاضر إليه وقد
أحسبت بأن هذا الحب قد نقاها من رجسها . وأن الفجر قد سطع على قلبها فبدد ظلماته .
وتنبهت في نفسها ذكريات ماض بعيد حسبه قد مات منذ زمن طويل فإذا هو حي قد

أكسبه الحب يقظة وقوة ، وطفقت صور هذا الماضي تندفق على نفس الفتاة فتبصر صباها الظاهر كتلج الصباح ، وحياتها في تلك الحمايل البعيدة ، من وطنها النائي ، كفراشة تطير خلال الورد ... ولكنها لا تتبين هذه الصور ، ولا ترى منها إلا خيالات ضعيفة . لقد مشت عليها السنون فمحتها بأقدامها . . ثم تفكر في حياتها الحاضرة ، التي تخوض حماتها الدنسة . وتعرض لها صور هذه الأجساد البشعة القذرة التي مست جسدها ، وعانقته وقبست منه لذتها ، فيعروها ارتجاف شديد ، وتواري وجهها بكفيها حياءً وخجلاً... ثم تذكر هذا الحب الذي مس قلبها بكهربائه فأضاءه وزكاه ، فتعزم التوبة لتصل ماضيها البعيد الظاهر ، بمستقبلها الذي طهره هذا الحب الوايد .

« « «

وبزغت الشمس ولم يغدض نائماتها جنن . فدخات منزلها تستريح وإذا هي برجل يدخل عليها يبتغي أن تمنحه المودة فتأمل في وجهه فإذا هو « بكر الثقفي » أشد شباب الطائف وأقواهم ، فپرعبها مشهده ، ويروعها كأنما هي عذراء لم تفارق خدر أمها ، فتبتعد عنه مضطربة ... فيعجبه ذلك منها ، ويظن أنها تداعبه ، فيبالغ في الاقتراب منها ويأخذ بيدها ، فتحس للمسه كأن حية سوداء قد التفت على عنقها ، فيتمشعر جسمها كانه ويقف شعر رأسها وتصرخ به :

— ابتعد عني ! فيضحك الرجل ويكرر من الضحك ، ويشد على يدها ليجذبها إليه ، فتعود إلى صراخها .

— ما للغزال نافرأ هذا اليوم ... تعالي .

— قلت لك : دعني . دعني . لست لك .

فيصيح بها ساخرأ : لمن أنت إذن أيتها العذراء البتول ؟ أزوجك ؟

ويوغل في الضحك ويضمها إليه فتأطم وجهه وتوغل في الصراخ ، فيغضب الرجل ويقسو عليها .

— ألم تقل لك : إنها لا تريدك ؟

صوت هادىء مترن . جعل بكرة يرسل الفتاة ويلتفت إليه . فيرى سيداً كامل الشباب موفور الرجولة ، بثياب غالية تشعر بالسيادة والغنى . وتطمئن الفتاة وترى فيه حبيبها ومنقدها . ثم يخالطها الخوف عليه لأنها تعلم أي رجل هو بكر . ذلك الذي لا يقوم له شاب في هذا البلد ولا كهل . وتنتظر نهاية هذا العراك . وقد أعدت نفسها للدفاع عن حبيبها .

ويصبح به بكر مغضباً :

— من أنت أيها الرجل الذي يتجرأ على بكر الثغني ؟

ويرفع يده عليه . ولكن الرجل بغض من يده ويقول له هادئاً :

— أتحب أن تعرف من أنا ؟ اقرب لأخبرك .

ويلقي في أذنه ذلك الاسم الكبير . فتسقط يد بكر على جنبه . ويعتذر لهذا السيد .

ثم يخرج يائساً يفتش خلال البيوت عن بنت أخرى تبيعه النذرة .

ويأخذ هذا السيد بيد الفتاة إلى دارها التي أعدها لها .

وانعقد الرباط بين قلبيهما الحبيين . فأصبحت هي حياته لا يعرف الحياة إلا ساعة

يكون معها . واختصرت دنياه كلها فكانت نظرة واحدة في عينها . وملاّت نفسه

هذه الفتاة التي ظهرت له فجأة . كما تظهر الشمس من وراء الجبل فتملأ الوادي نوراً

وحياة .

لقد نسي هذا السيد المجد الذي ينتظره في مكة . والمعركة الكبرى التي ترقب فيه

قائدها ومديرها .

ذلك هو الحب ، أقوى كائن وأعظم مخلوق .

يستطيع الحب أن يمحو من النفس صورة المجد والجاه ، والفضيلة والرذيلة ،

والطموح والحمد ، ولكن لا يمحوه شيء .

الحب أحجية الوجود ، ليس في الناس من لم يعرف الحب ، وليس فيهم من عرف ما هو الحب .

الحب مشكلة العقل التي لا تحل ، ولكنه حقيقة القلب الكبرى .

الحب أضعف مخلوق وأقواء ؛ يختبئ في النظرة الحافظة من العين الفاتنة ، وفي الرجفة الخفيفة من الأغنية الشجية . وفي البسمة المومضة من الشجر الجميل ... ثم يظهر للوجود عظيماً جباراً . فيبني الحياة ويهدمها . ويقيم العروش ويثاها ، وينفعل في الدنيا الأفاعيل .

• • •

كانا يلتقيان دائماً فيتحدثان عن ماضيهما وحاضرهما . ويكشف لنا من أسرار قلبه مثلما تكشف له من أسرار قلبها . فكان هذا التكاشف طريق الوحدة . والفناء في الحب ، حتى إذا لم يبق لأحدهما سر يكتمه عن الآخر . لم يبق له (أنا) ينفرد بها عنه . لقد طهرها بحبه . وصهر ماضيها الملوث فأطاله بنار الهوى جوهرأ نخالصاً . ورفعه من الخضيض الضيق الذي كانت تتقلب في ظلماته إلى سماء عالية رحبية . وايس كالحب (إذا لم يكن في حرام) مطهراً للنفوس . ومصلحاً للأمم . وحافراً إلى الفضيلة .

اولا الحب ما أشرقت الشمس وغمرت الأرض بنور ربها ولا منحتها الدفء والحياة . واولا الحب ما التف الغصن على الغصن في الغابة النائية . ولا عطفت الظبية على الطلا في الكناس البعيد . ولا حنا الجبل على الجبل في الوادي المتعزل . ولا أمد ينبوع الخسول الساعي نحو البحر . واولا الحب ما بكى الغمام لجذب الأرض . ولا ضحككت الأرض بزهر الربيع ، ولا كانت الحياة .

• • •

كانا يخرجان كل غداة حين تبسم الشمس بسمتها الأولى فيجلسان على هذه الصخرة المنفردة المظلة على البساتين القريبة ، والتفار البعيدة ، فيشاركان العصفير غناءها ، والورد ضحكته ، والنسيم همسه ، والنور طهره وصفاءه ، فيتحدثان ويتناغيان كحمامتين ضمهما وكر ، وهما ينظران إلى الرعاة يسوقون أغنامهم نحو السفوح العاشبة يغنون أغانيهم الساحرة ، أو ينفخون في الناي تلك النغمة الغاتنة التي يتوارثها الرعاة جيلاً عن جيل فلا يفقدها التكرار حلاوتها ولا جمالها ، فإذا انبسطت الشمس وتصرمت الظلال أوباً إلى الدار فعاشا روحاً واحداً في جسمين... ثم إذا وقفت الشمس للوداع خرجا مرة أخرى إلى الصخرة يودعان الشمس . فينظر كل منهما بأربع عيون ، ويلقي هامساً في أذنيها وهي في حضنه ، صدرها إلى صدره ، وخذها مستريح إلى خده ، أغاريد الحب فتسمعها بروحها وتجيب عنها بعينيها ، حتى تغيب الشمس ويلقي الليل ذوائبه السود على الدنيا ، فيعودان .

الحب ربيع الحياة المزهرة ، ولكن الربيع ينتهي ويأتي الصيف بحرارته ، والحريف بشحوبه ، والشتاء بزمهريه ، ولا بد أن ينتهي الربيع .

أيام الحب كأس مبرعة بالشراب ، ولكن الكأس تفرغ ويحس الإنسان بالظلمة . ولا بد أن تفرغ الكأس .

عاشا في ليالي الحب ما عاش الصيف ، فلما بدت طلائع الحريف وغمرت الطائف وصخورها ، وعلا صوت الواجب من بطن مكة يدعو هذا السيد ، ولم يبق بد من الفراق ، إن الحرب تدور هناك وراء هذه السفوح البعيدة ، يخوض قومه لظاهها ، أفيبتي في نجوة من لظى الحرب ، وهو السيد الشريف ؟ والفارس المعلم ؟ أيتقلب قومه في غمار المعركة المشتعلة ويتقلب هو في أحضان امرأة يقطف من عينيها السحر ويذوق من فمها الحمر ؟ لو أن رجلاً من قريش لم يكن في العير ولا في النفير رضي بهذا الفرار لكان له سبّة الدهر ، فكيف بسيد العير وصاحب النفير ؟ لم يبق بد من الفراق ، فليمزق قلبه شطرين ، فيضع شطراً في هذه الأعالي المخضرة الساحرة يحلم بالحب ،

ويتجرع الذكريات ، ويذهب بالشطرنج الثاني إلى ميدان المعركة ليألم في سبيل المجد ،
وليحمل جرحه الدامي ليأسو جرح بلده ، ليضح بالحب في سبيل الواجب ،
أو ما كان يراه بجاهليته وشركه واجباً ...

وتهباً للوداع .

وعادا يزوران مرابع الهوى ومجالس الحب ، فيودعها ذكرياته وقلبه ، لم يدع بقعة
بين صخور (الشنا) المطلة على تهامة ومن وراء تهامة البحر ، ومشارف (الهدا) التي
تسرف على سفوح غزوان ومن ورائها وادي الأراك وعرفات ومكة ، فقعد على صخرة
(الهدا) وأخذ فتاته بين ذراعيه يضمها ويخفي وجهه في عنقها وخلال ثيابها ، ويشم
عبقها كأنما يريد أن يتزود منها لأيام القراق . وأخذت هي بنشوة الحب فجعلت تشد
بيدها عليه وتعبث بشعره ، وتريح رأسها على رأسه ، وتتمنى لو أن هذا الحب يصنع
المعجزة التي ينتظرها المحبون أبداً .. أن يمحو هذه (الأنا) و (الأنت) ويجعل
العاشقين شخصاً واحداً كما جعلهما روحاً واحدة ، فلما أبطأت المعجزة وأيست منها
جعلت ترى وهي بين ذراعيه كأن بينهما بعد المشرقين .

وكان عند أقدامهما بستان جميل ، قد خالطت خضرته حمرة الشقائق الناثنة فرأته
يحدق فيه ، وفي عينيه دمعة ، فراعها ما ترى . .

وانطلقت تسائله ، فقال لها :

— اسمعي يا فتاتي ؟

— قالت : أنا سامعة .

— قال : أريد أن تغفري لي .

— قالت : ومم تستغفري أيها الحبيب ؟

— قال : لقد كان حبي وبالاً عليك : لقد كانت حياتك ساجية قليل الطائف .

فملاها حبي زمهريراً وبرقاً ورعداً. لقد كانت مثل اللجة الهادئة، فهاجت فيها الأمواج،
لقد أورثتك الألم ، والألم حصاد الحب ، فهل تغفرين لي ؟

— قالت : أي ألم يا حبيبي ؟ أنا سعيدة .. سعيدة جداً .

وانطلقت تقبله في فمه .

— قال : ولكن الواجب يدعوني إلى الذهاب .

بودي ألا أذهب ، وأن أبقى معك أبداً ، ولكن ماذا يصنع الإنسان يا حبيبي إذا

حكّم القدر ؟ أتخبين أن يقال : إني فررت من المعركة ؟

— قالت : وأنا ؟

— قال : سأعود إليك ، أحلف لك أني سأعود .

— قالت : وهذا الذي في أحشائي ؟

— قال : ماذا ؟ ماذا تقولين ؟ أنت حامل ؟

— قالت : نعم

— قال : آه ... ابني .

واستطاره الفرخ فأقبل يضع قبالاته من وجهها وعنقها حيث تبلغ شفتاه ..

— قال : ليتني أبقى حتى أراه . ليتني أبقى . هذا ابن الحب .

— قالت : ابق ، ابق ، أتوسل إليك ، ماذا تخشى ؟

— قال : أخشى العار ، إنها سبّة الدهر ، فدعيني أذهب . سأعود إليك ، أفتنسيني

إذا أنا ذهبت؟ أتلقين بنفسك في أحضان غيري ؟ لا لا ، إنك لن تنسي ، إنك ستقومين

على تربية ابنا ستنشئنه على العظمة والمجد ، ليكون رجلا يحمل قسطه من إرث

أبيه . وإذا سألك عن أبيه فلا تخبريه من هو أبوه . دعيه ينشأ مستقلا كالزهرة المنبثقة

من صخر الجبل ، ويعيش حرّاً كالطائر الذي يغرد على كل غصن . لا تخبريه من هو
أبوه ، بل أعديه لفهم هذه الحقيقة ، حتى إذا صار أهلاً لفهمها ، وغدا كفوّاً للعمل
هذا الاسم ، كنت أنا الذي يخلعه عليه ، وإن لم أكن حياً فسأدع له من يخلع عليه
اسمي ..

• • •

ووقفت الفتاة تنظر إليه وهو ينحدر في هذا الطريق الضيق ، الذي يختفي حيناً وراء
الصخر ، ثم يظهر ويوالي سيره نحو الرمال ، حتى غاب عن ناظرها ، فتلفتت تلتقاء
البلد ، فإذا هي تنكرها ، وإذا هي لا تعرف من هذه الدنيا شيئاً بعد أن غابت عنها
دنيا الحب . فحقت قلبها واضطرب ، وجعلت تنادي حبيبها وتلح في النداء . وتشير إليه
وقد غاب عن ناظرها وراء الأفق البعيد . فلما لم تجد مجيباً تبتمت أنها لن تلتقاه أبداً .
فخرّت على وجهها باكية منتحبة .

• • •

ولم يبق لها من الحياة إلا ذكريات هذا الحب الذي ولد شاباً قوياً ولكنه مات طفلاً
صغيراً ، وهذا المال الذي أبقاه لها الحبيب . تنفق منه على نفسها وولدها . فكانت تتألم ونحيدة
كشمعة تشتعل في البهو الخالي ، وتقهر نفسها الأحزان فلا تجد من تبثه أحزانها . لم يكن لها
إلا الحب ، فكانت تعانق طيف حبه في الليل وتسايره في الطريق ، وتناجيه في الصباح
وتناجيه في المساء ، وتصحبه إلى هذه الأماكن التي عرفت فيها السعادة ، ولكنها لا تجد
في كل ذلك إلا الألم . إن كل ما ترى يذكرها بالحبيب فيزيدها لوعة ، ومتع ليالي
السعادة تستحيل إلى آلام .

فيا ليت الإنسان لا يذكر ، إذن لما تألم . إن ذكرى اللذة مؤلمة ، وذكرى الألم
لائس . أوليس من أكبر النعم على الإنسان أن ينسى ! لولا النسيان كانت الحياة
لاتطاق ..

لقد قوي حبه واشتد ولكنه استحال من طفل يرقص في شعاع الشمس ، يلهو

بالأعيب إلى شيخ يائس يتأمل في الظلام ، لقد نزع ثوب الفرح الزاهي ، وائس
ثوب الكآبة القاتم . لقد انحصرت حياتها في أمر واحد هو التفكير في الحبيب الذي
أكسبه طول الفكر صورة سحرية بارعة لا يملكها بشر . فكانت تقيس من ترى من
الرجال بهذه الصورة التي استقرت في خيالها فلا يعجبها رجل ولا تحفله ... بل لو
أنها نظرت إلى صاحب هذه الصورة بشكاه الحقيقي لما أعجبها !

أرادت أن تغرق غرامها في لجة العبادة فكانت تؤم معبد قومها في الصباح الباكر ،
فلا تجد في هذه الآلة المصنوعة من الحجر ما يثير في نفسها الورع والخشوع ، وتمثل
لها مطرقة النحات الذي صنع هذه الآلة ... فتعاف عبادتها ، ولا يروقها منها ما كان
يروقها .

ما أشتى المحبين ! يمشون كما يمشي الناس ، ويأكلون كما يأكلون ، ولكنهم
يعيشون في دنيا لا يعرفها الناس ولا يصلون إليها . تضيق الدنيا بالمحب إذا جنّاه محبوبه ،
حتى ليكاد يختنق فيها على سعتها ، ويجد في العش الضيق الذي يابجأ إليه مع محبوبه
دنيا واسعة . ويتألم المحب في اللذائذ ، إذ لم يذوقها معه من يحب ... والطبيعة الجميلة
سواد في عين المحب قائم إذ لم تنرها مقلتا المحبوب .

كان عمل الفتاة أن تطوف كل يوم بهذه المنازل التي ولد فيها حبها ونما ، تفكر
وتتذكر وتقبل الأحجار والأشجار ، وتسير مع الوهم أحيانا فتظن بأن الحبيب حاضر
معها . فتهم بعناقه وبثه شكواها ثم تجدها وحيدة ، فيجب قلبها وتشتد خنفتها . وتسقط
على وجهها فتبكي وتذوب وحيدة لا يدري بها إلا الله . وكانت تأمل أن يعود فتنظره
على الطريق وترقب الدقائق فاذا تصرم النهار ولم تره عادت إلى مترذا آيسة محزونة .

وانتفخ بطنها من الحمل ، فباتت تحمل أثقال الحب في بطنها وقلبها ، وعزفت
عن الطعام والنام ، فرق جلودها وتهافت جسدها ، فلم يعد في طوقها أن تطوف بمناسك
حبها ، ومنازل هواها ، فكانت تحيي الليل ساهرة مؤرقة ، تناجي النجم ، وتساأل
الليل عن حبيبها . وتخطبه من وراء الصحراء كأنه معها :

« أين أنت أيها الحبيب ؟ هل تنام الساعة آمناً مطمئناً ، أم أنت بين ذراعي غيري ، قد نسيتني ومحوت من نفسك ذكرى هذه البغي التي طهرتها بحبك ، ولكنها لوثت شرفك ومجدك بماضيها الدنس ؟ لقد كان حبك لي نقياً كماء السماء ، ولكن شهوتي المضطربة عكرت صنائه .. أنا الطائر الضعيف الذي حطم الدهر جناحيه فألف حياة الأرض مع الحشرات والهوام . فجئت أنت من السماء لترفعه بجناحيك القويين إلى السماء ، فرفعته حتى استطاع أن يحلق فيها ، ولكن هذا التراب الذي ظل عالقاً به غيّر جناحك أيها الصقر ، أفلا تعفو ؟

قد قنعت بك من الحياة ، حتى ما أبالي إذا وجدتك ماذا خسرت ، ولكن بماذا أفنع وقد خسرتك أنت ؟

أنا ذكر ساعة جلسنا إلى الصخرة وحيدين ، والظير ترتل صلاة المساء ، والشمس نائمة على سرير الأفق صفراء كأنها مريضة كاد يختفي رأسها بين الوسائد ، ونحن متعانقان ، صدري إلى صدرك ، وعيناي إلى عينيك ، وخدي ملصق بخدك ، أقبّل عنقك وتمرغ شفتيك بشعري ، ثم نبهتني إلى مشهد الغروب . فطفقتنا ننظر إليه مشدوهين حتى غبنا في قرارة حلم ممتع من أحلام الحياة ...
أنا ذكر ؟

أنا ذكر مسرانا في هذه الغابة الصغيرة الملتفة ، وقد خلونا فيها وحدنا وتركنا الدنيا بضعجتها وصخبها ، نمشي وحيدين ليس معنا إلا الحب الذي يربط بين قلوبنا . نتلفت حولنا فلا نرى إلا جذوع الأشجار المتعانقة . تتسأل من كل جهة حتى يضل البصر طريقه خلالها ، وأغصانها متشابكة من فوقنا كأنها سقف مرفوع ... لم أكن أشعر بالوحدة لأنك معي ، وهل كنت أبتغي من دنياي أكثر من ذلك ؟ حسبي أنت من الدنيا .. أنا ذكر ذلك ؟

أنا ذكر تلك الشجرة المنعزلة الوحيدة التي كان لها في تاريخ حبي أجمل الآثار ،
أما أنا فساهرة أذكرها وأفكر فيها !

لماذا أذقتني لذة الحب ؟

لقد كنت راضية بالحياة مطمئنة إليها ، أعيش في الظلام ، فلما عرفت الحب عرفت النور والسمو وعلمت ماهي اللذة ... فلا أنا أجد الآن النور ، ولا أنا أطيق الرجوع إلى الظلام ..

* * *

ولست أستطيع أن أعيد كل ما قالت لأنه مكتوب في كل قصة غرام . وهل الغرام إلا قصة واحدة تتكرر أبداً ولا يمل البشر تمثيلها ؛ وهل تمر ليلة على بلد فلا ترى في أحشائه عاشقاً مدنفاً يسهر ويتألم ، بينا ينام الناس آمنين ، لا يرحمون المحبين ، لأن الحب شيء لا يدري به إلا المحبون !

ولبث الفتاة على عذابها ، حتى أحست بالجنين يتحرك في بطنها .. فذهبت تحمل وحدها عواقب هذه اللذة التي شاطرها متعتها الرجل .

* * *

واستهل الوليد جميلاً كالزهر ، حلواً كالأمل ، نقياً كتأج الربا . تبدو في عينيه كبرياء أبيه . وجمال أمه . كما يبدو خيال السماء الصافية في البحيرة الساكنة . فتمتلئان بهما كما يمتلئ الجدول بمياه الينبوع الصافي . ويترددان فيهما كما يتردد صدى أنشودة الراعي في مسارب الوادي العميق ..

فضمته إلى صدرها الفياض بالحب ، ونذرت له حبها وحياتها .. وعزمت أن تكون له أمماً لأنه ابنها . وأن تكون له أباً لأنه ابن حبيبها الغائب ، وأن تنشئه على العزة والمجد والسيادة ، نزولاً عند إرادة الرجل الذي أحبت . ورجاء أن يحمل هذا الوليد اسم أبيه الكبير .

وتكامل مثلما يتكامل القمر في أوائل الشهر . فلم يلبث أن صار بدرأ في كل عين .

ونما مثلما ينمو الغصن الغض في خمائل الروض، يرتفع في الربيع ليدرك نيسان ويستمتع بجماله ويزينه بورده ، فلم يلبث أن ملأ بعطره كل أنف . وبتزايد كأنه أغنية محب بدأها همساً في جوف الليل ثم استطال بها صوته حتى ملأ الفضاء، فلم تلبث أن صارت على كل لسان . ويقوى كأنه الحب ينبثق في القلب ، فلم يلبث أن صار حباً مستقراً في كل قلب .

كذلك أصبح هذا الغلام .

كان ملء العيون والأفئدة ، تمر السنون فلا تزيده إلا ذكاءً ونبوغاً.. وكان سعيداً ينعم بحب أمه ومالها ، ولكن أمراً واحداً كان ينغص عليه هذه السعادة ، ويؤلمه أشد الألم، ذلك أنه لا يعرف من هو أبوه.. وكثيراً ما سأل أمه وأطال عليها المسألة ، ولون لها الأساليب فكان يمنعها من أن تخبره ارادة أبيه ، فتظل معتصمة بالصمت .. وكثيراً ما أمضى الساعات ساهماً واجماً يفكر فلا يهتدي .

فأزمع أن يكون بفعاله أباً لنفسه .. وأن ينزل من هذه الجبال فيغامر في الشرف المروم .

• • •

ظل ذلك السيد القرشي يفكر في الفتاة ، ويصالحها بالمال ، ويتعرف أخبار ابنه ويقوم سبيله ولكنه انصرف عن الحب ولم يعد له في حياته مكان. إن على عاتقه عبءاً ضخماً، إنه يقود إحدى الفئتين في أعظم معركة عرفها تاريخ الإنسان من يوم هبط آدم من الجنة إلى يوم تقوم الساعة... المعركة بين الحق والباطل ، بين الحرية والاستعباد ، بين المستقبل المنتظر والماضي الذميم ، بين الحضارة والبداءة... وكان هو قائد الفئة المدافعة عن الباطل ، فجال الباطل جولة ثم اضمحل ، فاذا النور الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم يضيء الجزيرة . ثم يخرج إلى الشام والعراق، فتعرف عليها رايات محمد ظافرة منصوره ؛ وإذا هذا السيد القرشي جندي صغير في جيش محمد !

ذلك أن مقاييس العظمة قد تبدلت ، وأن الدين الجديد لا يعتمد على النسب ولكن على المزايا ، ولا يعرف قانون الطبقات بل قانون الكفائيات . فهبط أبو سفيان ؛ حتى صار جندياً ، وارتفع هذا الرجل الذي لا يملك نسباً في هاشم ولا أمية وليس له حدود من مخزوم ، ارتفع عمر حتى صار أمير المؤمنين ووارث كسرى وقيصر .

تبدلت الدنيا كلها ، فاذا الدعوة التي كانت تكافح لتغلب مكة وأهلها قد ملكت الجزيرة كلها وغدت في حرب مع الأعداء الذين سرقوا حريسة الشعوب ؛ وعبثوا بآثار الإنسانية .

وإذا القرية التي كانت منقطعة وراء الرمال قد صارت منذ هبطها محمد قصبه الأرض ، ووارثة المدائن سلطانها ، وشريكة القسطنطينية في بلادها .

وإذا هذا المسجد الصغير المبني من الحجارة والطين وسعف النخل ؛ يغلب الإيوان العظيم بشرفاته ودعائمه . وقصر الشالسيه بزخارفه ونقوشه وقبابه وأبراجه ، ويصير ندوة الدنيا ومدرسة العالم .

ففي ذات مساء دعى الناس إلى الاجتماع في هذا المسجد . وكان المسجد دار السياسة ، كما كان دار العلم والعبادة ، فتوافدوا عليه من كل صوب ، فلما اجتمعوا قام أمير المؤمنين فبشر الناس بفتح جديد ، وقدم إليهم شاباً لم يروه من قبل . يدعى زياداً ، ليصف لهم هذا الفتح الذي جاء بخبره ، واستشرف الناس ونظروا إليه ، فلما أبصره أبو سفيان وكان في أصل المنبر إلى جانب علي خفق قلبه واضطرب ... إنه ابنه زياد ، ابن الحب ، وحبس أنفاسه ليصغي إليه ، وقد خاف عليه التضيحة . فاذا النبي الجميل الوسيم يخطب خطبة يملك بها الألباب . ويستهوئ القلوب فلا يتمالك نفسه أبو سفيان أن يقول لعلي :

— « أيعجبك ما سمعت من هذا النبي ؟ »

— فيقول : « نعم »

— قال : « أما إنه ابن عمك »

— قال : « وكيف ذلك ؟ »

— قال : « أنا قدفته في رحم أمه سمية »

— قال : « فما يمنعك أن تدعيه ؟ »

— قال : « أخشى هذا القاعد على المنبر »

يريد عمر بن الخطاب (١)

* * *

وذهب أبو سفيان يلقي معاوية ، وقد استيقظت في نفسه ذكريات حبه القديم ، وطفق ينظر من وراء خمسة وعشرين عاماً إلى تلك الفتاة التي أذاقته السعادة ، ونازعته نفسه إلى الاعتراف بابنها علناً ثم ثناه أنه لم يحن الوقت بعد ، فليتربص ولينتظر ، ولكنه شيخ كبير هو هامة اليوم أو غد ، فمن هو الذي يحمله هذا السر الذي يضيق به صدره ؟ ليس له إلا صدر معاوية « كسرى العرب » :

* * *

ودعا معاوية : فقال له :

— اسمع يا معاوية .. أتعرف الفاكه بن المغيرة ؟ لقد كان هذا الرجل زوج أمك هند بنت عتبة بن ربيعة التي جمع الله لها كبر النفس ، وشرف الوالد ، فلم يقو على حفظ هذه الأمانة واختلفا .. وتحاكما إلى بعض كهان اليمن ، وجزعت أمك وخافت ، فقال لها أبوها عتبة :

— إني أرى ما حل بك من تنكر الحال ، وما ذاك إلا لمكروه عندك .

(١) جعل من التاريخ هي أصل هذه القصة .

— قالت : لا والله يا أبتاه ، ما ذاك لمكروه ولكني أعرف أنكم تأتون بشراً يخطيء
وَيصيب ولا آمنه أن يسمي ميسماً يكون عليّ سُبَّةً » .

— قال : إني سوف أختبره لك « ^(١)

وخبأ له خبيثة فعرّفها ، ثم قدموا إليه أمك في نسوة ، فجعل يدنو من إحداهن
فيضرب بيده على كتفها ، ويقول : انهضي ، حتى دنا من أمك ، « فقال لها : انهضي
غير متهمة ولا جانية ، وستلدين ملكاً يقال له : معاوية » . ^(١)

فنهض إليها الفاكه فأخذ بيدها ، « فترت يده وقالت : اليك عني . فوالله لأحرصن
على أن يكون ذلك الملك من غيرك » ^(١) ، فكانت امرأتى ، وكنت ابني .

فاذا صحت بشارة الكاهن وجاء يوم تحقيقها ، فاعلم أن لك شريكاً في ذلك الملك .

في ذلك اليوم تسمع صوت أبي سفيان أبيك الذي يستصرحك من أعماق قلبك ،
لترفع ابنه الذي انبثق من قلبه وحببه ، وتخلع عليه اسمه ، وتمنحه حقه من إرث أبيك ،
وإرث أسرتك الماجد .

أتعرف من هو ذلك الأخ ؟ هو الرجل الذي خطب على منبر المدينة بين يدي عمر
مخبراً بالفتح إنه (زياد بن أبي سفيان) .



(١) هذا ما جاء في الأسطورة التي روتها كتب التاريخ .

على أبواب المدينة

زينب - كفي يا فاطمة . كفي يا حبيبي ، لقد باغنا مشارف المدينة ! ..
فاطمة - وماذا أصنع في هذه المدينة ؟ ألقى فيها أخي ؟ ألقى الفتية الكرام من آل
النبي ؟ لقد ذهبوا يا زينب ، لقد ذهبوا إلى الأبد ...
سمية أمسى نسلها عدد الحصى وليس لآل المصطفى اليوم من نسل (١)
زينب - إنا لله وإنا إليه راجعون !
فاطمة - ماذا أجد في المدينة ؟ يا مدينة الرسول ! هؤلاء بنات الرسول يتامى
ثاكلات أسيرات ذليلات ، كأنهن سبايا الروم ... يا مدينة الرسول ...
زينب - فاطمة ، أشفقي على الصغار ، لقد نفذت دموعهن ...
فاطمة - ولمن يدخرن الدموع بعد حسين ؟ إبكين إبكين ... لقد قتل الحسين !
زينب - فاطمة ، أهكذا تدخلين المدينة يا فاطمة ! كفي يا أختاه كفي .
فاطمة - لقد كانت مدينتي يا زينب يوم كان فيها أهلي ، فمالي اليوم فيها من أهل
إن مدينتي هناك ، في القفرة التي غصت أحشاؤها بأجساد الهاشميين ، آه ... هل دخل
على أهل بيت ما دخل علينا ؟ آه ، يا رب !
زينب - استعيني بالله ؟
فاطمة - لقد رأيت ابن أخي ، وهو ابن خمس سنين يخرج من الخيمة فيتلفت

(١) انشده يحيى بن الحكم اخو مروان بن الحكم بين يدي يزيد ولم ينكر عليه .

مدعوراً لا يدري ما هذا الذي يرى فلحقته لأدخله ، فوجدت ... آه يارب ، وجدت ...
...السهم ... لقد قتلوا الطفل !

زينب - إصبري يا فاطمة إن الله مع الصابرين
فاطمة - لقد رموا أخاه فمات في حجر أبيه فتلقى الحسين دمه بيده . . . انظري
يا زينب ! ألا ترين إلى الدم قد خضب حواشي الأفق ؟
زينب - هذا هو الشفق يا فاطمة !

فاطمة - وهذا السواد الذي غطى على الكون ؟
زينب - هذا هو الليل ، مالك يا فاطمة ؟ هذا الليل . . .
فاطمة - إننا سنعيش في ليل دائم لا يلمح في جوانبه فجر . سنعيش بعد الحسين
في ليل الأحران السرمدي .

زينب - لقد عدت إلى البكاء ! فاطمة إلى متى تبكين ؟
فاطمة - إلى أن يرجع حسين ، حسين خير الغتيان ، وسيد شباب الجنة
زينب - لا حول ولا قوة إلا بالله
فاطمة - حسين يا أخي يا حبيبي ، يا قرّة عين رسول الله
زينب - ...

فاطمة - لقد ربك النبي ، وغذتك فاطمة بنت محمد ليقتلك سنان بن انس النخعي ؟
لتكن ملعوناً يا سنان على كل لسان

زينب - تعال كلمها يا علي ، تعال كلم عمّتك
فاطمة - أين هو علي ؟
علي - هأنذا يا عمّي !

فاطمة - ادن مني يا علي ، أذت بقية آل محمد . أذت اليوم رجلنا وحامينا ، لم يبق
إلا أنت ... كل أسرة فيها رجالها ، ورجال بيت النبي مصرعون في كربلاء : لقد
وسع المسلمون بعدلهم الذمي والكافر ، ولكن عدلهم ضاق عن آل النبي : لقد قدموا
الحياة السعيدة للنصراني واليهودي ، ولكنهم لم يجدوا لابن بنت النبي إلا الموت الأليم

أفكان لهم ثأر عندك يا محمد !

علي - كفي يا عمّة ، لست وحدك المصابة ، إن المجد والشرف والإسلام ، كل أولئك أصيب يوم أصيب الحسين . كفي يا عمّة لست وحدك الباكية . سبكي معك عيون طاهرة لن يجف فيها الدمع إلى يوم القيامة . لقد مات الحسين ، لقد قتل أبي... ولكنه سيعيش خالداً بروحه في جنان الخلد ، وخالداً باسمه في القلوب . ألم يختر هو الموت اختياراً ؟ ألم يقدم عليه ؟ ألم يعرض عن نصيحة عمي محمد بن الحنفية ؟ ألم يستحلفه عالماً الأمة ابن عمر وابن عباس أن يقيم في الحجاز ، وألا يثق بما يقول الكوفيون ، وألا يشق عصا المسلمين ، فأبى إلا المسير ! ألم يأتيه الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وانقلاب أهل الكوفة عليه ؟

فاطمة - بلى بلى ، ولكنه رأى الجور فاشياً ، والمنكر معروفاً ، وأموال الله نهباً متسماً ، وحمىً مستباحاً ، فنهض ينصر الحق ، ويحيي العدل ، ولم يقم حتى دعوه وألحوا عليه ... ما كان يظن أن المسلمين يقتلون ابن بنت نبيهم ، ويذبحون أطفاله ، ويسرقون نساءه كما تساق أسرى الروم . فكيف كان هذا يا علي ولم تطبق السماء على الأرض ؟ أيتتل بنو النبي وتسبى نساؤه ولا يغضب أحد ؟ ألم يبق على ظهر الأرض مسلم ؟

هذا ابن بنت النبي ، وفتى بني هاشم ، لو مات على فراشه لزم موته أهل الإسلام ، فكيف وقد قتل مظلوماً ، وقد قتل معه هؤلاء الثغيان البرعاء . وهتكت أستار أكرم بيت رفع على هذه الأرض ! آه . أيطل دمك يا حسين ؟

علي - إطمئني يا عمّة ! إن دم الحسين لن يطل . لقد وقع الزلزال فأفاق الناس فزعين ، ولكن الهزة لم تدع لهم سبيلاً إلى التفكير . إن العالم حائر مشدوه لأنه لم يكن يصدق أن هذه هي النتيجة ، كلا ولا هؤلاء الذين تألبوا على أبي يحاربونه . كانوا يظنون أنه سيستسلم لهم . كانوا يتحامون قتله ، وينأون عنه ، لا يريد أحد منهم أن يلقي الله بدمه ، وأن يبوء بهذه اللعنة ، فلما رأوه مقتولاً ذعروا ، وتيقظوا كأنما أفاقوا من حلم هائل .

فاطمة - ولكنهم أفاقوا بعدما فات الأوان . يا لهؤلاء الوحوش ! يا للذئاب ... لقد دعوه وألحوا عليه ، حتى إذا جاء نهضوا اليه بالسيوف ، وضنوا عليه حتى بالماء . لقد شهدته يقاتل عطشان قد جف حلقه من الظمأ ، فحسبتهم سيستقونه ، ولكنهم سدوا إلى فمه سهماً ملأ فمه بالدم . هذا هو الذي منوا به عليه !

علي - إنهم سيندمون يا عمه . سيعضون أصابعهم حسرة . إنهم سيأطمون وجوههم لوعنة . إن هؤلاء الذين قتلوا الحسين وقتلوا أباه ، هم الذين سيبكون عليه وعلى أبيه . إن الكوفة التي أذاقتنا الغصص ستكون مثابة شيعتنا ، ومثوى أحبائنا ... سيفنى الأعداء ، ويبقى الأحياء ، سيأتي يوم يقال فيه : أين من قتلوا حسيناً ؟ أين أنسالم ؟ أين من يبغض آل بيت النبي ؟ قد خلا وجه الأرض منهم ، ليس في الدنيا من بني أمية أحد .

الدليل - وما ذنب بني أمية ؟

علي - لقد نسيت أنك هنا ، ما كان لي أن أتكلم عن بني أمية بمسمع منك .
الدليل - ولم يا سيدي ؟ إنني من جنود بني أمية ولكنني أحب لكم ولذلك صحبتكم . وهل يتم إسلام امرئ يبغض آل بيت نبيه ؟ إنني والله ما أؤثر عليكم أحداً من بني أمية ، ولكنها كلمة الحق .

علي - وما هي كلمة الحق ؟

الدليل - هي أن أمير المؤمنين يزيد لم يرد قتل أبي عبدالله ولم يأمر به . ولقد كتب إلى ابن زياد ألا يقاتل من لم يقاتله .

علي - لقد عرف ذلك الحسين ، فسأل القوم أن يدعوه حتى يضع يده في يد يزيد ، أو يمضي إلى ثغر من ثغور المسلمين فيقاتل فيه المشركين ، أو يعود من حيث جاء .

للدليل - أنصفهم والله ! ولو قدم على يزيد لوجده مبجلاً له ، عارفاً بقدره ؛ إن لم يمنعه دينه من قتله ، منعتة مروءته (وهو ابن عمه) أن يرمل نساءه ويهتك أستاره .
علي - صدقت والله ، ما رأينا من يزيد إلا خيراً . أحسن إلينا ولعن ابن سمية

وترحم على الحسين ، وكان قصره من البكاء على أبي عبدالله كأنه في مناحة^(١) . ولكن
المجرم شمر بن ذي الجوشن .

فاطمة — هذا الذي أوقد النار وضرّأها. لتنزل عليه اللعنة الحمراء ، ليكن ملعوناً
على كل لسان إلى قيام الساعة .

علي — وعبيدالله بن زياد

فاطمة — هذا الذي أمر بها ، هذا الذي ضرب بقضيبه فمأ قبّله رسول الله. لتنزل
عليه اللعنة الحمراء . ليكن ملعوناً على كل لسان إلى قيام الساعة .

علي -- سيوءان بلعنة العصور ويصيران سبة التاريخ . لقد فقدوا الدين والمروءة وخسروا
الشرف . لم يستثر حميتهما ، ولم يهيج انسانيتهما ، هؤلاء الأبطال الذين وقفوا يدافعون
عن الحق ، ويذودون عن أسرة النبي ، يقاتلون وهم عطاش والموت عن أيمنهم ،
والموت عن شمائلهم ، والموت من أمامهم ، وهم ماضون في سبيلهم لا يريدون مالا ،
ولا يبغون جاهاً . ولا يحرصون على عرض من أعراض الدنيا ، ولكنهم يريدون الله
حتى إذا أحسوا باليأس طفقوا يسارعون إلى الموت واحداً بعد واحد ، وكأما ذهب
منهم بطل ودع الحسين وسلم عليه وأسلمه إلى من خلفه ليدافع عنه ، حتى فارقه
جميعاً ليلقوه في الجنة . هؤلاء هم الأبطال الأشراف الذين ستبقى أسماؤهم درة في
تاج التاريخ تلمع أبداً فتضيء لسايرين طريقهم إلى النبيل والشرف والمجد : حبيب بن
مظاهر ، وزهير بن العتيق ، والحر بن يزيد الذي كفر عن خطيئته ، وتاب من ذنبه ،
رحمة الله على الجميع .

زينب — أنظري يا فاطمة لقد وصلنا إلى المدينة .

فاطمة — خرجنا منها منذ شهرين فسحنا في الأرض ورأينا العراق والشام ولكننا
عدنا كالمساييا . لقد خسرنا كل شيء ، آه ! أين ما أين أنت يا أخي تستقبلنا ؟ ...

(١) هذا ثابت عند المؤرخين .

أين فتیان بنی هاشم یحتمون بنا ؟ أين رجالک یا أسرة النبی ؟

زینب -- یا فاطمة ، إنهم ذهبوا ولكن الله باق ..

فاطمة -- هذه دارکم یا آل النبی ، فتجرعوا فیها الآلام . هذه الدار فاذا کروا ساکنیها الذین احتواهم جوف الأرض من كربلاء . هنا كانوا یقیمون وهنا كانوا...

علی -- قد بلغنا المسجد ، فانزلی فسلمی علی الرسول إنزلی یا عمه

فاطمة -- السلام علیک یا رسول الله ... یا جدی ... لقد قتلوا ابنک الحبیب !

حِكَايَةُ الرَّهْمِيَّانِ

كان أذان النجر يصعد من مآذن الحرم في مكة في أول يوم من رمضان سنة أربعين ومئتين للهجرة . فيهبط على تلك الذرى المباركات من قُعَيْقِيَّعَانُ^(١) وأبي قبيس . فينساب مع نسيم السحر رخياً فاعشاً . يسحب ذبوله على تلك الصخور التي كانت (محطة) بريد السماء . ومنزل الوحي . ومنبع رحمة الله للعالمين . حتى يمسح ستور الكعبة ، فيتنزل على من في الحرم تنزل النفحات الالهية على قلوب عباد الله المخلصين .

وكانت صفوف المؤمنين قائمة للصلاة تدور بالكعبة من جهاتها كلها ، صفوف في الحرم ترى الكعبة وتنعم بالقرب منها ، و صفوف لا تراها ولكنها تتوجه اليها ، وتبصرها بقلوبها . تقوم وراء الجبال الشم والبحار ، في المدن والقرى ، والصحاري والسهول ، والأودية والقمم ، في القصور والأكواخ ، والسنجون والمغائر ، في القفار المشتعلة حراً ، والبطاح المغطاة بالثلج... تتسلسل وتتعاقب لا تنقطع ما امتدت الأرض وكان فيها مسلمون .

* * *

وأم أهل مكة الحرم ، ولم يبق في داره الا شيخ في السادسة والثمانين ، وان محطم ما عليه الا قميص مشدود بحبل ، وقاموا للصلاة ما يستطيعون الوقوف مما حشوا به

(١) جاء بلسان العرب انه : جبل ، وقيل : موضع بمكة كانت فيه حرب بين قبيلتين من قريش . وهو اسم معرفة ، سمي بذلك لقعقة السلاح الذي كان به . (الناشر) .

بطونهم من طيبات الطعام ، من كل حلو وحامض ، وحر وبارد ، وسائل وجامد ، ووقف يصلي وما يستطيع القيام من الجوع ، فقد أمسك للصوم بلا سحور ، ونام ليلته البارحة بلا عشاء ، وأمضى أمسه من قبلها بلا غداء ... فلما قضى صلاته قعد في محرابه منكسراً حزيناً ، وما كان يفكر في نفسه فلقد طال عهده بالفقر حتى ألفه ، وهون إيمانه الدنيا عليه حتى نسي نعيمها وازدراها ، ولكنه كان يفكر في هذه البطون الجائعة من حوله ، وهو كاسبها ومعيها ، وهذه المناكب العارية ... ولو كان في مكانه رجل آخر قاسى الذي قاساه ، ورأى الأغنياء يبذرون المال تبذيراً ، ويضيعون الألوف في الباطل ، على حين يحتاج هو إلى الدائق فلا يجده ... لثار على الدنيا ، وذمّ الزمان ، وحقّد على الناس ، ولكنه كان رجلاً مؤمناً ، موقناً أن الله هو الذي قسم الارزاق ، فأعطى - لحكمة يعرفها - ومنع ، وأن الناس لا يملكون عطاءً ولا منعاً ، وأن ما كان لك سوف يأتيك على ضعفك ، وما كان لغيرك لن تناله بقوتك ، رفعت الأقلام وجفت الصحف .

فقال : إه . الحمد لله على كل حال !

وقام فترع القميص ، ونادى : يا لبابة . فجاءت امرأة ملتحفة بخرقة قدرة ، فدفع إليها بالقميص وأخذ الخارقة فالتفت بها... فقالت المرأة : يا أبا غياث ، هذا ثالث يوم لم نذق فيه طعاماً ، وهذا يوم صيام وحر ... فاذا صبرت وصبرت أنا فان البنات والعجوز لا يقدرن على الصبر ، وقد هدّهن الجوع ، فاستعن الله ، وانخرج فالتمس لنا شيئاً فاجعل الله يفتح عليك بدوانق أو كسيرات ندخرها لفظورنا .

قال : أفعل إن شاء الله .

* * *

وانتظر حتى علت الشمس وكان الضحى ، فخرج يجول في أزقة مكة وطرقها ، وكان الناس قد انصرفوا إلى دورهم ليقبلوا . فلم يلقَ في تطوافه أحداً . واشتد الحرّ

وتخاذلت ساقاه ، وزاغ بصره ، وأحسَّ بجوفه يلتهب التهاباً من العطش ، وكان قد صار في أسفل مكة فألقى بنفسه في ظل جدار . وكان من أكبر أمانيه أن يدركه الأجل فيموت مؤمناً ، فيتخلص من هذا الشقاء وينال سعادة الأبد . وجعل ينكت التراب بيده ، وهو سادر في أمانيه ، فلمس يده شيء مستطيل لين ، فسحبها ونظر ، فإذا هو بذنب حية مختبئة خلال التراب ، فتعوذ بالله ، ثم عاودته رغبته في الموت ، وتمنى لو تلدغه فتربحه ، ثم ذكر أنه لا ينبغي للمؤمن أن يطلب الموت ، وإنما ينبغي له أن يقول : اللهم احيني ما كانت الحياة خيراً لي ، وأمتني إن كان الموت خيراً لي . فقالها واستغفر الله . وعاد يرقب الحية فإذا هي ساكنة ، فعجب منها ، ولمسها برجله فلم تتحرك ، فبحث عنها وحفر ، فإذا الذي رآه حزام وليس بحية . فشده فجاء في يده (هميان) ^(١) فيه الذهب ، عرفه من رنينه وثقله ، فاحس كأن جوعه وعطشه قد ذهب ، وكان القوة قد صبت في أعصابه ، والشباب قد عاد إليه ... وتصور أنه سيحمل إلى نساءه الشجع والدعة والراحة ، ويملاً أيديهن مما كن يتخيلنه ولا يعرفنه من نعيم الحياة ، ورغد العيش ، وجعل يفكر فيما يشتره لن . وكيف يتلقين هذه النعمة التي ساقها الله اليهن ، حتى كاد يخالط في عقله .

ثم تنبه في نفسه دينه ، وعلا صوت امانته يقول له : إن هذا المال ليس لك . إنما هي لقطة لا بد لك من التعريف بها سنة ، فإذا لم تجد صاحبها حلت لك .

وتصور السنة وطولها وهو الذي يبحث عن عشاء يومه . وهل يبقى حياً سنة أخرى؟ وهل تبقى أسرته في الحياة؟ وماذا ينفعه أن يكون الذهب له بعدما مات من الجوع ، ومات معه من يرثه؟ ... وأحس كأن قواه قد خارت ، وودّ لو أعاد الحميان إلى مكانه ، ولم يكن قد ابتلي بهذه البلية ... ولكنه كان رجلاً فقيهاً يعلم أن اللقطة إن مُست

(١) يقال للذي يجعل فيه النفقة ويشد على الوسط (الناشر)

فلا بد من التعريف بها ، وان هو أرجعها إلى مكانها وفقدت كان المسؤول عند الله عنها ، اما اذا لم يمسسها فلا شيء عليه منها ...

وجعلت الأفكار تصطدم في رأسه ، وتتراكض وتصطرع ، حتى شعر أن عظم صاعقه سيتكسر من قرع الأفكار المتراكضة في رأسه ، وطفق يسمع صوتاً يهتف به أن : خذها فهي رزق ساقه الله إليك . ادفع بها الموت عن بناتك اللاتي أطاف بهن الموت . أشبع بها هذه الاكباد الغرثي . أكس هذه الاجساد العارية . ثم اذا أيسرت رددتها إلى صاحبها . أو دفعتها اليه ناقصة دنانير لن يضره على غناه نقصها ..

ثم يسمع هاتف دينه يقول له : اصبر يا رجل ، ولا تخن أمانتك ، ولا تعص ربك وعقد العزم على الصبر ، واستعان بالله ، وذهب إلى داره يخبأ الهميان حتى يجيء صاحبه .. أو يحكم الله فيه ..

• • • •

ودخل الدار متلصصاً : فرأته امرأته فقالت :

ما جاء بك يا أبا غياث ؟

قال : لا شيء . وأحب ان يكتمها خبر الهميان ، وما كان يكتمها من قبل أمراً .

قالت : بلى والله : ان معك شيئاً ، فما هو ؟

فخاف أن تراه فيستطار لبها ... فقص عليها القصة ، وكانت امرأة تقية دينة ،

ولكنها أضعف منه ارادة ، وأوهن عزمها ، فقالت :

افتحه ، وخذ منه دنانير اشتر لنا بها شيئاً ، فاننا مضطرون والمضطر يأكل الميتة^(١) ...

قال : لا والله ، ولئن مسسته أو خبرت خبره احداً فأنت طالق .

وتركها مغیظة محتمة وخرج يبحث عن صاحبه ، لعله يأخذ منه شيئاً حلالاً يدفع

به الضر عن عياله .

• • •

(١) ما قالته هو الحكم الشرعي .

وهشى الى الحرم ، وكان فيه شاب طبري طالب علم .
قال الشاب الطبري : (فرأيت خراسانياً ينادي ، معاشر الحاج من وجد همياناً فيه
ألف دينار فرده علي ، أضعف الله له الثواب . فقام اليه شيخ من أهل مكة كبير من
موالي جعفر بن محمد ، فقال : يا خراساني ، بلدنا فقير أهله ، شديد حاله ، أيامه
محدودة ، ومراسمه منتظرة . ولعله يقع في يد رجل مؤمن يرغب فيما تبذله له حلالاً
فيأخذه ويرده عليك .

قال الخراساني : يا با . كم يريد ؟

قال : العُشر ، مئة دينار

قال : يا با . لا نفعل ولكن نحيله على الله تعالى) .

وافترقا .

قال الطبري : (فوقع في نفسي ان الشيخ هو الواجد للهميان فاتبعته ، فكان كما
ظننت ، فترل إلى دار مسئلة زرية الباب والمدخل ، فسمعته يقول : يا لبابة
قالت : لبيك ابا غياث .

قال : وجدت صاحب الهميان ينادي عليه مطلقاً . فقلت له : قيده بأن تجعل لواجده
شيئاً ، فقال : كم ؟ قلت : عَشْرُه . قال : لا نفعل ، ولكننا نحيله على الله عز وجل ،
فايش نعمل ؟ لا بد لي من رده .

فقالت له : نقاسي الفقر معك منذ خمسين سنة ، ولك أربع بنات وأختان وأنا
وأمي وأنت تاسع القوم) .

يا ابا غياث ان الله أكرم من ان يعاقب رجلاً يحيي هذه الانفس . انك لم تسرقه
ولم تغصبه ، ولكن الله هو الذي وضعه بين يديك ، فلا ترفض نعمة الله بها غياث ،
ان الله يسألك عن هؤلاء النسوة ...

قال الطبري : ونظرت في وجه الشيخ فأحسست مما بدا عليه انه قد تصور بناته
جائعات عاريات ، والعجوز المسكينة ام لبابة وقد جف جلد لها على عظمها فصارت

كانها الخطبة الجوفاء ، تتردد فيها الأنفاس ، ففاضت نفسه رقة عليهن فسال دمه على شيبته ، ورأت المرأة ذلك فازداد طمعها فيه ... ثم رأته يعبس وتبدو عليه الصرامة لقد ودّ لو استعان بشيء من هذه الدنانير ... ولكنه ذكر انه صبر خمسين سنة فما كان ليضيع ذلك كله في لذة يوم ، وذكر انه على شفير القبر ، وانه سيلقى الله ، فما كان ليلقاه خائناً أمانته ، أما عياله فإلهم الله ، والله أرفأ بهم وأشفق عليهم ، وشد من عزمه ، وصاح بها :

(لست أفعل ، ولا أحرق حشاشتي بعد ست وثمانين سنة) .
قال الطبري : (ثم سكت وسكتت المرأة . وانصرفت أنا) .

* * *

وأذن المغرب . وقعد الشيخ ونسأوه على كسيرات وتمرات . التقطها لهم ... وقعد الناس من حولهم على الموائد الحفلات بشهي الطعام . تفوح من بيوتهم روائح الشواء والحلواء ، يأكلونها ويستمتعون بها ، وينسون أن رمضان شهر الانسانية والايثار ، وأن الله ما فرض علينا الصيام للجوع والعطش والعذاب ... ولكن اذكرنا هذا الجوع الاختياري الموقوت ، أن في الدنيا من يجوع جوعاً اجبارياً ، لا حد له ينتهي عنده ، وليكون لنا من اعصابنا وجوارحنا ، مذكر بالاحسان .

فمن يقعد إلى مائدته الحافلة بالطعام ، وجاره يتأوى من الجوع ، لا يفكر فيه ، ولا يشاركه طعامه ، فما صام ولا عرف الصيام ، وان جاع نهاره كله وعطش ... إن العادة تضعف الحس ، وان إلف النعم يذهب لذتها . فأوجب الله الصيام علينا لذوق مرارة النقد فنعرف حلاوة الوجدان . ولنشتهي في النهار اللقمة من الخبز الطري ، والجرعة من الماء البارد ، فنعلم ان هذه اللقمة الطرية ، وهذه الجرعة الباردة ، نعمة من النعم . فلا ندع الاحسان مهما كان قليلاً ، ولا نزهد في صدقة تقدر عليها . واتقد كان لابراهيم الحربي رغيف كل يوم ليس له سواه ، فكان يترك منه كل يوم لقمة حتى اذا كان يوم الجمعة أكل هذه اللقمة وتصدق بالرغيف ...

كان الشيخ يفكر في هذا ، فيألم لما صارت إليه حال المسلمين ، ثم يذكر أن الله هو ملهم الخير ، ومصرف الارزاق ، فيحمده حمد رجل مؤمن راض .
وأقصى ليلته الرابعة بلا طعام ، لأنه ترك التمرات والكسيرات للعجوز والبنات يتبلغن بها ...

* * *

قال الطبري : (فلما كان من الغد سمعت الخراساني يقول : معاشر الحاج ووفد الله من حاضر وباد ، من وجد همياناً فيه ألف دينار ورده أضعف الله له الثواب . فقام الشيخ إليه . فقال : يا خراساني قد قلت لك بالأمس ونصحتك ، وبلدنا والله فقير قليل الزرع والضرع ، وقد قلت لك أن تدفع إلى واجده مائة دينار فلعله يقع في يد رجل مؤمن يخاف الله عز وجل ، فامتنعت . فاجعل له عشرة دنانير منها فيرده عليك ويكون له في العشرة ستر وصيانة .

فقال له الخراساني : يا با . لا نفعل ولكن نحيله على الله عز وجل ثم افترقا ..

فلما كان اليوم الذي بعده سمعت الخراساني ينادي ذلك النداء بعينه ، فقام إليه الشيخ . فقال : يا خراساني : قلت لك أول أمس العشر منه ، وقلت لك أمس عشر العشر عشرة دنانير فلم تقبل ، فأعطه ديناراً واحداً عشر عشر العشر ، يشتري بنصف دينار قرية يستقي عليها المقيمين بمكة بالأجرة وبالنصف الآخر شاة يتخذها لعياله .

قال : يا با . لا نفعل ولكن نحيله على الله عز وجل .

فرأى الشيخ أن لا حيلة له فيه ، وانقطع آخر خيط من حبال آماله ، وتوهم حالة بناته وأخوته وزوجته وأمها ... وأن هذا الخراساني منعهم ديناراً واحداً من ألف يدفعون به الجوع والعري ، والموت الكامن وراءهما ، ورأى الألف كلها بيده فحدثته نفسه بأن يمسكها ، أو يدفعها إليه ناقصة ديناراً ، ولكنه ذكر الله والحساب فاستعاذ بالله من هذا الخاطر . وهل يشتري الشقاء الدائم باللذة العاجلة ، وهو يعلم أن

لذات الدنيا كلها لا تنسي كربة واحدة من كرب يوم الحشر ، وشقاءها كأنه نذوبه
نقعة واحدة من نفحات الجنة ؟

لا والله ، ولقد روي ان « من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً منه » فترك له الهميان ،
وقال للخراساني :

تعال خذ هميانك ...

فقال له : امشِ بين يدي ...

قال الطبري : « فمشيا وتبعتهما ، حتى بلغا الدار . فدخل الشيخ فما لبث أن خرج .

وقال : ادخل يا خراساني ، فدخل ودخلت ، فنبش الشيخ تحت درجة له فأخرج
الهميان أسود من خرق غلاظ ، وقال : هذا هميانك ؟

فنظر اليه ، وقال : هذا همياني .

ثم حلّ رأسه من شد وثيق ثم صب المال في حجره وقلبه مراراً ، ثم قال : هذه
دنانيرنا :

وكانت لبابة والبنات ينظرن من شق الباب إلى الذهب الذي نسين لونه وشكاه ،
وحسبه قد فقد من الأرض ، كما ينظر الجائع إلى قدور المطعم ... يتمنى لقمة منها
يشد بها صلبه ...

« وأعاد الرجل الذهب إلى الهميان وشده . ووضع على كتفه وقاب خاتماته فوقه
وخرج » .

ولم ينظر في وجه الشيخ ، ولم يلق في أذنه كلمة شكر .

وأحست لبابة كأنه قد اختطف وحيدها ، وكأن شعبة انخلعت من قايها ، فطارت
وراهه ، وشده البنات ، ولبثن مفتوحات الاشداق دهشة وذهولاً ... فلما ابتعد وأسن
منه سقطن على وجوههن من الجوع والضعف واليأس ...

وسمع الشيخ حركة ، فنظر فاذا الخراساني قد رجع ... فرفع اليه رأسه ينظر ماذا

يريد، وكان أولى به أن يعرض عنه . وأن يبغضه ، وقد منعه ديناراً واحداً يحيي
لو جاد به عليه هذه النفس المشرفة على الموت . ولكن الشيخ كان رجلاً سمحاً لا ينزع
قلبه لبغضاء . فتأم إليه وسأله عما رجع به . فقال الخراساني :

« يا شيخ ، مات أبي وترك ثلاثة آلاف دينار . فقال : أخرج ثلثها ففرقه في أحق
الناس عندك له . وبيع رحلي واجعله نفقة لحجك . ففعلت ذلك . وأخرجت ثلثها ألف
دينار . وشدته في هذا الضميان ، وما رأيت منذ خرجت من خراسان إلى الآن رجلاً
أحق به منك . فخذاه بارك الله لك فيه .

ووضعه وولي »

قال الطبري : « وكنت قد ذهبت فدا راعني الا الشيخ يسرع خلفي يدعوني
فرجعت إليه فقال لي : لقد رأيتك تتبعنا من أول يوم . وعلمت انك عرفت خبرنا ،
وقد سمعت أحمد بن يونس اليربوعي يقول : سمعت نافعاً يقول : عن عبدالله بن
عمر أن النبي ﷺ قال لعمر وعلي رضي الله عنهما : اذا أتاكم الله بهدية بلا مسأة ولا
استشراف نفس فاقبلها ، ولا ترداها فترداها على الله : فهي هدية من الله والهدية لمن
حضر^(١) فرمعي .

فسرت معه . فقال لي : انك لمبارك . وما رأيت هذا المال قط . ولا أمه قط .
أترى هذا القميص ؟ اني والله لأقوم سحراً فأصلي الغداة فيه . ثم أنزعه فتصلي فيه
زوجتي وأمها ، وبناتي . وأختاي . واحدة بعد واحدة : ثم ألبسه وأمضي أكتسب إلى
ما بين الظهر والعصر ، ثم أعود بما فتح الله به علي من أقط وتمر وكسرات كعك ،
فتداول الصلاة فيه ...

حتى اذا وصلنا إلى الدار نادى : يا لبابة يا فلانة وفلانة . حتى جئن جميعاً فأقعدني
عن شماله ؛ وحلّ الهميان وقال : ابسطوا حجوركم . فبسطت حجوري ، وما كان
لواحدة منهن قميص له حجر تبسطه فمددن ايديهن : وأقبل يعد ديناراً ديناراً ، حتى

(١) الجمل التي بين القوسين من الأصل .

إذا بلغ العاشر قال . وهذا نك ، حتى فرغ الحميان فقال كل واحدة منهن مائة دينار ونالني مائة .

د د د

ولما أذن المغرب وحف نساء الشيخ بمائدة كموائد الناس . عليها الطيبات من الطعام ، قال لامرأته :

أرأيت يا لبابة ؟ ان الله لا يضيع أجر الصابرين . ان الله هو أرحم الراحمين ، يا لبابة ، لقد منعنا أنفسنا ديناراً حراماً . فجاءنا الله بألف حلال . وأكل الشيخ لقيمات . ثم قام ليخرج . فقالت له امرأته :

لئى ابن يا ابا غياث ؟

قال : أفتش . فلعل في الناس فقيراً صائماً . لا يجد ما ينظر عليه . فنشركه في طعامنا ...

ذيل القصة

قال الشيخ الامام ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (١) :

« وقد نفعني الله بهذه الذنائب فتتوت بها . وكتبت العلم سنين . وعدت إلى مكة بعد ست عشرة سنة فوجدت البنات ملكات تحت ملوك . وعلمت أن الشيخ توفي بعد ما فارقت بشهور . فكنت أنزل على أزواجهن وأولادهن فأروي عن القصة . ويكرمونني غاية الاكرام .

وسألت عنهم بعد ذلك بأربعين سنة فعلمت انه لم يبق منهم أحد ، رحمة الله عليهم جميعاً . »

(١) وجدت هذه القصة مخطوطة في مجموع من مجموعات المكتبة العربية في دمشق مروية عن الطبري بالسنة المتصل . وقد وضعت عبارة الأصل بين قوسين صغيرين .

هند والمغيرة

في عشية (من عشايا سنة ٤١ للهجرة) ساكنة لا يسمع فيها إلا الصمت . في برية هادئة لا يرى فيها إلا السكون . كان يرى القادم على الخيرة إذا هو اجتاز بدير هند . عند النخلة المنفردة التي قامت على الطريق عجوزاً طاعنة . قد انكشفت . وانظرت على نفسها وجلست صامتة وحيدة . تعجل عينيها الضعيفتين . في هذه الدنيا الصامتة . التي دارت من حولها . فتبدل كل شيء . وهي ثابتة .

كانت نبتة طرية مزهرة في ذلك الروض . فساد الروض كله وبقيت هي وحدها حطبة يابسة . وكانت كلمة في كتاب الماضي . فسحبت سطوره كلها ، وبقيت هي وحدها الكتاب . هذه العجوز التي تراها فتحسبها قد فرغت من الخم . واستراحت من الحزن . تطوي أنساعها عن ذكريات ضائعة . لعالم كامل أنحنى عليه الدهر وأخضعه . ولم يدع منه إلا هذه الذكريات . تحفظها وتحملها وحدها .

إنها لا تعيش في دنيا الناس ، ولا يعيشون في دنياها . إنها لا تعرف شيئاً مما يحيط بها ، ولا تنسى شيئاً من عالمها الذي افتقدته من زمان . عالم الخيرة . وعدي بن زيد . والنعمان العالم الذي أحتوى مسراتها وأحزانها وروحها . فلما مر حمل ذلك كله معه . فعاشت من بعده بلا حب . ولا مسرات ، ولا أحزان . ولا روح ، إلا هذه الذكريات التي تنتثر كل يوم نقرة في قلبها . فلو كان حجراً صلداً لتفتت . فكيف وهو من لحم ودم ؟

لقد بنت هذا الدير، وتوارت وراء جدرانها، وعاشت منه في المنطقة الحرام، بين
الحياتين، فلا هي بحياة الناس الدنيا، فيها متعتها وملاهيها ومشاغليها، ولا هي بالحياة
الأخرى، منطقة وراء الحياة ودون الموت هي معيشة الدير، وزادها ضيقاً وجموداً أنها في الدير
وحدها، وبنته لتأوي اليه تناجي فيه ذكريات حبيبها الذي فجعت به، وعافت لأجله الأرض برحبها
وسعتها، وصبرت على هذا السجن الدهر الأطول، لا تدري مسا وراء بابها
إلا طرفاً مما يحسبها إليها رجال القوافل الذين كانوا يسرون بها، وكان أقصى ما تصنعه
إذا هي نشطت يوماً، وأجبت أن تدرق منسكها، أن تسلك هذا الطريق الذي طالت
مر عليه فاتحون ومنهم من وسارت فيه الحضارة مصعدة وهابطة، ومشى فيه
ملوك وسوقة، وسوقة وملوك، ذهبوا جميعاً إلى حيث لا يؤوب ذاهب، حتى
تتعب من المسير، فتجلس على رابية، وتشرف على البلد الحبيب: الخيرة، التي
كانت يوماً موطن هراها، وكان فيها الإنسان الذي أعطته قلبها، وأعطها منعة
العمر، فإرى الخيرة لا تزال ترفل في حقل الخزامى والأقحوان، ولا تزال قصورها
البيض تخطر تياهة بين البساتين، ولا يزال نسبيها معطراً بأنفاس المحيين، تفتقروا على
وجهه وسوسات القبل، وهمسات الغرام، ولكنها لم تكن تحيا فيها، كانت تفكر
في ماضيها، وما أصعب أن يعيش المرء في الماضي، ثم تذكر أنه لم يبق أحد من ناس
بلدها الحبيب لقد ذهبوا، ولا تدري أين ذهبوا ولم بقيت هي وحدها من بعدهم؟
وجاء هؤلاء، ولا تدري من أين جاءوا، حتى تغرب الشمس وراء الأفق البعيد،
وتمشي القادمة إلى الكون، فتعود وفي قلبها ظلمة أخرى، ولكنها لا تأمل أن يكر
عليها فجر يوم جديد، لقد خلقت ضياء النجم في طريق العمر فلا تملك أن تعود إليه،
لقد كتب عليها أن تعيش في ليل دائم، وصمت سرمدتي، هو صمت هذه الصحراء
التي وسع صدرها أسرار الزمان، ثم أغلق عليه إلى الأبد، كم بين ترابها ورمالها،
كم تحت روايتها وقبورها، من بقايا قلوب كانت محبة وكانت محبوبة، وأجسام
كان فيها فتنة وجمال، وما أقرب ما يصير قلبها هي (أيضاً) تراباً فيها تطوّه أقدام
لا تعرف أصحابها... فما الحب؟ وما الجمال؟ وما الدنيا؟ إنها زوال في زوال.

وقامت العجوز تجر رجائها إلى الندير . لتبدأ ليلة مملّة طويلة . كآلاف الليالي التي
مرت بها من قبل . ليالي لا آخر لها . ولا أمل يسطع من خلالها .

إن السجنين يأمل بالعنوا ويرجو الخربة . ويتسلى بحديث الرفاق . ويأنس بأحداث
السجن . وهي لا ترجو شيئاً . ولا تأنس بأحد ، ولا تتسلى بحادث . ولطالما أمضت
ليالي قصيرة حلوة . تلك هي ليالي الحب واتصال : ليالي زوجها عدي فتى الفتيان .
وأبيها النعمان . إنها كلما فكرت فيها رأته دانية منها ، قريبة كأنها لم يطلع لها صبح .
فأين يا تبصر^(١) مكانها من الوجود ؟ أفنيت وعادت عدماً ؟

لا . إن الفناء لا يقوى عليها . إنها موجودة في الكون كوجودها في ذاكرتها . إن
الفناء لا يترك حقيقته كما أن النسيان لا يقوى على محو صورها . إنها لا تشيع من
الإبغال في هذا الماضي . لأنها كلما أوغلت فيه جدّت لها طرق ظليّة : لا عهد لها بها .
قد أزهق فيها المجد وبدا السن . وربّاً على كل رابية فراش غرام ، مرشوش المعطر
والشعر . ووجوده أحبه كانت تعيش بهم وهم ...

ولطالما أجتوت (من محبتها هذا الماضي) حاضرها فخامرته فكرة الموت . فسنت
تقصده النهر حتى إذا أدلتها خطاها الواهنة من مياهه ورأتها تلمع كالمرآة . أشفتت من
الموت وهابته وارتدت عنه للدرّة الخامسة بعد الألف . إنها لا تريد أن تموت .
ولا تزال متعلّقة بحياة قد أقفرت من المجد والحب .

وما دأبت إلى مخدعها في الندير سمعت ضجّة . وقالوا لها . إنه الأمير المغيرة ابن
شعبة يستأذن عليك . الأمير ؟ ما لها وللأمير ؟ ما شأنه بها ؟ ما ينبغي لديها ؟ أما تركت
له ولقومه ملك أبيها . فلم لا يتركها ديراها ؟ وفكرت ... ثم أدت له . فدخل عليها
فبسط له مسجاً . وسألته : ما جاء بك ؟ قال : جئتك خاطباً ؟

(١) إذا جاز أن نقول : (يا ترى) لا نقول : (يا تبصر) فننجوا من هذا الابهام والابهام .
والاعراب في كتيها واحد فقط (يا) متاذن وخاطبة .

خاطباً؟ إنها كلمة لم تسمعها من عمر طويل ، فلما طرقت سمعها هزت وتراً في قلبها كان قد صدىء . ونسيت ضيقتها وقفزت إلى الماضي فغابت عن حاضرها . وغرقت في ذهلة عميقة أمتدت أبداً . والمغيرة يرقب جوابها . ولكنه كان أكيس من أن يفسد عليها أحلامها ، فانتظر صابراً ...

• • •

تخيلت أنها قد عادت فجأة تلك الفتاة التي كانت فتنة القاب والنظر . وكانت مطمح الأنفس والفكر ، قد جمع الله لها المجد كله ، والجمال كله . فهي عروس الزمان بهاء وحسناً . وهي بنت النعمان أعز عربي عزاً ، وأمجدته مجداً ، وإنها قد عادت أيام الحيرة ، ورجع النصح والشعائين ، فخرجت إلى البيعة تتقرب فيها . فلما أحتوتها البيعة . وأمنت الأنظار . ألقّت عنها خمارها ، وأخرجت هذه المؤنوة من صدفتها ، وأبدت ذلك الجسم الذي كانت تنقطع على الوصول إليه قلوب الرجال . ولم تدر أن الزمان أراد أن يؤلف قصة حب . تتلى بعد أربعة عشر قرناً . فجاء بعدي ابن زيد، الشاعر الجميل ، ليختلس النظر إليها . ويقع في قلبه هواها . فلما رآه استترت منه ، وسبت جواربها . وظنت أن القصة ختمت قبل أن تفتتح . لم تدر أنها قد سطرت منها الأسطر الأولى (لتكون سفر سعادتها العاجلة وشقاها الطويل) بنا (مارية) الجميلة الخبيثة ...

لقد كانت مارية تحب عديا . ولا تجد إلى الوصول إليه سبيلاً . إلا أن تأتي بهند لتحلها مكان المحبوبة من قلبه ، ترضي بذلك حبها ونفسها . وقد يفنى المحب في الحبيب ، فيبني مسرته على أساس من شقاء نفسه ، وهشت بين عدي وهند تدبير خيط الحب من حولهما . حتى غدا سيباً قوياً . وجامعة لا تنقطع . لقد صبرت حتى مضى حول كامل على يوم الشعائين ونسيته هند . فواعدت مارية عديا بيعة ثوما . وأغرّت هند بزيارتها . فاستأذنت أمها فأذنت لها وهناك عرفت هند ما الغرام . وذات غصصه ...

يا وبل مارية ! لقد جعلت هنداً مهراً لها لزواج ليلة (١) لقد تعرضت لعدي غداة
يوم ثوما فهش لها وبش - وقد كان لا يكلمها - وقال لها : ما غدا بك ؟ قالت :
حاجة ! قال : إذكريها فوالله لا تسأليني شيئاً إلا أعهليتك إياه .

قالت : أريد ... وسكت . وأدركها الحجل ، ونطقت عيناها وفهم عنها . فأخذ
بيدها إلى حانوت خمار في الخيرة ... وكافأته بأن وعدته أن تحتال له في هند ...

وتالت الصور على قلب هند . فذكرت ليالي زواجها بعدي . فكانت لقوة
الذكرى تحس عنى لسانها حلاوة تلك القبل . وتجد على عنقها لذة ذلك العناق ، وعاد
قلبا شاباً . على أن قلب المرأة والشاعر لا يفارقهما الشباب أبداً . ومدت يدها إلى
المغيرة . تحسب أنه لما طغى عليها من الخيال ، عدي الحبيب ، فلما أحس بها أجفل منها
وانتفض . فنهاوى الحلم وتهاقت . وهبطت المسكينة إلى أرض الحقيقة الصلدة ،
فإذا هي لم تفارق أرضها . ولم تظر في سماء الأمانى وإذا هي تتحسس وجهها . فتلقاه
ذابلاً ذابواً ذا غضون . ولا تفتى على لسانها من قبل الحبيب إلا مرارة انققد . ولا
تجد في قلبها إلا ذكرى المفاجعة : التي تركت لأجلها دنياها ، وبنت ديرها .
فحبست فيه نفسها فساداً يريد منها هذا الرجل ! الذي أقنم عليها معتزلاً في هذه
العشيرة الساكنة . أجماء يعظب عجوزاً قد بنيت وحدها إرثاً من الدنيا التي بنيت
واضحلت : دنيا النعمان وكسرى . ندنيا التي يظهر أنها لن تضمحل أبداً : دنيا
محمد ؟ أيريد أن يتزوج مائة تمشي ؟ ! لا . بل هو يريد أبنه النعمان .

ونسبت تطوائفها الأليم بمرايع ماضيها ، وغاب عنها الحبيب الذي كان يراءى
ذاهن وراء حجب الزمان . وأدركها إرثها الماجد من حزم النعمان ، فقالت للمغيرة :
لو علمت أن في خصلة من جمال أو شباب رغبتك في لأجبتك ، وانكك أردت
أن تقول في المواسم . ملكك مسلكة النعمان بن المنار ونكحت أبتة . فبحق معبودك
هذا أردت ؟

(١) لانها كانت تسمى بمارية يومها.

قان : « أي والله »

قالت : « لا سبيل إليه (١) » .

* * *

وخرج المغيرة ، وعادت العجوز إلى مكابدة الذكريات وحيدة في لياليها الطول ...
وأعرض عنها التاريخ لا يلتفت إليها فيواسيها . لأنه لم يتعود الوقوف إلا على أبواب
الملك ، وفي ساحات الحروب !..



(١) جمل من التاريخ ، ونقصة على عهد الشيخ الاموي صاحب الانبار .

عَشِيَّةٌ وَصِيحَاتُهَا

هبطت ليلة الثلاثاء (١٥ رجب ٤٨٤ هـ) على قصر الملك الشاعر . وهو لا يزال على العهد به منذُ عشرين عاماً . سابحاً في النور . رافلاً في حال النعيم ، ولا يزال أهله ساديين في أفراحهم واثقين بدهرهم . مطمئنين إلى معادهم . ولم يختلفهم ما رأوا تبارحة من طلائع التاجعة ونذرهما إذ أطبقت سحبها سوداً مبرأ كبات ترتجس بالرعده . وتبجس بإبرد . وتعزف رياحها الموج العاتيات ... لأنهم كانوا على يقين من زوالها . وكانوا يرجون من بعدها صباحاً طائفاً . ضاحك الطيعة . ساجع الفير ، مزهر الروض .

كذلك عودتهم الأيام حين غمرتهم بنعمها . وأفانست عليهم متعتها . ولم تمسك عنهم خيراً يطمع فيه عاشق ولا شاعر ولا ماجد شريف . وكان تملك من نفسه أنكيرة جيش إذا افتقد الجيش . وكان عظيم الثقة بها . والاعتماد بعد الله عليها . وكان فداً قد جعلته خلانته وما ورثه الحدود . بطلاً في الأبطال . فلم تنال من حماسه هذه الأحداث التي كرت عليه فجأة بعد ما طأ أنسه بالدعة . وبعدما نام عنه الدهر فطالت نومه ، وأضفى عليه ثوب السعادة فامتدت سعادته .

وكان قد نزل به في يومه . ما لو نزل بملك غيره لطارت نفسه شعاعاً . فحار وسقط في يده . فلم يعرف له مضطرباً . أو انصدع قلبه . وانخلع فؤاده . واستسلم ، وتكن المعتمد بن عباد لم يكن ليذل ولا ليجزع . بل احتمال هذه الشدائد . صابراً عليها . معداً العدة لدفعها .

لقد تجمعت عليه في يومه بلايا ثلاث ، كانت كالحقنات في سنانة أسره انقلاب عليه حينه . تقوى أمر المؤمنين ابن تاشفين الذي اعانه على حرب الاسبان . وجعله الاخبار عنه أنه قطع المعجزات . امس بخميس العرمهم لم بعده هذه المرة للأسبان . ولم يسته يندودهم به عن الوطن الاسلامي . وانما أعده لحرب ابن عباد . وساقه عليه ليزياد به عن عرشه . ويقنعه من كرسية . ولقد أذكي ابن تاشفين حميه جنده . بأن أراهم في هذا الزحف قرية ابي الله . وأنه في سبيله . وأنه ما أراد به الا عن الإسلام . يحطم هذه العروش الصغيرة . وهذه المسالك المزورة :

ألقاب مملكة في غير موضعها كافر يحكي التفتاحاً صوتة الأسد
فقد أطبع هذا التفرق العدو . حتى أقدم على هذه الدويلات . فذلت له كنهه
وخضعت . ورضحت له بالآتاة . وكان الأعداء هم يؤدونها عن يد وهم صاغرون
وما ينبغي للمسلمين الا دولة واحدة . عليها أمير واحد . وما جزيرة (الأندلس)
الا ولاية في دولة المسلمين ...

بذلك أضرم أمير المسلمين الحماسة في صدور قواده وجنوده من البربر . فأقبلوا
يطورون المراحل شوقاً إلى حرب دنيا الذي فرق جماعة المسلمين . واضع العدو فيهم .
(بالتمد) الذي كان بالأمس الدائي صابقتهم وحاليتهم . وكان مضيتهم . وكانوا
يتغنون بما رأوا منه من عجب تكريم . وما اوتيه من بازع الخلال .

ثم أن هؤلاء الأجناد الذين كان بعث بهم أمير المسلمين ليكوثوا في تغور الأندلس
جنداً ، محتمد ومحوماً له على عتده وعلو الاسلام : الاسبان . واختارهم ... لغرض
يريده ... من فرسان المرابطين ، وأهل الشدة والنجدة فيهم ، هؤلاء الفرسان قد تركوا
بالأمس تغورهم لما بلغهم زحف أميرهم ، وأقبلوا على حرب الملك العربي التليل
يوثرونها على مواقعة الاسبان . ومروا يطحنون في طريقهم الأرباض والقرى :

(١) مضيق جبل طارق .

(٢) هذا هو معنى رضيع لا كما تستعمل اليوم .

ياخذونها أخذ الفجاءة . ويدعون المآثر العمران ويحطمون الخنان . وجابوا في
في هذه الكرة الخائرة أودية كانت تيمس بغلائل الربيع . وربما حالية بالزهر . وضباعاً
عمره ممرعة . فتركوها من ورائهم قاعاً صنفصفاً . وخطوها بلاقع . فكأنما مرت
عليها ريح سموم محرقة لا تبقى ولا تذر !

وكانت ثالثة الأثافي . هذه الثورة التي قدح زنادها ونفخ فيها دعاة الخصم المغير .
ومن شرى ضمائرهم بماله . فكادت تجعل على المعتمد دارة ملكه ناراً . ولكن الله
أمكنه منها فأطنأها قبل أن تضرى . وحكمه في مجرميها . فأبى له نيل محنته . وكرم
طبعه . إلا العفو عنهم عفو القادر المتمكن . وحباءهم حباء الجواد المحسن !

لم يحتمل الملك وقطان قصره هذه الرزايا . وعادوا منها بما عودتهم الأيام . من
غلبة الجحد وتمام السعد . وظنوها في جنب ما ألقوا من الخفض . وعرفوا من الذين
كالخال الاسود في وجه الغانية الغيداء . لا يحيي لسوده . ولكن ليتم جمال بياضه .
والخدر يعرف الصحيح قيمة صحته . وسحابة الصيف لا تغيم حتى تنشق ...
وأوى الملك إلى سريره بعدما صرم أكثر ليله . يعدّ قوته . ويقيم مسالحه . وكان
يؤسه أن يستمع في هدأة الليل إلى هذا المناف البعيد . وإلى صليل الأبواق . وهزيم
الطبول . وهو يطرز حواشي السكون في هذا الليل الساجي . انهم جنده الذين خاضوا
معه بلج القتال المر . وشاركوه جني النصر الحلو . على ابواب قرطبة دار الصيد
الأعزة من بني أمية . يوم فتحت له ابواب قرطبة . وفي (الزلاقة) يوم ساق (الأذفونش)
فيانته وجيوشه . ليمحو بزعمه الاسلام من الاندلس فمحي جيشه . ولولا المعتمد
وجنده ما هزم الأذفونش . وكان المرابطون هم أصحاب الخزيمة يوم الزلاقة ...

(1) اندعس الوليء الشديد وهو من العامة الفصيح ، وبعض الصحفيين عندنا « يفتنصحون ... »
يكتبون دهست السيارة .. باهلاء بدل العين .

وأغفى الملك وهو يداعب ذكرى ذلك الظنر . ويطوي سمعه على ضجيج جيئه
الذي يحبه ويعتز به . ويود لو أن هذا الجيش قصر عزمه وبأسه على قتال الاسبان
ولم يسيء إلى البطولة بحربه الاخيرة المسلمين... ورأى الملك في منامه كأن هذا الشهيد
المدوي الذي نام عليه قد قوي واستفاض . حتى رجعت اصلاذ اشبيلية صليله وعزيفه ،
وعظم أرعاد تلك الطبول حتى أوشك أن يهز سريره بين جدران قصره . وخالطه
صراخ وضوضاء . ففتح عينيه وأفاق مرتجفاً . وأصاخ فسرعان ما أدرك : انه العدو
قد طرق المدينة . انهم فرسان البربر الذين قلبوا له ظهور المجان ، فتحاوا عن ثغورهم
حيات الاسبان . وأقبلوا عليه اقبال الذئاب الكواسر... اولئك هم الذين كانت تؤنسه
أصواتهم ، فيطوي عليها سمعه حين أغفى .

وتلقت حوله فلم يجد إلا حرس القصر . وما كان حرس القصر رجال حرب ،
ولا فرسان ضراب . وأحس بالخبط ، ورأى أنه قد كاد ينقذ كل شيء . ولكنه
لم ينقذ الشرف ولا الشجاعة ولا النبيل :

ان يسلب القوم العدى ^(١)	ماكي وتسلمني الجموع
فانقلب بين ضلوعه	لم تسلم القلب الضالوع
لم استلب شرف الطباع أيس	لب الشرف الوفيع

ولا يزال سيفه في يده . فخرج به وما عليه الا غلالة رقيقة . لم ينهاوه حتى يابس
لأمنه ويدرع .

وأراد حرسه وأهله أن يجنبوه هذا افلاك الأكيد ، وأن يحسنوا له المواعدة حتى
تنكسر حدة انفجوم . وتمكن البادرة :

(١) يكلمه بالياء وإن كان اصله الواو مكان الكسرة التي في لونه انسان ، وقد قال الشاعر هذه القلعة
العيقرية بعد امره .

قالوا الخضوع سياسة فليبد منك لهم خضوع
وبرزت ليس سوى التمييز عن الحشا شيء دفوع

فأبت له مروءته وحيثه . ونفوس تعاف العار حتى كأنما هو الكفر يوم الروع .
أو دونه الكفر . وأبت له ذكريات النصر ومواريث الحدود ...

وألد من طعم الخضوع على فمي السم النقيع

أمن الموت يفر وقد كان يتعشقه وبطلبه ويسعى إليه ، ولا يفكر إذا خرج للقائه في
أدل ولا ولد .

ما سرت قط إلى القتال وكان من أمني الرجوع
شم الأولى أنا منهم والأصل تتبعه التمروع

ولكنه كان يريد موتاً شريفاً نقياً كالنفاة المكنونة في الحجاب ، لم تدنسها نظراته
الإثم ولم تعلق بجأها الرب ، وكان يهوى لقاءه في الملحمة الحمراء .

فيلحتمه فينمر منه ويتأبى عليه ! أما هذا الموت الذي يقبل عليه في غرفته أقبال
المص . ويلقاه في ضيق الدهاليز لا في رحب الميدان ، وفي سُدُفة الذيل لا في سفَر
النهار ، ويريد في غلالة الشاعر لا في درع البطل ، فهو لا يطلبه ولا يحبه . بل
لقد أحتمه ذلك عليه . وملاً صدره غيضاً منه ، وكرهاً له ، حتى نذر لئن واجه الموت
هذه الذيلة ليقطن الموت !

ولئن هو لم يقتل الموت ، فلقد أحيا لمملكته الحياة ، ولقد وفي نذره فرد هذه
الغاشية التي اقتحمت عليه حصنه ، على حين غفلة من أهله كما يرد الخزير الذئاب
عن غابه .

• • •

وضواً النهار إشبيلية . وهي مقسمة الشوادق بين فرج بالنصر . وجزع من الخطر . وكان جند الملك الأشاوس قد وقفوا لندفاع عنها . لا يفتنون كلما سمعوا همسة ريج . أو هدير نهر . أو صغير طائر . أو نباء خفية بين الأرض والسما . يشبون إلى سيوفهم . يتطعمون أبدأ إلى الطرق ، من فرط تشوقهم للقاء هذا الخصم المغير . الذي كان بالأمس الخيف النصر . . . فاذا لم يروا أحداً . رجعوا إلى مسالحهم . يقطن مرتقبين . وكانت الحصون حول البلد وفي أطراف المملكة . محشوداً فيها الجند من كل كسي كأن فيه من ثبانه جلمد الحنفا . وكان في أكبرها وأمنعها . شبلا ذلك الأسد . وفرعاً تلك النوحة الكريمة الباسقة ، الراضي بالله والمعتمد بالله . ولدا المعتمد بن عباد . . .

وكان عصر ذلك اليوم وأهل إشبيلية لا يزالون يتغنون بمأثرة الملك النمارس . وقد فرت بقظة الجند حين توالى الأمان . واضمأنوا إلى بعد العدو . فاستراحوا قايلاً بعد هذه الليلة الجاهدة ، في تلك الساعة صرخ النير . كما ينفخ في الصور . فتجمع العسكر المكدود على عجل ، وصدمتهم فرسان البربر . من جهة البر . ومن الوادي . صدمة تحط الصخر من ذراه ، ولكنهم وجدوا المعتمد اثبت من الصخر . وأبفظ من النصر . فارتدوا بعدما فعلوا بالمدينة فعل التزلزل واستراحت إشبيلية إياماً ، ثم جاء يوم الواقعة ! .

• • •

وفي يوم الأحد ٢٠ رجب سنة ٤٨٤ هـ ارتجت إشبيلية بأضخم جيش وطىء ثراها . جيش أمير المسلمين ابن تاشفين . الذي حشد له من غطارفة المرابطين كل بطل غشمشم يقومه ابن أخيه . كبش القوم وفارسهم . سير بن ابي بكر . وجمع له فيه من قبائل انبربر جنا مقاتلة . كأنهم من طول ما ألقوا الخيل . قد ولدوا على ظهورها . بعدة خم ضخمة وعديد . فسدوا مطنح الشمس . وحطوا على البلد حط الجراد . وطوقوه تطويق التقيد ، وانضم اليهم فرسان الثغور . ثم اطبقتوا على ابن عباد كاسيل الأتي الدفغ . . .

أثار المعتمد في نفوس جنده حميتهم وكبرياءهم . وأنشدهم أبرع أناشيد البطولة . ولون لهم الموت بأجمل الألوان . وعرض عليهم تحاسين المجد وتهاويله ، فثبتوا وجأؤوا من فنون القتال بأعجبها وأشرفها . وناضل الملك البطل حتى لم يبق مناضل ، وضارب حتى تحطمت في يده السيوف . ودافع حتى استفذ آخر نقطة من القوة البشرية التي أودعها الله فيه . ثم سقط مغسلا بدماء جراحه ، وتحطم السد فانطلق السيل ... ولفضت قصور الملك عن غيدها وكنوزها ، فعادت أطلالا ... وهوى الصرح الذي أقامه من النبل والخزم والكرم الغر البهاليل بنو عباد .

إن البطل الحق لا يستهويه الظفر حتى يستخفه ، ولا تعزه المزيمة حتى تسحقه ، بل يتقاهما بعزم وجلد وفؤاد ثابت . وكذلك فعل المعتمد فلم تذك نفسه ، ولم يضرع ، ولم ينتهت . بل تلقى قضاء الله تلقى المؤمن ... وكتب إلى ولديه يستتر لهما من حصنهما ، حين تفسره الغالبون فلم يجد الا ذاك . وكتبت السيدة الكبرى أمهما ، وكانا في حصنين أمنع من النجم . تهاوت الحصون وهما ثابتان ... ولكن ماذا ينفع حصنان ، وقد باد المنك . وماد العرش . وساد المرابطون ...

فلمنا أطاعا ونزلا قتل الراضي على باب حصنه ، واستصنى مال أخيه وترك على شر حال . ثم اقتيد المعتمد وأهله مجردين من الأموال ، مقيدين بالقيود الثقيل ، ليقتروا ما تقدر عليهم في صحراء المغرب .

كان إذا خرج موكب المعتمد أطلت عليه كل فتاة في حمص^(١) يخرتن صورته لتزين بها أجمل روأها ، واحلى احلامها . وتطلع اليه كل شاب ينقش رسمه على شفاف قلبه ليجمعاه مثلا له في المعالي . وملا عينه منه كل اندلسي . لأنهم كانوا يحسون انه

(١) حمص المغرب هي بتبغية وتدعى الجنة .

عز لهم وفخر ، وانه حبيب إلى قلب كل اندلسي ، وإن عاد مظفراً قاموا على طريقه
يرشقونه بأجمل أزهار الجنة .

أما اليوم فقد خرجوا بغير ورد ولا زهر . خرجوا وما اعدوا الا عيوناً تبكي
لو استطاعت بدل الدمع دماً . وقلوباً تغديه بحباتها لو كان يمكن النداء . وجرى النهر
ذلك اليوم متظاناً خافت الحرير ، لا يصخب ولا يهدر ، كأنه هو الآخر قد احس
بالألم :

والناس قد ملأوا العبرين واعتبروا من لؤلؤ طافيات فوق ازبـاد

وكانوا ساكتين قد عقدت الذهبه ألسنتهم . وامسكت الأحزان وسيوف المرابطين
أفواههم ، حتى الأطفال لم يكن فيهم من يبكي أو يصرخ . حتى اذا قدمت بنات
الملك الأسير يجرحهم جند من البرابرة جرّ الشياه إلى المسلخ وقد :

حط القناع فلم تستر مخدرة ومزقت اوجه تمزيق ابـراد

أوجه تزري بالأقمار ، وأجسام ألطف من الياسمين الغض . وأرق من شعاع البدر
على البحيرة الصافية في ليلة غرام . ثم طلع الملك لا تاج على رأسه ، ولا سيف في يده ،
ولا لواء يخفق على هامته ، ولا جند من حوله يفقدونه بالأرواح ، ويبدلون دونه حر
الدماء ؛ بل حوله جند من البربر ، وفي يديه قيود ثقال ؛ وما عليه الا أطمار — تفجرت
الأحزان مدامع ، وانشقت القلوب صرخات . وتحركوا لنصرة الملك . ولكن البربر
كانوا خلاصهم ومن فوقهم ومن تحتهم ...

حان الوداع فضجت كل صارخة وصارخ من مفداة ومن فـادي
ووضعوا الملك في السفينة ، ومن حوله نساؤه وبناته مقرونات بالحبال ، مطرقات
كاسرات الطرف تلوح قطرات دموعهن في ضياء الشمس كالآلي :

حموا حريمهم حتى اذا غلبوا سيقوا على نسق في حبل مقـاد

ورفع الملك رأسه ونظر إلى جنده ، وانتزع من آلامه ابتسامة لاحت على شفّيته كما
تلوح خيوط الشمس لحظة ، خلال السحاب ، في يوم غائم ، وحاول أن يقول فصاع
صوته في عويل الناس ، وصخب البربر ، وأراد أن يشير بيده التي ظالما هز بها أعواد
منبر ، وظالما أشار بها إلى ظفر ، فحركت اليه الكتاب السود ، وظالما أغنى بها فقيرآ ،
وفك أسيراً ، وأجاز شاعراً ، وفعل بها المكرمات ، أراد أن يشير بها فأنقلها حديد
القيود ، فأحى رأسه وأطرق و ...

سارت سفائنهم والنوح يتبعها كأنها إبل يحدو بها الحادي

• • •

وعاد الناس إلى بيوتهم وما يصدقون أنهم فقدوا المعتمد بن عباد ... أم شية
وضحاها مايطمس كتاب كله مجد وكرم . ألف في عشرين سنة ؟ ألم يعد يطبخ فيهم
موكب الشاعر الذي يغني للحياة أجمل أغانيها ، ولا الفارس الذي ينظم للبطولة أروع
أناشيدها . إنهم لا يستطيعون ان يصدقوا ، فهرعوا إلى تلك القصور ، التي ارتضاها
لسكناه المجد ، واختارها الفن وأقام فيها النبل . فلما بلغوا أسوارها لاحت لهم من
بعيد كأنها لا تزال عامرة بالملك الهمام . فلما اقتربوا منها لم يصفح أسماعهم صوت
شاعر بنشيد ، ولا قائد بنداء ، ولم تأخذ أبصارهم علماً يخفق ، ولا راية ترفرف ،
ثم بدت لهم الرياض ، وقد جف نبتها . وصوح زهرها ، والدور قد هدمت جدرانها
وهدت أركانها . واذا القصر الذي كان يعبق بريا القرنفل ، وشذا القل ، تفوح منه
روائح الموت . واذا تلك الغرف والمقاصير التي كانت تسطع فيها الاضواء ، فترقص
أشعتها على العمد المزخرف ، والأساطين المنقوشة ، قد محي نقشها ، وطمس زخرفها ،
وعشش فيها البلى ... هناك علموا أنها قد وقعت الواقعة و كان ما قدر الله أن يكون :

عربنة دخلتها النائبات على اسأود لهم فيها وآساد
وكعبة كانت الآمال تعمرها فاليوم لا عاكف فيها ولا بسادي

فمن لعنة اعمهم جدواه ؟ من لجبران تحميتهم بواتره وتحبيهم عطاياه ؟ من
للفرسان الغطاريين يقودهم إلى النصر ، حين يخفى على الدليل سبيل النصر ؟
لقد ذهب من كان ضم ... فيا من يقصد الملك الشاعر . إنه لم يبق هنا ملك ، إنها
قد خلت منه داره ، وبعد مزاره :

يا ضيف . اقتر بيت المكرمات فخذ
ويا مؤمل واديتهم ليسكنه
وانت يا فارس الخيل التي جعلت
أنتي السلاح واخلت المشرفي فتعد
في ضم رحلتك واجمع فضلة الزاد
نحف التطين وجف الزرع في الوادي
تختل في عدد منها واعداد
اصبحت في لغوات الضيغم العادي

ضلت سبيل الندى يا ابن السبيل فسر
لغير قصد فما يهديك من هادي
كانت ذهب الملك الشاعر البطل الذي كان في ملوكيته وفنه ونبله . تمثالا للانسان
الذي كانت تمنى كل حامل في الأندلس أن تنده . وكل ناشيء متطلع إلى العلا
أن يكونه .

الملك . الذي كان زمانه كله فجراً رخياً ناعماً . وأيامه كلها ربيعاً بهياً باسماء
الشاعر . الذي كان شعره لحن كل قاب مدله بالجمال . مفتون بالثن .
البطل . الذي بنى لقومه مفاخر في السناء وماثر .
وكانت التقى الستار (بين عشية وضحاها) على ملحمة فخمة فيها أجمل مشاهد
الهوى والشباب ، والبطولة والظفر . والسماحة والكرم . والشعر والطرب . والغنى
والترف . ورفع عن مأساة من أفجع المآسي التي (عرضت) على مسرح هذا الكون !!

(١) ولعل الله ولهم هذا القدر الضعيف حديث المأساة ليكتبه للقراء .

هجرة معلم

يرى كل من يعبر البادية من شرقها إلى غربها (إذا هو قارب الساحل) سلسلة طويلة من الجبال تتوحد له . من مسيرة أيام . زرقاء كأنها معلقة فوق الأفق . أو غارقة في السماء . ولكن هذه الجبال تضح كلما دنا منها وتستبين . حتى إذا بلغها ألقاها بناء عظيماً من الصخر الأصم . إذا حاول أن يتقصى بنظره أعاليه سقط عقله عن رأسه ولم ير شيئاً . لأن أعاليه غائبة وسط السحاب المتراكم . فيتمتر في وهمه إنما هو جدار قائم يمسك السماء أن تقع على الأرض . ويقف حياله ، نحاشاً خاضعاً شاعراً بالمدلة واخوان ...

هذه هي السلسلة الخائفة التي تخرج من الجنوب (من البحر) ثم تضطجع على الرمال بصخورها وجلاميدها . وأوديتها التي لا قرار لها ، وذراها التي ليس لها عدد . وسفوحها التي يضل فيها الخدى . وثناياها التي تموت فيها الحياة . وصمتها المهيول . وجلالها الخالد ... تضطجع متمددة بهذا الجسم الأزلي الجبار . حتى تصاقب الشام وتبلغ مشارفه . فتهدط سفوحها مترفقة سهلة متتالية حتى تفتنى في تلك السهول الخضراء .

إذا قدر لك أن تتوغل في هذه الأودية العميقة الموحشة ، ثم تتساق هذه الجبال ترتقي من ذروة إلى ذروة حتى تبلغ تلك القنن الشامخة التي لا يعلوها شيء ، رأيت فيها طوداً باذخاً قد شهق واستطال في السماء ، واستعرض حتى ضاعت جوانبه في هذه

الجبال التي تشعب من حوله صاعدة منحدره في تسلق واتساق . كأنها الأمواج العظيمة في البحر الهائج الغضوب . لولا أن ماءها الرمل والحصى وجلد الصخر . وإن عمر الموج ساعة وأنها من لدات الدهر ... كما ضاعت أعاليه في الغمام المسخر بين السماء والأرض . على ضهر^(١) هذا الطود . فوق قلعة من تلك القلعات الراسيات . كانت ترقد القرية بيوتها ودروبها وبياتينها . متوارية مخبئة ضالة في فلات السماء . تشرف على الأرض من فوق السحاب فلا ترى منها إلا خيالك هذه الصحاري الواسعة . يندر من بعيد موسى بالرمال الخائدة المتسعة الملتهبة . والسراب الذي يظل أبداً لامعاً خادعاً كأنه الحياة الدنيا ...

هذه المسخورة وهذه الأودية وهذه الصحراء ... هي عند أهل هذه القرية الوجود كله !

في طرف من أطراف هذه القرية كان يجثم بيت صغير منفرد قائم على شفير الوادي ... إذا أنت دخلته لم تجد فيه إلا طائفة من الأولاد . يجلسون على حصير . قد مات وفتي . وتقطعت أوصاله . من قبل أن يولدوا ... وشاباً على حشية قد طعنها الزمان . فنثر أحشاءها . والسحاب غمض الأهاب لين العود . حديث السن . ولكن نظرة واحدة إلى عينيه تريك أنه قوي الإرادة . ماضي العزيمة . وأن له وقار شيخ في السبعين من عمره ...

ويبد السحاب عصا طويلة . يشر بها . ويهزها فوق رؤوس الصبية . وينال بها من أبنائهم . على حين يجيل فيهم نظرات مشتعلة . يتطاير منها الشرر الأحمر . تلذع أفئدتهم كلذع العصا أجسامهم ...

تلك هي مدرسة القرية . وهؤلاء هم تلاميذها . أما الاساتيد فعقيل صاحب المدرسة ، وزميله الشاب : كليب !

(١) الضهر (بانضاد) أعلى الجبل ومنه (ظهور الشور) من سواحل الشام .

و كانت أمية طليقة . أراق عليها الربيع بهاءه ورواهه . فصرف كليب التلاميذ .
 ووقف على باب المدرسة — على عادته في كل مساء — ينظر اليهم وهم يتفنون من
 غبتها . مفاريج . بالنجاة من المعنم وعصاه الطويلة . وسحته المنكفة المقلوبة أبدأ .
 مفاريج . يضحكون للحرية والجمال والانطلاق . يعدون إلى القرية عدواً ... حتى اذا
 غيبتهم هذه الجدران في أطوائها . ولم يبق منهم في الرحبة أحد . وسكنت الحركة
 فيها . وسكنت الضوضاء التي انبعثت من أفواههم الصغيرة . وحناجرهم الدقيقة
 الرنانة... زفر كليب (المعلم الشاب) زفرة أليمة اقتلعها من أعماق صدره . وألقى
 عصاه . وولى وجهه شطر الصحاري البعيدة . يفتش فيها عن الطريق إلى أميته التي
 طالما جاشت في نفسه ، وعاودته . وكرت عليه . حتى أمست له فكرة لازمة^{١١} و...
 لا يعرف غيرها . ولا يفكر الا فيها . ولا يعيش الا لتحقيقها . وظالما حلم في يومه
 وفي يقظته انه قد بلغ أميته . فتعم بها . ومرح في جناتها . ولكن الحلم يتصرم ،
 وتعود الحقيقة الواقعة . بوجهها الكالح القبيح . فيرى انه لم يصل إلى شيء .

ولى وجهه شطر الصحاري . ولكنه لم ينظر اليها . وإنما جاز به خيانه فيا فيها المهلكة ،
 وقفارها الواسعة . إلى تلك البلاد التي يسمع عنها . ويتستط أحاديثها . ويحمل فاء في
 نفسه أجمل صورة تنفرج عنها مخيلة شاعر ملهم ، أو مصور فنان^{١٢} . إلى البلاد التي
 يعرش فيها الياسمين . وينمو الآس . ويزهر التفاح والفرجل . وتسيل الينابيع
 منحدرة من أعالي الجبال الشجراء ... فوقف يحتم بالوصول اليها . ويتأمل صورتها
 التي صنعها خيانه . وأقامها أمام عينيه . خاشعاً خشوع العابد في محرابه . مشوقاً
 شوق المحب المتيم إلى صاحبه . مستغرقاً استغراق الصوفي في مراقبته . والحالم في
 أحلامه . لا يحس مما حوله شيئاً !

وظل واقفاً شاخصاً إلى الأفق . غارقاً في تأملاته . حتى لاح على الأفق من ناحية

(١) idée fixe

(٢) ما في استعمال هذه الكلمة بأسر ولو كره المتحدثون .

المشرق مراد خفيف ، لم يلبث أن اشتد حتى شمل الصحاري النائية . ثم امتد حتى عم
القفر كله ، ثم تسلق السفوح حتى غمر القمم الواضية . ثم وصل إلى الذرى العالية فلغها
هي والقرية في ثوبه القاتم ، وأحال النكون كله كثبة من الظلام ... عند ذلك
انتبه كليب ، وأفاق من ذهلته ، فذهب إلى منزله خائباً . يجر رجله جراً . وبات
أرقاً مسهداً ، ينتظر انبلاج الفجر . ليحمل عصاه ويعود إلى صيانه ...

• • •

لم يكن كليب جاهلاً ولا عمقاً . وإنما كان أديباً أريباً فطناً ذكياً . من أبلغ الناس
لساناً ، وأجرئهم جناناً . وكان من أحفظهم لكتاب الله ، وأبصرهم بالشعر . وكان
فتى بادي الفتوة ، قوياً ظاهر القوة . لا يعرف النهو . ولا يحبل إلى التعب . ولكنه
يعرف الجدل في أموره كلها . ويحب النظام . ويميل إلى الصدق . ويأخذ نلامه
وأصحابه بشيء من القسوة أحياناً . والذين حيناً ، وكان يجنح إلى الحزم . ولو اضطره
الحزم إلى كثير من الشدة والصرامة ، ولم يكن يؤخذ عليه إلا هذه الأمنية .
التي كانت تخرج به في كثير من أيامه عن الوقار والحزم . وتدنو به أحياناً من اليأس
والضعف ، وتعرضه على عيون الناس خفيفاً طياشاً . وهو الرزين الوقور . وتأتي
الخلاف بينه وبين شريكه وزميله عقيل ، الذي كان أعرق منه في الصناعة . وأعلى في
السن ، وأكثر اختباراً للحياة ، وإن كان دونه في مضاء عزيمته . وقوة شخصيته .
حتى لقد اضطر عقيل إلى لومه مرراً . وحاول مرة أن يسخر من هذه الخماقة التي
ملأت رأسه ، وأن يصرفه عنها ، وأن ينتزع من نفسه الرغبة في الإمارة والسلطان ...
فكان يستمع إليه ساكناً جامداً كالصحراء ... فتجف الكلمات على شفمي عقيل ،
ولا يجد ما يقوله فيصمت هو أيضاً ويعاودان العمل .

وكثيراً ما كانت تطفئ على كليب أحلامه ، فتغلب عليه ، وتستأثر به ، فينسى
حاضره الواقع ، ويعيش في مستقبله المأمول . فيحس كأنه في دست الملك ، لا على

حشية المعلم ، وأن أمامه الخاشية والاعوان . لا الأولاد والصبيان . فيرفع صوته آمراً
 ناهياً . ويستغرق في أمره ونهيه . ويعجب التلاميذ . وتتحرك في نفوسهم طبائعهم
 العابثة . فتسبق التهتهات إلى شفاههم . ثم تجمد عندها يرددها خوفاً منهم من هذا المعلم
 العابس . وخشيتهم إياه . ثم تغلبهم طبائعهم فينفجرون ضاحكين صائحين ... فيتنبه
 المعلم الشاب فيلسون . ويزعق فيهم فيسكتون . ويتكرر ذلك . ويقصه الأولاد على
 آباءهم وأهلهم . فيكذبونه بأدي الرأي . ثم يصدقونه ثم يشيعونه في البلاد . فيصبح
 ملء الأفواه والأسماع أن كديباً المعلم الشاب قد أصابه ضائف من الجن . فيأسفون
 ويحزنون لما عرفوا ذمة من البلاغة . وما آتسوا فيه من الرجولة والخزم . ولكنهم
 لا يهجون . وهل يعجب الناس من معلم زجن ؟

لما يعجب الناس من المعلم إذا بقي عقلاً وهو يعاشر أهدأ هؤلاء التلاميذ ...

وفي ذات صباح . تحمد تلاميذ على مدرستهم . فلم يجدوا معلمهم الشاب . وكان
 دأبه أن يسبقهم . فانتظروه فلم يحضروا . فذهبوا يظنونه في بيته . فعلموا أنه باع بيته
 ليلاً وقبض ثمنه فنتشر عنه في كل مكان . يظنون أنه يأوي إليه ..
 فتشروا في كل زقاق من أزقة القرية . وفي كل ذروة من هذه القرية تربية منها . وكل
 صخرة من هذه الصخور القائمة من حوطا . فلم يجدوا له أثراً !
 وما راح الرعاة في المساء سألوهم عنه . فتأبوا : لقد رأيناه منذ الصباح ونحن
 وحده . يقفز من حجر إلى حجر . فحينئذ فلم يرد علينا تحيئنا . لأنه كان ذا قدرة
 قد تعلق بصره بالأفق النائي ... ونظن أنه سار يومه كله . وإن تداركوه أهدأ لأنكم
 لا تدرن أي سبيل سلك !

فاسترجع أهل القرية . واستعبروا أسفاً على أن جبن هذا المعلم الشاب . وأيقنوا أنه
 سيموت في هذه الهادية وحيداً شرباً .

سار كليب يومين كاملين ، على غير ما طريق مسلوك ، أو جادة واضحة ، يتنفي
للمنازل والمنحدرات . تسلمه كل ذروة إلى التي تحتها . وكان سنج إلى الذي يليه ،
لا يحس تعباً ولا يخشى أذى . لأن آماله قد ملأته شجاعة وصبراً . ثم أنه كان في أول
نظريته . فهو لا يزال نشيطاً قوياً ، ولا يزال زاده كاملاً . ثم ان الحر لم يكن قد غمر
هذه الجبال . وهي بعد في أواسط الربيع . فلما بلغ انصحراء -- والصحراء لا تعرف .
إذا تسمرت شمسها ، وحميت رمالها ، ربيعاً ولا خريفاً ، ولما أوغل فيها . واحتواه
جرفها . فزهد ما حمل من الزاد ، والتهدت شمس الضحى التهباً . وعلى الهواء غلياناً .
جفت هذه الشمس أحلامه اللدنية ، وأحالتها بخاراً ، وطيرت أمانيه من رأسه .
ووضعت عقله في جلده ومعدته . فواجه الحقيقة الواقعة : فإذا انصحراء الرحبية
الرهيبية تضيق به ، وإذا هو يرى حيثما تلفت شبح الموت المروع . بعدائه البادية وفكته
المرعبين . ووجهه التارغة . يتراءى له على الأفق البعيد . يرقب أن يعانقه قبل أن
يصل إليه . ويمثل ذلك في خاطره . فيشعر ببرودة هذه العظام البادية تسري في جسمه ،
ويتسورها ملتفة حول عنقه . فيحس بالتشعريرة تمشي في أعضائه . فيغض بصره عن
الأفق فيترامى له الشبح في هذه الرمال . ويخيل لنفسه انها ليست الا قبراً مفتوحاً .
فيكاد الخوف من الموت يهوي به ويتصنف ركبية . فيرفع نظره عن الأرض . فيترامى
له الشبح في هذه الشمس ، التي تسكب عليه وعلى البادية ودهج جهنم . فيغض عينيه .
فيترامى له الشبح في الجرع الذي يانب أمعاه وانعطش الذي يحرق جوفه . وانضلال
الذي يسأ يرد ، وغده .. ثم يزول النيران . ويشد أوار الشمس . ويبلغ ذبيبتها قرارة
دماغه . فينسى الجرع وانعطش : ولا يتنفي الا شراً من ظن . فيعدو كالمجنون ههنا
وههنا . والصحراء مبسوطة كالكتف ليس فيها غار يأوي اليه . ولا صخرة يستظل
بها . ولا بشر يلجأ اليهم . ولا شجرة يستلج بها . فينبش في الرمال بيديه وأظفاره
ليجد في بعض الأرض رطوبة يدس فيها أنفه . ليربح رائحة الحياة . ويوالي النباش
بجنون ثم يطمر رأسه في الرمال ، فلا يزيد على أن يلدن نفسه حياً في رماد حار . فيجنمو
الرمل . وينطلق يعدو حتى ينقطع ويعلوه البهر ، ويحس بأنه سيختنق ، فيقبل

من ضيقه يأنس وجهه بكفيه . ويتف شعره بيديه ... ويلعن المجد والسلطان . ويلعن هذه الصحراء . ويلعن نفسه حين استجاب هذه الحماقة . فحذف الصحراء وألقى بنفسه في جوفها المتهيب ...

يندم أشد الندامة . ويتمنى لو وجد إلى العودة سبيلاً . وهيهات أن يجسد إلى العودة من سبيل ، لأن بينه وبين القرية هذه الجبال التي لا آخر لها . وهذه الصحراء وهذه الأودية . فإذا قطعها واستطاع أن يعرف طريقه بين آلاف التلال المشابهة . وآلاف الصخور المتشاككة . لم يعرف طريق النجاة من سخرية قومه . وهزه صيانه . وهو ما لا يظنّه أبداً . ولا يصبر عليه . ويرى الموت أخف منه حساباً ، وأحل مذاقاً ..

وراح يذكر تلاميذه الصغار : وطاعتهم إياه . وحبهم له . ويذكر بغضائهم وعصيانهم . ويذكر براءتهم وسذاجتهم . وخبثهم وشيظتهم . ويذكر نيتهم . ويذكر قسوتهم . فإذا هو يشعر بالحب لهم . ويفغره هذا الحب . ويكون قلبه برداً وسلاماً . ولعده رياً وشعباً . وأروحه حياة . وينظر بعين الحب إلى قريته . ويعرضها كلها بظرفها وبيوتها وبساتينها . وهذه المعابر التي ساكها مرات لا يحصيها عد ، ويرى داره ويبرص كل حجر فيها . وكل زاوية منها .. ثم ينظر إلى هذه الصحراء المترامية حوله ، فإذا بها قد ابتاعت هذا الحب وجفنته . وحياة الحب قصيرة المدى .. وإذا به يحس بالألم ، ويشم من حوله رائحة الموت ، ويرى نفسه نبتة اجتثت من الأرض وقطعت جذورها . ثم ألقبت على هذه الرمال التي يشوى عليها اللحم^(١) لتجف وتعود حطبة يابسة ، بعد اذ هي غصن مورق فينان ، ويخيل إليه أنه فقد حياته كلها ، حين فقد بلده وأهله وسعادته ، فيلقي نظره على هذه الجبال التي خلقها منذ يومين فإذا

(١) لا على المجاز بل الحقيقة التي رأيناها في بوادي الحجاز رأى العين في رحلتنا التي كلفنا فيها طريق سياره من دمشق إلى مكة سنة ١٩٣٥ وكانت سيارتنا أول سيارة سلكت هذه البادية من يوم خلقها الله .

هي بعيدة ، بعيدة جداً تبدو له خلال السراب اللامع ، كأنها صورة الأمل المنير ،
لا تكاد تظهر ... فيسترجع نظراته اليائسة ، مغسولة بدموع الندم ، ويوغل في جحيم
الصحراء ، تائها ، يائساً . يمشي إلى الموت !

~ ~ ~

حتى إذا أظلمت الشمس ، ثم ضمفت وشحب لونها ، ثم أسامت الروح . فلبس
الكون كله الحداد ، ثم برد الرمل ، واستحال إلى فراش لين جميل . ولاحت في
السماء النجوم واضحة قوية .. شعر المعلم الشاب بالراحة . فاستلقى على قفاه . ينتفس
الصعداء من هول هذا اليوم ... ويتأمل النجوم ... ويبصر امتداد الأرض والسماء من
حوله ، فيعجب من جمال الصحراء وبهائها . ويتشي بنسيمها الرخي الشاعش .
وسكونها الشاهل ، وجلالها المهيب ، ولا يستطيع أن يتصور كيف كان هذا العالم
الجميل الفتان . يموج قبل ساعات بأشباح الموت . وتهاويل العذاب !

ورجع الليل إلى الفتى المعلم حماسة ونشاطه . وأترع نفسه قوة وحياء . فرأى
أمله الذي بتخرته شمس تضحي . قد عاد رطباً ندياً . فجلس وحييداً بين هذه المخاوف
العظيمة : النجوم والنساء والليل والصحراء . يناجي أمانيه . ويرسم طريقه إليها ...
وكان الليل ساكناً هذا السكون العميق . الذي لا تعرفه المدن . ولا تدريه القرى . ولا
يقدر عليه البحر . وإنما تعرفه الصحراء العظيمة بصمتها وضجيجها . وقوتها واينها .
فراقه هذا السكون . وملك عليه ليله . فأصغى إليه إصغاء شديداً . فكان يسمع فيه
نشيداً سرمدياً متصلاً : له من الروعة في القلب . والأثر في النفس . ما لا يكون مثله
لهذه الموسيقى المتكلمة الهزينة الصاخبة الضاوية ، التي تخرج من أفواه ضيقة :
أو آلات حثيرة جامدة . وإن هي عظمت فإنما مخرجها أغصان الدوح الذي يرتل ترتيلة
العاصفة ، أو السحاب التي يغني أغنية الرعد ، أو البركان الذي يزار زئير الموت ..

أما الصمت فهو نشيد الصحراء الخالد ، وأغنية الوجود كله !

غير أن هذا الصمت ينقطع فجأة . ويحمل نسيم الليل الخاديء إلى أذن المعلم

الشاب صدى أصوات بعيدة وعميقة . كأنها خارجة من أجواف انغيران . أو من بطون
 القبور .. فلم يدر أهي من صنع الواقع . أم هي من تزوير الخيال .. ولم يحتملها . لولا أن
 التميم حملها إليه ككرة أخرى . وهي أقوى وأشد وضوحاً . ثم تبين فيها حذاء حلواً .
 فتخيل القافلة . وهي تضرب في الرمل الناعم البارد . والابل . وقد راقها هذا الحذاء ،
 فمدت أعناقها . وأوسعت خطوها . وهي طربة سكرى بخمرة الألمان . ولمس
 الترحج يأتيه من حيث تأتي القافلة . وأرهف أذنيه . يتسمع هذا الصوت الذي يدنو
 أبداً . يحمل إليه الأمل والسعادة . فاذا بالصوت يتخافت ثم يضمحل . وهو أشد ما
 يكون طرباً به وسروراً . ويسيطر على البادية هذا الصمت العميق . فيألم المعلم الشاب
 ويحس بالحياة تحز في قلبه . ويضيق بهذا الصمت الذي كان ينعم به منذ لحظات ،
 وتعتقد السحب فتحجب عن عينيه هذه النجوم المتلألئة . أو يخيل إليه أنها حجبت
 عنه . فيدور ببصره . فلا يرى إلا مخثوقاً واحداً هائلاً يحن به من كل مكان فيحس
 بالرعب . وتثقل عليه هذه الوحدة الموحشة تحت ظلمات ثلاث : ظلمة الليل . وظلمة
 الصمت . وظلمة الحية .. ويهم بالتصريح . ولكنه يقر ويسكن . حين يرى هذه
 النجوم قد ظهرت دانية قريبة . كأنما هي قد استقرت على الأرض . على قيد ذراعين منه .
 تتراقص على ظهر اللجة السوداء . تحاول أن تخترق حجب الظلام بأشعتها الكافية
 الكيلة . وما ينشك يحدث فيها . تختلط أفكاره في رأسه . ويحس بأنه قد هوى في
 واد مظلم سحيق .. ثم لا يحس بعد ذلك شيئاً . لأن النوم قد غلب عليه وهو في مكانه !
 ويشعر المعلم الشاب بيد قوية تهزه هزاً فتدفع كل شعرة في جسمه . وينشق مذعوراً
 يظن أن الجن تداعبه وتوقظه . فيضغط جفنيه ضغطاً شديداً . ويسر وجهه بكفيه ،
 ولكن هذه اليد تقبض على كفيه . فتترهما نراً . وتخالط أذنه أصوات عجيبة . ونعظ ،
 وضوضاء . فلا يشك في أنها أصوات الجن . ويفتح عينيه مضطرباً فاذا هو مسحور ،
 قد بلغ منه السحر أن حجب عن عينيه هذه الظلمة الثقيلة التي كان يغيب في أثنائها ،
 وضمن أضواء القافلة الكافية التي كانت تتراقص أمام عينيه . وبدل كل شيء في

لحظة واحدة ... فاذا الدنيا ممتلئة اشراقاً وضياءً، وإذا هو قد انقل من الصحراء ،
الجرداء إلى دنيا تمور بالأحياء ، وتموج بالناس ، فيبانغ في فتح عينيه ، وقد كاد يجن
لفرط الدهشة ... ولا يشك أن هؤلاء الذين يرى طائفة من الجن ... ثم يعود اليه وعيه ،
ويصحو من نومه . فيتأو قول الله تعالى (يراكم هو وقيبله من حيث لا ترونهم) ،
فيعلم أن ليس هؤلاء جنأً ، لأن الجن لا يمكن أن يراهم بشر . ولكنه لا يزال
على شكه . أين هو ؟ وما هذا الذي يرى ؟ فيقول لمن كان يوقظه :

-- أسألك بالذي تحلف به . إلا ما أخبرني أين أنا ؟

— أين أنت ؟ أنت في هذه البادية !

— في هذه البادية ؟! وما هذا ...

— ويلك يا رجل لقد حبست الثقافة

-- استوي شربة ماء

فيمضي الرجل ليأتيه بلاء ، ويحدث كليب نفسه :

— إذن ، فأنا قد نمت إلى الصباح

— خذ واشرب ...

— الحمد لله ! أشكركم

— لقد حبست الثقافة

— وماذا تريدون مني ؟

— نريد أن نعرف من أنت ... إنا لنظنك عيناً للعدو فمن أين أتيت ؟

— أتيت من أعالي هذه الجبال . أريد الشام ، فضلت ونقد زادي ، وصبرت

دماغى شمس الأمس . فعدت أركض على غير هدى حتى انتهيت إلى هذا المكان ...

ولست عدواً لأحد

— وما اسمك ؟

اسمي كليب ، من آل وأبي عقيل ... وأريد الشام . فهل تمدون علي فتحمواوني معكم؟

هذه هي دراهمي !

ويقرغ كيسه على الرمل ، فتتكوم الدراهم والدنانير ، تنعكس عليها أشعة الشمس
فيخطف برقتها البصر :

— وفر عينك دراهمك - إنا لا نرزوك شيئاً ، أنت في حمى هذا السيد - فأركب
جملك راشداً .

ويطغى الفرح على نفس المعلم الشاب ، حين يقدمون إليه هذا الجمل القوي البازل .
وينسبه ان يسأل عن هذا السيد الذي أصبح في حماه ، وأن يشكره . ويعاود من الجمل
بيراعة الأعرابي ، وخفة الشاب الجلي ، ويسير به الجمل - وهو يقاب بصره في هذه
الثقافة العظيمة . فلا يستطيع أن يدرك به آخرها . أو يحيط بها ، ويأخذ العجب حين
يرى من حوله مدينة كاملة ، برجاذا ونسائها وبيوتها وحاجاتها وجندها وحماتها .
تنتقل تحت عين الشمس ...

ثم يشرع الخادي باغنيته فيصفي إليها كليب حاملاً مأخوذاً .

• • •

طوت الثقافة الفجوات ، تتجنب الطرق المساوكة . وتندى عن القرى القوية . القامة
في الصحراء بين دمشق ويثرب . لئلا تجد فيها ما تخشاه في هذه الأيام المضطربة
الحادة بالثورات والحروب ... وكان أصحابها دائبين يتزلون النهار إلا أقله . وبمشون
أكثر الميل وجانباً من النهار . يتجنبون حر الهادية ، وودج الشمس . حتى رأوا (بصرى)
تلوح لهم في اليوم السادس عشر . يبسم طيفها خلال أشعة الظل . فوثبت إليها قلوبهم .
وظارت أمانيهم ، وجدت الثقافة المسير ، دأب المسافر اذا دنا من بلاد ، أو شارف غاية .
وكان المعلم انشاب أشدهم طرباً وفرحاً . فطلق يحدق في هذا الطريف ، ويتأمل هذه
الرمال ، يستمتع بأحلامه البهيجة الحبية ، فيرى الرمال اذ تمتد في اتزان عجيب . من
من قلب الجزيرة إلى أسوار (بصرى) يحملها هذا التيار المنبثق من قلب بلاد العرب .
فيصبا في أرض الشام فتغمرها بروح الجزيرة ، وتعلمها معاني الرمل ، ومن معاني

الرمل أن تكون الأمة مجتمعة كالرمل . كثيرة كالرمل . خائدة كالرمل . صابرة كالرمل ...

ويغم طيف المدينة ويضام ثم يختفي في شيائين . ولكن معهم الشباب لا يزال ممعناً في التحديق . قد نسي القافلة . وغفل عن الزمان . فلم يبصر اختلاف المدينة . وإنما كان يبصر أحلام الجزيرة . التي استهوته حتى استسلم أيها . ووضع في يدها قياده . فساقته إلى عالم ناء . لا يدرك العقل قرارته . ولا يبلغ غوره . عالم يفيض بالفتون والجمال والسحر . فظل يستمتع بفتونه وجماله أمداً طويلاً ... ثم قادته الذكرى إلى ماضي الجزيرة . فإذا هو يراها ممحاة مجدبة . قد تعرت من الخضرة . كما تعرت من الخضرة . وغاضت فيها ينابيع الماء . كما غاضت ينابيع العلم ... ثم يرى رجلين يسيران من (أم القرى) إلى تلك (المدينة) النائمة بين الحرتين فنبت الزهر تحت أقدامهما . وتخضر الرمال التي يطؤونها . وتكتسي البادية من حولهما أثواب الحياة . ويرى هذا الرجل يستق في تلك (المدينة) فيبعث من بين حرتيها صيحته القوية . فيوقظ النيام . ويحيي الحماد . ويبعث في النفوس الفضائل والامجاد . فإذا الجزيرة برملها وصخرها . وشمسها المحرقة . وجبالها الصلدة . تسير وراء محمد (أعظم إنسان . وأفضل نبي) لتحمل الحياة إلى سهول الشام والعراق .. يا عجباً ! يا عجباً .. الصحراء القاحلة . تمنح الحياة للسهول والبساتين ؟!

رأى الجزيرة تمشي وراء محمد (ﷺ) لتكون موقد المعركة الحمراء . التي أكلت الظلم والرديلة والطغيان ... ثم تمشي مرة ثانية لتكون رماداً بذور الأزاهير والأشجار . في السهول الخضراء ... ثم تمشي مرة ثالثة لتكون قرائحها وأدمغتها مادة هذه الصحف المجيدة البيضاء . ثم ... ثم ... ثم بالغ رفيقته في هزه . فانتبه كليب .

— أني كل يوم إغفاءة . أو اغمأة ، مالك أيها الرجل ؟

... ..

— انزل ، هذه أسوار بصري !

• • •

نزلت الثقافة تحت أسوار (بصرى) في موهن من الليل ، فلم تبصر في بصرى
الاقطعة من الظلام التراكد . ولم تجد أثراً لذلك الطيف البراق الزاهي ، الذي كان
يرأى ذاراقصاً على أشعة انظلم ... فهجعت مكانها تنظر الصباح .

نامت الثقافة يحرسها الحراس ، ونام كليب نوماً عميقاً ، لا يظفر على وجهه حلم .
حتى أحس بأنفاس الفجر الباردة على خديه ، ففتح عينيه ، فرأى طلوع الفجر تضطرب
تلقاء المشرق ، في خطوط ضعيفة . كأنها أضواء المصابيح الكليلة . فراقته وتعاق بها
بصره . وما شيء يمتلك لب الرائي ، ويأخذ عليه مشاعره مثل انبلاج الفجر في
الصحراء . حين يكون سفير النور ، ومهبط الآمال على هذه النفوس ، التي ملت
ظلام الليل . وما يعيش في الظلام من مصائب وأوهام ... ولم يستطع كليب أن يحمل
وحده كل هذا الجمان . وأحب أن يجد صديقاً يشاركه حمل الشعور . فكان يلتقي
على رفيقه النائم . من غير أن يحول وجهه عن المشرق :

— ما أجمل هذا !

وكان صوته هامساً خافتاً ، كأنه كان يناجي نفسه ، فاذا لم يجبه أحد ، وطفى
عليه شعوره . غاد يقول :

... ما أجمل هذا ! ألا ترى ؟

وكان الفجر قد انباج ، واستوى عموده . وامتدت خيوطه فاذا هي تملأ الثلاثة كلها ،
وتحسّر عن هذه المشاهد التي كانت مخبوءة وراء حجاب الليل ، فاذا هي بارعة
فدابة . ولم يكن صاحبنا المعلم قد رآها من قبل . فشدّه حين ظهرت له بغتة .
كأنها لوحة فنية ازيج عنها غطاؤها . أو كثر فتح له بابه ، أو متحف فيه كل جميل
جميل أخاذ . أضيئت له جوانبه . فلم يدر أين كان هذا كله مخبوءاً ، وحارت
نفسه بين خضرة البساتين التي تحف بالبلد . أينعم النظر إليها وينوق حلاوتها . بعد
هذه الأيام الطويلة التي ذاق فيها مرارة البادية ، وبصغي إلى تهامس أوراقها المتلاصقة .
ونجوى أفنانها المتعانقة . أم يتأمل هذه البنى العظيمة التي أودعها الفنانون أبداع ثمره من

جنى قرائحهم الحصبة ، ونزلوا لها عن أجمل نتاج لعقريتهم ونبوغهم . لتكون عروس
البادية ، تخطر بعظمتها وجمالها ، وتتهادى بزخرفها وزينتها على الرمال الخالدة ...
وكان الفجر قد امتد إلى نفس المعلم الشاب ، فأضاء له عوالمها كما أضاء هذا العالم ،
، وحسر له عن آماله التي كانت مختفية في ظلام الاسفار . كما كانت هذه
المشاهد غائبة في سواد الليل ، فعاد إليها ، وتمثلها قوية ظاهرة ، وأحس كأن فجر
حياته الماجدة قد انبثق ، فختم صفحة هذا الليل الاسود الذي قضاه معلماً في أعالي
الجبال ، ليفتح صفحة النهار الوضاء الذي يقضيه في المدن الكبيرة أميراً عظيماً . وتلهي
بأحلامه من هاتين اللوحتين اللتين حار بينهما أولاً : اللوحة التي وشاها الربيع ،
واللوحة التي زينها الفن ، وانطلق يفكر في دمشق ماذا تكون ، اذا كان هذا كله لقربة
من قراها ؟

• • •

بقيت القافلة في (بصرى) ريثما باعت واشترت ، وقضى تجارها وطراً من الربيع
والكسب ، ثم توجهت تلقاء دمشق ، وكان المعلم الشاب يكلف ذهنه ضرورياً من تكبد
ليمثل له صورة لدمشق ، تشبه ما كان يسمع عنها من الأخبار ، التي كانت تشيع في
الأرض ، حتى تبلغ تلك الذرى العالية ، التي تهجع عليها قريته ، فتشر فيها مكبرة
منفوخة ، مكسوة بانواع المبالغات ، تصور له دمشق جنة كآتي وعد المتقون ، فإمن
العظمة والجلال ما تتضاءل أمامه عظمة (المدائن) ، التي كان يتحدث بها العجائز من
قومه عن العجائز ، وتخيل له من جلال الخليفة وضحامة سلطانه ، ما يصغر معه ملك
كسرى ويهون .:، ولم لا ؟ وملك كسرى كله عمالة من عمالات الخليفة ، وولاية
من ولاياته !

كان المعلم الشاب يكبد ذهنه ليتصور دمشق ، ويتبين طريقه إلى النجاح فيها ، وكان
يحسب لطول ما عزم على السفر ، وتردد فيه ، ولعظم ملاقى من الأهوال والمشاق ،

أنه ليس بينه وبين المجد والولاية إلا أن يهبط دمشق . فاذا هو وال أو أمير ...
وكانت القافلة قد علت نشراً من الأرض فأنكشفت أمامها دمشق العظيمة أقدم بلدان
الأرض وأجملها . وهي في مثل حلة العروس . يضحك في أعطافها الجمال . تيمس
بثوب العرس الأبيض الشفاف . الذي نسجته أكف الربيع . من زهر المشمش اخفهاف
تموج في خديها دماء الشباب ، ظاهرة في زهر اللواق الأحمرة اللتان . وعبق أزهارها
يعطر الجو كله . الأرض ، والسماء . والجبال ، والصحاري المجاورة ... فأخذ
كليب بها أخذاً . ورقص لما قلبه ، وفتن بها فتوناً . ومن ذا الذي يرى غوطة دمشق
— وهي في ثوب الربيع — ثم لا يرقص لما قلبه . ولا يفتن بها فتوناً . ومن ذا الذي
يقطع عرض الفلاة . حيث يعتدّ ظل الصخرة القائمة جنة حادرة . ويرى الحشيشة الخضراء
روضة الدنيا . ويرى البئر الآسنة مورداً صافياً ... ثم يطل على الغوطة جنة الأرض حقاً (١)
وروضة الدنيا . بأشجارها المزهرة المتعانقة . وأدواحها الباسقة ، وعيونها الدافقة .
وعيونها الدافقة ، وأنهارها الرائقة ، ووردها وزهرها . وعنبها وخمرها . وطيبها
وعطرها ، وفتونها وسحرها ، ثم لا يعجن بها جنوناً ؟ وهل عدّ العرب الغوطة إحدى
الروائع الأربع في متحف الطبيعة . إلا بعد نظر وفكر ؟

كان كليب سابحاً في أحلامه . وهو أشد ما يكون بها استمتاعاً . حينما ارتفع
هذا الغبار من ناحية الشرق عالياً عريضاً . راع القافلة فوقفت تنظر إليه مذهورة .
فجئنا أحلامه ووقف مع القافلة ينظر . فاذا الغبار يعلو . ثم تضربه الرياح فيتفرق . ثم
يعود فيجتمع ...

ويفرع رجال القافلة الكبيرة . ويظنون الظنون . ويصغي كليب إلى حديثهم فيفهم
منهم أنهم لا يدرون ماذا يراد بهم . ولا يعلمون ما هذا الغبار ، ويوغلون في الحديث
ويتشقق بينهم . فيكشف لكليب عن أشياء كثيرة ، لم يكن يعرفها وهو في قرينه العالية
... يعلم كليب أن الدولة في أزمة من هذه الأزمات الخطرة . التي تعرفها الدول حين

(١) لا يعرف الجنة إلا من رأىها .

تعصف بها عواصف الانقسام . والحرب الداخلية . وأن عبد الملك قلق مسهد ،
لاينام الليل الا لماماً . فاذا هجع رأى شبح ابن الزبير ينتفض عليه ، فقام مرتاعاً يخشى
أن ينتزع منه الشام ومصر كما انتزع الجزيرة كلها والعراق وخراسان ، وصار الحاكم
المتناع في شرق البلاد وجنوبها . وحالت مدته وامتد حكمه ...

ثم تنقطع أحاديث القوم . وينظرون إلى الغبار الداني . وسيوفهم في أيديهم ،
ومقاتلتهم أمامهم ، مستعدون للقتال . فينشق الغبار عن الراية الأموية التي يبعث مشهدها
الطمأنينة في نفوسهم . ويخرج من تحته بضع مئات من جند الشام . يخالطون القافلة
الكبيرة . ويكشفون أمرهم على عجل . فيعلم رجال القافلة أنهم حيال فرقة من حرس
الصحراء ، خرجت من دمشق منذ أسبوع لتجول في هذه الفلوات القرية . تقيم
العواصم والمخافر ، ثم تعود لتفسيح المجال لفرقة أخرى . فتجاوزت حدها ، وأمعنت
في الضرب إلى الجنوب حتى دخلت أرض ابن الزبير . والتقت بهذه الفرقة الحجازية
التي كسرتها وردتها على أعقابها . ولحقتها لتتضي عليها .

وهز هذا الحديث التصير رجال القافلة . فاصطفوا لتقاء الفرقة الحجازية التي دنا
غبارها . وتافتوا يفتشون عن الرجل الذي يقودهم إلى المعركة ويشق لهم طريق الضفر ،
ويلزمهم طاعته إلزاماً . ولئن يكون هذا الالتزام الا بقوة الشخصية . وبلاغة اللسان ،
وكبر النفس ، وكانت ساعة انتظار وتردد . وتوجهت فيها الأنظار إلى كثير من
السادة . فخبوا رجاء الناس فيهم . وأوشكت الفرقة الحجازية أن تصل . وهم على
جمودهم وانتظارهم . عند ذلك تقدم كليب الذي كان يغالب نفسه ويقسرها على
السكون . ويمسك بركان حماسه أن ينفجر . تقدم حين عجز عن ضبط نفسه ،
ففتح له طريقاً وسط الثرسان . وقد رأى أمانيه أدنى إليه من أنفه . ومضى فيه مضي
السهم حتى صار في رأس القوم . وهم يعجبون منه . وينتظرون أن يتودهم كل
رجل في القافلة الا هذا الشاب . الذي أمضى طريقه كله صامتاً حالماً ، لم يتحدث
بحديث ، ولم ينطق بكلمة . وانذي يظنونه عيباً لا يبين ولا يعرب عن نفسه . ولكن

عجبهم لم يطل ، فان الفتى انطلق يخطب فيهم خطبة صارخة مجلجلة ، تلتهب كلماتها
التهاباً ، وتحرك جملها الجلاميد الصم ، وتدع الجبان المخلوع القلب وهو البطل الحلال
وكان صوته القوي يمشي إلى حبات القلوب فتصيبها منه رجفة ، كما يرتجف الرجل
يمسك بسلكة الكهرباء ؛ وكانت اشارة يده ، وسمات وجهه ، تنطق بمعانيه قبل
أن ينطق بها لسانه ، فتحرك الناس ، وتقودهم ، حتى كأنهم معنقون بأصبعه .

ولم ينته المعلم الشاب من خطابه حتى كان القوم قد خلعوا نفوسهم التي أضناها طول
السفر ، وأرمرضها حر الصحراء ، وأضعفها التردد والاحجام ، ولبسوا نفوساً جديدة
ماضية لا تعرف التردد ، قوية لا تعرف التعب ، مؤمنة بالظفر لاشك عندها فيه .

ولم ينته من خطابه حتى كان الجند الحجازيون قد وصلوا . فأطلق من فيه صرخة
الحرب ، وأغار كالثضاء النازل ، ينشد أنشودة الموت ، والجند ومساحة القافلة
ورائه تردد النشيد ، فتميد له اليد . فام تكن الاجولة واحدة ، حتى آثر الحجازيون
السلامة ، ففروا لا يلوون على شيء . واستراحت القافلة حيناً . ثم أخذت طريقها إلى
دمشق يقدمها كليب (المعلم البطل)

* * *

كانت دمشق في زلزال شديد ، وكان أهلها في هيجان واضطراب ، ينتظرون
المعركة الفاصلة بينهم وبين ابن الزبير ، لينجو العالم الاسلامي من هذا الانقسام ، الذي
ينكره الاسلام ، ويرأبه أشد الأباء ، ليعود إلى الوحدة التي جعلها أساس الحياة الدنيوية
للمسلمين ، كما جعل التوحيد أساس الدين .

ولكن أهل دمشق فزعون مشفقون على الخلافة الأموية أن تنهار وتتحطم ، وهم
بناتها وحماتها ، يرقبون الأحداث ، ويتسقطون الأخبار ، ويعدون نفوسهم للتضحية
الكبرى ، في سبيل المبدأ القويم ، والغاية السامية كدأب المسلمين في كل عصر وآن .
وكان (قصر الخضراء) مثوى الخلافة ، وسرة الأرض ، في حركة دائمة ، فمن
مجلس يجمع للشورى ، إلى ألوية تعقد للدفاع . وكذلك كان قصر (مستشار الدولة)

روح بن زنباع . الذي أمته كاليب المعالم الشاب صبيحة وصوله إلى دمشق . يقوده إليه زعيم الجناد الذين أنقذهم كاليب . وأعانهم على عدوهم . ليأتمى عند روح جزاءه . وكان قصر روح قائماً في ظل المسجد . دانياً من باب القراديس يجري من تحته بردى متوارباً في حمى القصر . ثم يظهر كرة أخرى . يتحدر ويهلر هديرأ سائغاً عذبا ، وسط جنة دائية القطوف متشابكة الأفنان . قد اتخذ فيها مجلس يقوم على سبتان من خشب الجوز المنقوش . منغمسة في بردى تغسلها أمواجه دائماً وتداعبها أمواجه الصغيرة . فتقرصها ثم ترتد عنها ضاحكة مقهقمة ، وسماء هذا المجلس أغصان الأشجار قد تعاطفت وتعانقت يزيناها الياسمين بزهره الناعم العطر ، وحول هذا المجلس اطار من الورد والسرير والسيسنبر والرجس والبنفسج . فهو جنة تنعم فيها العين بهذه الأزاهير الموثقة الألوان . المختلفة الأشكال . تمايل وتهادى حين يمسها هذا النسيم الرخي . فينوح من أعطافها هذا الشدا الطيب . الذي ينعم الألف برياه . كنعيم الأذن بهذه (الأور كسترا) الاذية . التي تعزف الحان المنطرة الجميلة الساحرة . على حناجر اليبابل والشجارير . ويردى فوق هذا كله يعني لحنه السرمدى . وتنعكس على صفيحة المسوجة ألوان الزهر . فيكون منها لوحة فنية ، تزري بألوان الغروب في لحن البحر .

والقصر طبقتان . من الرخام الأبيض والأسود والمجزع . له رواق على باب . قائم على أساطين من الرمر . قد استخرج صنعها وتزيينها . عبقرية البنائين والمهندسين . فبدت آية معجزة في لغة البناء . تحس لدقتها وأحكامها . كأنهما هي حية ناطقة نسوي بخمرة هذا الأريج العطر الذي يفوح من أشجار البرتقال والليمون . المكثلة بالأزاهير ، التي تنافس بعطرها الورد والياسمين . وأشجار المشمش التي تظهر بزهرها الأبيض الشفاف ، كأنما هي في حلة من الثلج الحي المعطر . وأشجار الدراق التي تبدو بزهرها الأحمر ، كأنما هي محب ورد وجنتيه الحجل . وأشجار الحور سكرى تيس بثوبها الحديد ، الذي خلعتة عليها أيدي الربيع ... يتوج هذا كله منارة المسجد الشاهقة في

السماء ، تنشر في الدنيا كلها العطر السماوي الخالد ، وتريق عليها السمو والجلال ،
فتطهر الأرض من الشرك ، الرذائل ، وتنطهر النفوس من المطامع والشهوات ، وتهبُّ على
الوجود نسمة من نسيمات الجنة حين يخرج منها النداء : « الله أكبر ، الله أكبر ،
لا إله إلا الله ! » .

* * *

كانت دمشق (وما تزال) وستبقى دمشق) جنة الأرض ، ودرّة تاجها ، وواسطة
عقدها . ليس في الأرض أجمل منها ، ولا أحسن بكل محبوب ساحر أخاذ . مما يشم
أو يرى أو يسمع ... وكان قصر روح من أجمل ما في دمشق . وكان فوق الجمال
جلالاً فخوراً يساكنيه ، يملؤه الحجاب والحنن وذوو الحاجات . فلا ينصرفون
إلا وافرين غانمين شاكرين :

كان محط الجمال والجلال ، ولكن كليياً (المعلم البطل) لم يحتل شيئاً من هذا ،
ولم ينظر إليه . لأن من عاداته إلا ينظر إلا امامه . لا يلتفت يمنة ولا يسرة لئلا يشغله عن
غايته شاغل . أو يعوقه معوق . وكانت آماله هي غايته ، فمضى إليها قدماً . لا يبصر
إلا ظهر البخندي الذي سبقه ليدله على الطريق . في هذا العالم الصغير ، حتى دخل على
المستشار ...

* * *

ندع كليياً في حضرة روح بن زنباع مستشار الدولة ، ونقفز قفزة واحدة إلى أواسط
مدينة الحجاج ، نقطع في هذه القفزة سنوات طوالاً مليئة بالأحداث الجسام ، من
قتل مصعب وعبدالله ابني الزبير . إلى عودة الوحدة الإسلامية على يد عبد المالك والحجاج
... فترى في شوارع واسط الفسيحة شيخاً اعرابياً جافياً ، يتلفت تلتفت المشدوه الذي
لم يبصر في عمره مدينة كبيرة ، يتوسم في وجوه الناس بفضول ظاهر ، فيفرون منه ،

حتى زال النهار ، وكلت رجلاه من المسير ، فجلس في ظل دار من هذه الدور
الجديدة . كثيراً حزينا :

— مالك يا عم ؟

—

— مالك ؟ أخبرني ما شأنك ؟

فرفع الأعرابي رأسه ويحدثني في وجه الرجل ، حتى يطمئن إليه ، ولا يرى فيه
ما يريه ، فيقول له :

— أريد أن تدلني على رجل يدعى كليب بن يوسف الثقفي ، من الطائف فيضطرب
الرجل ، ويسأله :

— أتدري ويحك ما تقول ؟ ابن يوسف الثقفي ؟ أخو الحجاج ؟

فلا يسمع الأعرابي هذه الكلمة حتى يسرى عنه وينطلق ضاحكاً بملء فيه ، ويقول
— بل هو والله الحجاج ، كنا نسميه كليباً ، قاتله الله ما أشد عموقه ... ألا تخبرني

أين هو هذا الحيث ؟

— قبحك الله من اعرابي جاهل ، أبهذا تصف الأمير ؟

ويتلفت إلى كل جهة ، وقلبه يكاد ينخلع من الرعب ، يخشى أن يسمع حديثهما
أحد ، ثم يقول للأعرابي هامساً :

— أخفض من صوتك ... سألتك بالله !

— ولم ويحك ؟

— ألا تعرف من هو الحجاج ... أأنت من سكان هذه الأرض ؟

فيعود الأعرابي إلى الضحك ، وقد راقه ما يسمع ، ويقول له :

— بل أنا من سكان السماء ؛ هبطت الساعة من أعالي جبال الطائف ؛ أما الحجاج

فأنا أعرف الناس به : معلم صبيان أحرق !

— ويلك يا اعرابي ؛ هو والله أمير العراقيين ، وقاتل ابن الزبير ، وسيف الخلافة
الأموية ومثبت أركانها ..

— إنك تهزل !

— وهل في هذا هزل ؟ سل وبنك من شئت !

— كليب أمير العراقين ؟ يا ضيعة شيبتك يا عقيل ! ... وبنك يا هذا ، دلني عليه ..
دلني عليه ...

• • •

... ..

... ..

— أدن يا عقيل !

— أو قد عرفني ؟

— وهل ينكر الحجاج أصدقاء كليب ؟ كيف تركت صبيانا ؟

— ما أنت والصبيان ؟ أنت أمير العراقين ... ولكن خبرني ويحك يا كليب ،

كيف بلغت هنا كنه ؟

— بلغته لأنني (أردت) أن أبلغه .

ولم يدرك عقيل ما شأن الارادة هنا . فانطلق يضحك بحسبها نكتة . ثم سكت فجأة

وقال :

واكنه شيء عظيم والله يا كليب . أين هذا من دارك في الطائف ؟

— واشوقاه إلى داري في الطائف ، وإلى أيامي مع الصبيان !

لقد خلقت فيها ربيع حياتي يا عقيل ، لقد خلقت فيها ربيع حياتي ... والآن

يا مرحباً . يا مرحباً برفيق الشباب^(١)

(١) روى التاريخ أن الحجاج كان يرمي في سفرة كليباً وكان يرمي صبيان في الطائف ، وهذا كل ما روى التاريخ .

آخراً بطال غرناطة

لم تشهد شمس اليوم الواحد والعشرين من المحرم سنة ٨٩٧ هـ حينما أُنشأت على غرناطة . تلك المدينة الضاحكة للحياة ، الساكنة إلى النعيم . السابحة في جو النغم العذب والنعطر الأريج ، بل رأت مدينة واجمة حيرى ، قد أفقرت من الرجال . الإقيسة من الأبطال رابطت حبال الأسوار . هي بقية ذلك الجيش الذي دانت له أسبانيا كلها . وأُنشأت أنورته فرنسا وإيطاليا ... قد وقفت تدافع عن آخر حصن الاسلام في هذا القطر المشرق . تلوذ عن بيوت الله ، ومقابر الأجداد ...

ولقد جازت غرناطة أياماً سوداً عوايس ، ورأت مصائب ثقالاً متتابعات . وانكبتها لم تجد مثل هذه الميالة التي قضتها مسهدة مذعورة . تظفر حوائرها فلا تبصر إلا مدناً خضعت لعدو فجاجس خلالها واستقر فيها . وقد كانت أرض العروبة . وكانت دين الاسلام . وأمة استذلت واستعبدت ، وقد كانت أمزج من النور وأمنع من العقاب . وبقيت هي وحدها تحمي الحمى وتدافع عن الارض والعرض والدين . وتحمل وحدها أوزار الماضي وما كان فيه من تخاذل وأثرة والتسامح . وتؤدي وحدها الدين . دين الجهاد . الذي كان في أعناق مدن الأندلس كلها والمسلمين أجمعين . فقامت عنه مدن الأندلس . وشغلتها خيالات الامارة . وألقاب مملكة في غير موضعها ...

وجعلت تنظر غرناطة إلى القصر البهي العظيم . وهو آخر هانيك التصور التي شغل

رواؤها الأمراء . وأنتهم سكانها أخلاق صحرائهم الأولى . فكانت مقابر لأجدادهم
طننت تنظر اليد فلا ترى من بناء الحمراء إلا الرجل الضعيف . المرأة المتحيرة التي
اسمها أبو عبد الله الصغير . وأمه الشريفة الأبية . الرجل الذي خلق في جسم امرأة :

عائشة . فحولت وجهها عن التنصر إلى جهة السرر تسأل : هل عبد موسى ؟

ولقد كان « موسى » أمل هذا الشعب وإليه مفرعه . وعليه بعد الله اعتساده . بهاله
في ساعة الخطر كما يبادو النجم الخادي للضلال الآيس .

لقد طلع فجأة من الظلام . ظلام الدهماء فإذا هو يلسع في لحظة واحدة التماع البار
المزير . وكذلك يقذف هذا الشعب العربي بالأبطال كلما حاقمت الشاة . وأدغمت
الخطرب . وإذا هو أمل أمة . وإذا هو ملء السمع والبصر . وهاء السهل والجيل . وإذا
هو بطل المعركة المكفهرة . دعنا إلى القتال شعباً كل من القتال ، فإباد عنى كلاله . هذا الشعب
الذي عامه محمد كيف يلبي كلما دعي إلى التضحية والجهاد . لباد وتشتت أسماه
البالية عن أسود غاب . وسباع عرين . ووقف بهؤلاء الأسود في وجه السيل الإسباني
الظاهي . وما زال ثابتاً . ولكن أسوده قد سقطوا صرعى في مبادئ الشرف .

خرج موسى منذ إحدى عشرة ساعة يضرب التسربة الأخيرة ينال بها إحدى
الحسينين . إما التنصر وإما الشهادة . ويرد العدو الذي أبتى عليه حاتم المسلمين حتى
قوى بضعتهم . وإشتهد بليينهم . وانتزع منهم الأرض قرية قرية . وبلداً بلداً . حتى
أقبل يطردهم من آخر منزل لهم في الأندلس . من غرناطة .

وعلت غرناطة فترة الجزع . من خوفها على (موسى) : لقد جماعته قائدها ،
وسلمته الدفة ، ليقود السفينة الهائمة على وجهها وسط الأعاصير والزوايع . إلى الشاطيء
الآمن ، فإذا عجز موسى عن نجاتها لم ينجها أحد من بعده .: وقد كان موسى آخر

خيط من خيوط الرجاء . وآخر شعاعه من هذه الشمس التي سطعت فملاّت الأرض نوراً وهدى ثم أدركها الغيب . فإذا انقطع هذا الخيط عمّ ظلام اليأس وانتشر ... وقد كان موسى آخر منقطع من هذا النشيد الذي ألفه منقطع طارق . ثم تولى على نظمه (شعراء ...) البطولة عبد الرحمن وعبد الرحمن وعبد الرحمن . العارفي والداخل والناصر . فحمله الأبطال المساعير إلى الأفاسي والأداني . وتجاوبت بأصدائه سهول فرنسا ، وبطاح إيطاليا . ثم ضعف وتخافت ولم يبق منه إلا هذا المنقطع . فإذا أنقض جف النشيد على الشفاه وانقطع ومات ...

وقد كان موسى آخر سطر في سفر الحق والبطولة والمجد . ذلك الذي كتبه العرب المسلمون في ثمانمائة سنة . فدحاه الأسبان في سنوات . ولم يبق إلا هذا السطر . فإذا طمس ذهب السفر وباد ... وقد كان موسى آخر نفس من أنفاس الحياة في الأندلس المسلمة . فإذا وقف هذا النفس الواحد . وسكن هذا الدماء الباقي . صارت الأندلس المسلمة أترأ بعد عين ، وصارت ذكرى عزيزة في نفس كل مسلم . وأمانة في عنقه إلى يوم القيامة ..

وانطلقت من أعالي الأسوار أن « لقد عاد موسى » . فتقاذفتها الأسن وتناقلتها الأذان ، فطارت في أرجاء المدينة . وسارت في جوانبها مسير البرق . فبلغت الساحات والدروب . وولحت الدور والمنازل . وأوغلت خلال البيوت والسراديب فلم تلبث أن نفضتها نفصاً فألقت بأهايها إلى الأزقة والشوارع ، فإذا هي مستأنة بالناس من كل جنس وسن ومنزلة . وإذا هي تزخر بهذا النهر الإنساني ، الذي يجري صوب الأسوار ، صحاباً جيشاً مزبداً ، يتحدر ويسرع مجنوناً ، كأنما تدفعه قوة خفية هائلة احتوتها هذه الكلمات السحرية (المكهربة) الثلاث : « لقد عاد موسى » !

لقد كان يوماً من الأيام الغر التي تضيء الطريق لمن يسلك فجاج التاريخ ، وتجيء في الليالي كالعقري في الناس ، وتصنع العجائب لتكون معجزة في الزمان ، ما شهدت

مثله غرناطة ، ولا أبصرت منه (إلا قليلاً) عين الوجود ! يوم أضاع فيه الناس غريزة المحافظة على الذات ، في غمار غريزة النوع . ونسوا نفوسهم ، ليذكروا الدين والوطن ، وأنبأوا من الحاضر المقيت . ليعيشوا في الماضي الفخيم ، فماج في سوح غرناطة بحر من الأجسام البشرية حمل أصحابها أرواحهم على أكفهم ، وقدموا بين أيديهم دماءهم . التي غضب فيها ميراث ثمانية قرون كلها مجد وعز . ونفوسهم التي عصفت فيها ذكريات ألف معركة منصوره . فمشت في الأعصاب النار ، واستعد كتاب التاريخ ليكتبوا أعجب موقف للشعب إذا هب .

ووصل موسى ، ذلك البطل البدري الذي أخطأ طريقه في الزمان فلم يأت في سنوات الهجرة الأولى ، بل جاء في الأواخر من القرن التاسع . ولم يطلع في الحجاز التي كانت تبتدىء تاريخها المجيد ، بل في الأندلس التي كانت تختم تاريخها .

وكانت تملوه كآبة ، فأنصت الشعب واحترم كآبة هذا الرجل الذي لو سبق به الدهر لصنع يرموكاً أخرى أو قادية ثانية ، ولكن الله الذي فتح تاريخنا في الأندلس بموسى ، قد ختمه الآن بموسى !

ونظر موسى حوله ، فإذا حوله شيوخ قد أراق الكرم على شيباتهم بهاءه ونوره . وأطفال كالزهر فتحوا عيونهم على الدنيا فوجدوها غارقة في بركة من الدم . ونسوة فتحت الأكمام عن زهراتها ، فرأت الطرقات من لم تكن الشمس تراهن صيانة وتعفناً ، قد برزن يسرن إلى المعركة ويزاحمن الرجال . ولم يكن يخشون على جماهن ، فقد غطت عاطفة الجهاد على عاطفة الجنس ، فكان كل رجل أحاً فيه لكل امرأة فأحى رأسه ، ورأى الناس في عيني البطل دمعة تترقرق ، وفتح فمه فحبس الناس أنفاسهم .

فإذا هو يعلن النبأ المهول ، نبأ تسليم أبي عبدالله الصغير مفتاح غرناطة !
نبأ بدأ صغيراً كما تبدو المصائب ، فلم يدر الناس طول المفاجأة ما أثره هذا وما خطره ، ولكن القرون الآتية درت ما أثر هذا النبأ ، ولم تفرغ إلى اليوم من وصف فواجعه وأمواله .

ونظر موسى فإذا الصرح الذي أنفق في إقامته الدهر الأطول ، قد أنهار في دقائق،
وإذا هذه الديار التي سقيت بدم الحدود . وامتزجت برفاتهم ، وقامت على أيديهم،
يسلمها جبان مأفون للعدو المغير . وإذا السادة صاروا خولاً . والملوك عبيداً ... وجعل
يفكر في هذه الفئمة التي حوله ، في أكرم زهرات غرناطة وأزكاها ، هل يُجنبها الموت
الحاصد ويردها . إلى حيث وجدت الراحة والدعة . أم يخلصها من حياة كلها ذل وألم،
ويسوقها إلى موت شريف ؟

وإنه نفي تفكيره وإذا بأطفال غرناطة يشدون ذلك الشيد الذي لا يعرف من نظمه
ضم . فيصغي الناس ويستمع القلك الدائر :

« لا تبكي يا أماء . إنا ذاهبون إلى الجنة ،

إن أرض غرناطة لن تضيق عن لحد طفل صغير مات في سبيل الله ،

إن أزهار غرناطة لن تمنع عطرها قبراً لم يمتع صاحبه بعطر الحياة ،

إن ينابيع غرناطة لن تحرم ماءها ثرى لحد ما ارتوى صاحبه من مائها ،

أنت يا أرض غرناطة أمتنا الثانية فضمينا إلى صدرك الداني الذي ضم آباءنا الشهداء،

لا تبكي يا أماء بل اضحكي واحفظي لعبنا ، سيأتي إخواننا فيلبعون بها .

فذكرهم بأننا تركناها من أجل هذا الوطن ،

سئلتني يا أماء ! إنك لن تؤثري الحياة في خلال الأسبان على الموت تحت الراية

الحجازية .

وإن تضيق عنا أرض غرناطة . ما ضاقت أرضنا بشهيد .

» . . .

ولم يعد يطيق موسى أكثر من ذلك ، فلكر فرسه . وانطلق إلى حيث لا يدري أحد،

كما جاء من حيث لم يدرك أحد .

وكذلك ذهب آخر أبطال الأندلس . لم يخلف له قبراً في الأرض ، ولا سيرة

واضحة في التاريخ ، بل مرّ على الدنيا كأنه حلم بهيج !

رحمة الله على موسى بن أبي الغسان وعلى أولئك الأبطال .



محمد الصغير

قال :

كنت يومئذ صغيراً . لا أفقه شيئاً مما كان يجري في الخفاء ، ولكنني كنت أجد أبي - رحمه الله - يضطرب ، ويصفر لونه ، كلما عدت من المدرسة . فتأوت عليه ما حفظت من « الكتاب المقدس » ، وأخبرته بما تعلمت من اللغة الاسبانية . ثم يتركني ويمضي إلى غرفته التي كانت في أقصى الدار ، والتي لم يكن يأذن لأحد بالاندو من بابها ، فيلبث فيها ساعات طويلة ، لا أدري ما يصنع فيها ، ثم يخرج منها محمر العينين ، كأنه بكى بكاء طويلاً ، ويبقى أياماً ينظر إليّ بلهفة وحزن ، ويحرك شفطيه . ففعل من يهجم بالكلام ، فاذا وقفت مصغياً اليه ولاآني ظهره وانصرف عني من غير أن يقول شيئاً ، وكنت أجد أمي تشعني كلما ذهبت إلى المدرسة ، حزينة دامعة العين ، وتقبلني بشوق وحرقة ، ثم لا تشع مني ، فتدعوني فتقبلني مرة ثانية ، ولا تفارقني إلا باكية ، فأحس نهاري كله بحرارة دموعها على خدي ، فأعجب من بكائها ولا أعرف له سبباً ، ثم اذا عدت من المدرسة استقبلتني بلهفة واشتياق ، كأنني كنت غائباً عنها عشرة أعوام ، وكنت أرى والديّ يتعدان عني ، ويتكلمان همساً بلغة غير اللغة الاسبانية ، لا أعرفها ولا أفهمها ، فاذا دنوت منهما قطعاً الحديث ، وحوّلاه ، وأخذنا يتكلمان بالاسبانية ، فأعجب وأتألم ، وأذهب أظن في نفسي الظنون ، حتى اني لأحسب اني لست إبنهما ، وأنني لقيظ جاءا به من الطريق ، فيبرح بي الألم ، فأوي

إلى ركن في الدار منعزل . فأبكي بكاء مرأ . وتوالت علي الآلام فأورثني مزاجاً
خاصاً . يختلف عن أزجة الأحنف . الذين كانوا في مثل سني . فلم أكن أشكر كنهم
في شيء من لعبهم وخواهم . بل أعتزهم وأذهب . فأجس وحيداً . أفع رأسي بين
كني . وأستغرق في تفكيري . أحاول أن أجد حلاً لهذه المشكلات .. حتى يجذبني
الخوري من كم قميصي . لأذهب إلى الصلاة في الكنيسة .

وولدت أمي مرة . فلما بشرت أبي بانها قد جاءت بصبي جميل . لم ينتهج .
ولم تنح على شفتيه ابتسامة . ولكنه قام يجر رجنه حزناً ملتاعاً . فذهب إلى الخوري .
فدعاه ليعمد الطفل . وأقبل يمشي وراءه ، وهو مطرق برأسه إلى الأرض . وعلى
وجهه علائم الحزن المبرح . واليأس التائل ، حتى جاء به إلى الدار ودخل به على أمي
... فرأيت وجهها يشحب شحوباً هائلاً ، وعينيها تشخصان . ورأيتها تدفع إليه الطفل خائفة
حذرة ... ثم تنمض عينيها . فحرت في تعليل هذه المظاهر . وازددت ألماً على أمي .

حتى إذا كانت ليلة عيد الفصح ، وكانت غرناطة غارقة في العطر والنور .
والخمراء تتلألأ بالمشاعل والأضواء . والصلبان تومض على شرفاتها وماً ذنبا . دعاني
أبي في جوف الليل . وأهل الدار كلهم نيام . فقادني صامتاً إلى غرفته . إلى حرمه
المقدس . فحقت قلبي خفقاً شديداً واضطربت . لكي تماسكت وتجادت . فلما
توسط بي الغرفة أحكم اغلاق الباب ، وراح يبحث عن السراج . وبقيت واقفاً
في الظلام لحظات كانت أطول علي من أعوام . ثم أشعل سراجاً صغيراً كان هناك .
فلمت حولي فرأيت الغرفة خالية . ليس فيها شيء مما كنت أتوقع رؤيته من العجائب .
وما فيها إلا بساط وكتاب موضوع على رف ، وسيف معلق بالحدار . فأجلستني على
هذا البساط . ولبث صامتاً ينظر إلي نظرات غريبة اجتمعت علي . هي . ورهبة
المكان ، وسكون الليل . فشعرت كأنني انفصلت عن الدنيا التي تركتها وراء هذا
الباب . وانتقلت إلى دنيا أخرى . لا أستطيع وصف ما أحسست به منها .. ثم أخذ
أبي يدي بيديه بحنو وعطف . وقال لي بصوت خافت :

- يا بني ، انك الآن في العاشرة من عمرك ، وقد صرت رجلاً ، واني سأطلعك على السر الذي طالما كتبه عنك . فهل تستطيع أن تحتفظ به في صدرك ، وتحبسه عن أمك وأهلك وأصحابك والناس أجمعين ؟

إن اشارة منك واحدة إلى هذا السر تعرض جسم أبيك إلى عذاب الجلادين من رجال « ديوان التفتيش »

- فلما سمعت إسم ديوان التفتيش ارتجفت من مفرق رأسي إلى أخمص قدمي ، وقد كنت صغيراً حقاً ، ولكنني أعرف ما هو ديوان التفتيش ، وأرى ضحاياه كل يوم ، وأنا غاد الى المدرسة ، ورائع منها - فمن رجال يصلبون أو يحرقون ، ومن نساء يعلقن من شعورهن حتى يمتن ، أو تبقر بطونهن . فسكتُ ولم أجب .

- فقال لي أبي : مالك لا تجيب ! أنتستطيع أن تكتم ما سأقوله لك ؟

- قلت : نعم

- قال : تكتمه حتى عن أمك وأقرب الناس اليك ؟

- قلت : نعم

- قال : إقترب مني . أرهف سمعك جيداً ، فاني لا أقدر أن أرفع صوتي . أخشى

أن تكون للحيطان آذان . تسمعي فتشي بي إلى ديوان التفتيش ، فيحرقني حياً ...

فأقربت منه وقلت له :

- إني مصغ يا أبت

فأشار إلى الكتاب الذي كان على الرف . وقال :

- أتعرف هذا الكتاب يا بني ؟

- قلت : لا

- هذا كتاب الله

- قلت : الكتاب المقدس الذي جاء به يسوع بن الله

فأضطرب وقال :

- كلا ، هذا هو القرآن الذي أنزله الله ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذي

لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ، على أفضل مخلوقاته ، وسيد أنبيائه ، سيدنا محمد بن عبدالله النبي العربي ﷺ .

فتحت عيني من الدهشة ، ولم أكد أفهم شيئاً .

— قال : هذا كتاب الاسلام ، الاسلام الذي بعث الله به محمداً إلى الناس كافة .. فظهر هناك ... وراء البحار والبادي ... في الصحراء البعيدة الناحلة ... في مكة في قوم بداءة: مختلفين ، مشركين ، جاهلين ، فهداهم به إلى التوحيد . واعطاهم به الاتحاد ، والقوة ، والعلم والحضارة ، فخرجوا يفتحون به المشرق والمغرب . حتى وصلوا إلى هذه الجزيرة ، إلى اسبانيا وكان ملكها جباراً عاتياً: وحكومتها ظالمة غاشمة وشعبها مظلوماً فقيراً ، جاهلاً متأخراً ، فقتلوا الملك الجبار ، وأزالوا الحكومة الظالمة . وملكوا الأمر في اسبانيا ، فعدلوا بين الناس ، وأحسنوا اليهم . وأمنوهم على أرواحهم وأموالهم ، ولبثوا فيها ثمانمائة سنة ... ثمانمائة سنة ، جعلوها فيها أرقى وأجمل بلاد الدنيا .

نعم يا بني نحن العرب المسلمين ...

فلم أملك لساني من الدهشة والعجب والخوف ، وصحت به :

— ماذا ؟ نحن ؟ ... العرب المسلمين !

— قال : نعم يا بني . هذا هو السر الذي سأفصي به اليك ...

— نعم نحن . نحن أصحاب هذه البلاد ، نحن بنيها هذه القصور ، التي كانت لنا فصارت لعدونا ، نحن رفعنا هذه المآذن التي كان يرن فيها صوت المؤذن ، فصار يقرع فيها الناقوس ، نحن أنشأنا هذه المساجد ، التي كان يقوم فيها المسلمون صفواً بين يدي الله ، وأمامهم الأئمة ، يتلون في المحاريب كلام الله ، فصارت كنائس يقوم فيها القسوس والرهبان ، يرتلون فيها الانجيل ...

نعم يا بني ... نحن العرب المسلمين ، لنا في كل بقعة من بقاع اسبانيا أثر ، وتحت كل شبر منها رفات جد من أجدادنا ، أو شهيد من شهدائنا . نعم ... نحن بنينا هذه

المدن ، نحن أنشأنا هذه الجسور . نحن مهدنا هذه الطرق ، نحن شققنا هذه اشرع ،
نحن زرعنا هذه الأشجار ...

ولكن منذ أربعين سنة ... أسامع انت ؟ منذ أربعين سنة خدع الملك البائس ،
أبو عبدالله الصغير ، آخر ملوكنا في هذه الديار ، بوعود الاسبان وعهودهم ، فسألمهم
منايخ غرناطة ، وأباحهم حمى أمته ، ومدافن أجداده . وأخذ طريقه إلى بر المغرب ،
ليموت هناك وحيداً فريداً ، شريداً ، طريداً . وكانوا قد تعهدوا لنا بالحرية والعدل
والاستقلال . فلما ملكوا خانوا عهودهم كلها ، فأنشأوا ديوان التفتيش . فأدخلنا
في النصرانية قسراً ، وأجبرنا على ترك لغتنا إجباراً ، وأخذ منا أولادنا ، لينشئهم على
النصرانية ، فذلك سر ما ترى من إستخفافنا في العبادة ، وحرنا على ما ترى من إمتهان
ديننا ، وتكفير أولادنا .

أربعون سنة يا بني ، ونحن صابرون على هذا العذاب ، الذي لا تحمله جلاميد
الصخر ، ننتظر فرج الله ، لا نياس لأن اليأس محرم في ديننا ، دين القوة والصبر
والجهاد .

هذا هو السر يا بني فاكتمه ، واعلم أن حياة أيك معلقة بشفتيك ، وأنت والله
أخشى الموت أو أكره لقاء الله ، ولكني أحب أن أبقى حياً . حتى أعلمك لغتك ودينك
أنقذك من ظلام الكفر إلى نور الايمان ، فقم الآن إلى فراشك يا بني ...

• • •

صرت من بعد كلما رأيت شرف الحمراء أو ما ذن غرناطة ، تعروني هزة عنيفة ،
وأحس بالشوق والحزن ، والبغض والحب ، يغمر فؤادي ، وكثيراً ما ذهلت عن
نفسى ساعات طويلة فاذا تنبهت رأيتني أطوف بالحمراء وأخاطبها وأعاتبها ، وأقول
لها :

أيتها الحمراء... أيتها الحبيبة الهاجرة ، أنسيت بُنائك ، وأصحابك الذين غذك بأرواحهم
ومهجهم ، وسقوك دماءهم ودموعهم ، فتجاهلت عهدهم ، وأنكرت ودهم؟! أنسيت الملوك

الصياد ، الذين كانوا يجولون في أبنائك . ويتكئون على أساطيك ، ويغمضون عليك ،
ما شئت من المجد والجلال . والأبهة والجمال . أولئك الأعزة الكرام . الذين
ان قالوا أصغت الدنيا . وان أمروا لمبي الدهر . أألئت التواقيس بعد الأذان ؟ أرضيت
بعد الأئمة بالرهبان !

ثم أخاف أن يسمعي بعض جواسيس الديوان ، فأسرع الكرة إلى اندار لأحفظ درس
العربية . الذي كان يلقيه عليّ أبي ، وكأني أراه الآن يأمرني أن أكتب له الحرف
الأعجمي ، فيكتب لي حذاءه الحرف العربي ، ويقول لي : هذه حروفنا . ويعلمني
المنطق بها ورسمها ، ثم يلقي عليّ درس الدين ، ويعلمني الوضوء والصلاة لأقوم وراءه
يصلي خفية في هذه الغرفة الرهيبة .

وكان الخوف من أن أزل فأفشي السر . لا يفارقه أبداً ، وكان يمتحنني فيس
أمي إليّ فتسألني :

— ماذا يعلمك أبوك ؟

— فأقول : لا شيء

— فتقول : ان عندي نبأ مما يعلمك ، فلا تكتمه عني .

... فأقول : انه لا يعلمني شيئاً

حتى اتقنت العربية . وفهمت القرآن . وعرفت قواعد الدين ، فعرفني بأخ له
في الله . فكنا نجتمع نحن الثلاثة على عبادتنا وقرآنا .

* * *

واشدت بعد ذلك قسوة ديوان التفتيش . وزاد في تنكيهه بالبقية الباقية من العرب ،
فلم يكن يمضي يوم لا نرى فيه عشرين أو ثلاثين مصلوباً ، أو محرقاً بالنار حياً ،
ولا يمضي يوم لا نسمع فيه بالمئات ، يعذبون أشد العذاب وأفظعه ، فتقلع اظافرهم ،
وهم يرون ذلك بأعينهم ، ويسقون الماء حتى تنقطع أنفاسهم ، وتكوى أرجلهم

وجنوبهم بالنار . وتقطع أصابعهم وتشوى وتوضع في أفواههم . ويجلدون حتى
يتناثر لحمهم .

واستمر ذلك مدة طويلة . فقال لي أبي ذات يوم : اني أحس يا بني كأن أجلي قد
دنا واني لأهوى الشهادة على أيدي هؤلاء . لعل الله يرزقني الجنة . فأفوز بها فوزاً
عظيماً . ولم يبق لي مأرب في الدنيا بعد أن أخرجتك من ظلمة الكفر . وحماتك الأمانة
الكبرى . التي كدت أهوي تحت أثقالها . فاذا أصابني أمر فأطع عمك هذا ،
ولا تخالفه في شيء .

* * *

ومرت على ذلك أيام ، وكانت ليلة سوداء من ليالي السّرار ، واذا بعمي هذا
يدعوني ويأمرني أن أذهب معه ، ففقدت الله لنا سبيل الفرار إلى عدوة المغرب بلد المسلمين
فأقول له : أبي وأمي ؟ ...

فيعنف عليّ ويشدني من يدي ويقول لي : ألم يأمرك أبوك بطاعتي ؟

فأمضي معه صاغراً كارهاً ، حتى اذا ابتعدنا عن المدينة وشملنا الغلام ، قال لي :
— إصبر يا بني ... فقد كتب الله لوالديك المؤمنين السعادة على يد ديوان التفتيش .

* * *

ويخلص الغلام إلى بر المغرب ويكون من العالم المصنف سيدي محمد بن عبد الرفييع
الأندلسي وينفع الله به وبتصانيفه .

رجل وامرأة

كان ذلك في يوم من أيام سنة ١٦٠٧ هـ . وكانت دمشق تصارع دهرها الغاشم الحرون الذي رمى بلاد الشام بقاصمة الأصباب ، الصليبيين . فقرأوا على مناديه نزول البلاء . وفشت أجنادهم في نابلس وحمكا وبلاد آخر فشوء الطاعون . وكان صبرها يزيد كلما زاد الكرب . وحزمها ينمو كلما نمت المصيبة . شأن دمشق في كل عصر .

وكان طوفان المغرورين يمتد ويتسع . يحمل الموت والدمار ، يأتي على البلاد والعباد . يبعث الخسارة من أسونتها ، وأهل الشام يتنهضون له فلا يتمكنون له دفعا . حتى كادت الديار بخار من شبابها . ولا يبقى فيها الا شيخ أو امرأة أو صبي . . . أو قاعدتي نسي واجب الجهاد !

. . . وقد ذهب فيمن ذهب إخوة (ميسون) الأربعة . وبقيت من بعدهم وحيدة في دارها لا يؤنسها إلا شبابها وجماعة وذكرى إخوتها . . .

أصبحت ميسون مهمومة . قد تقاسم فكرها العزيزان : وطنها وإخوتها . فما تدري ماذا جرى ذم ، وماذا يجري عليه . ولقنف سمعها طرفاً من أحاديث المارة . فعلمت أنه قد امتد الخطر ، ودنا الخلاك . وأن هؤلاء (الواغليين . . .) لا يفتأون يركبون جناح

الليل الأسود، إلى شاطئ فلسطين، تحملهم المواخير الخاربة من عين الرقيب، المتسللة من وراء الخرس، فكلما دجى الظلام نزلوا إلى الشط أفواجاً، فكانوا للغاصبين عوناً. وعلى أهل البلاد حرباً. وجعلت تنكر في هذه العصبة المجاهدة الكريمة، ماذا تستطيع أن تصنع لها؟ وكيف توقد النار في أعصاب هؤلاء، الذين لا يزالون يروحون ويغدون، على متاجرهم وأعدائهم، ويأخذون حظوظهم من مفاتن الطبيعة، وجمال الكون، وتنسيهم لذات أجسامهم، ومرابح تجاراتهم، هذا الخطر الذي عم البلاد، والذي طال الزمان به. ونشأوا عليه، فألقوه، ونسوا أيام الحرية والمجد، وأن هذه البلاد بلادهم. وأنهم سلائل الأبطال الفاتحين، وحسبوا حكم هؤلاء (الواغليين...) ضربة لازب، وأن قضاء الله قد تم فيهم فلا ينفع معه سعي، وأن أيام السعادة قد انتهت فلا تؤمل لها رجعة، كيف لها وهي فتاة بإيقاظ هذه النفوس التي امتد بها الفجوع، حتى كاد يكون موتاً؛ كيف تفهم هذه الشخصوس التي تجيء وتذهب كشخص من ورق في العوبة (الكراكوز). أن الحياة ليست بطناً يملأ، ولا شهوة تقضى، ولا مالاً يبان. ولكن الحياة المجد والتقى، وجلال الأعمال، وأن يعرفوا للوطن حقه، وأن يعلموا. ويعلم كل عربي، وكل مسلم، أنه ما دام في فلسطين (واغل...) واحد من هؤلاء. فحرم أن ينعم زوج بأهله، أو غني بماله، أو يغلق جنن على لذيد المنام؟ وإنها لفي تفكيرها، وإذا بالباب يخفق وإذا هو نعي إخوتها الأربعة...

• • •

صعقت ميسون لهذا الهب، وعجز جسمها اللدن، وقلبها الرقيق عن حمله، فتضعفت وانهارت، ولكن الإيمان والشباب تنبها في نفسها، ونهضا من تحت أنفاس الصبر، وخلال غبار المصيبة، يوقظان اللبوة للانتقام. لقد كان وترأ واحداً فصار وترين، وكانت تطلب ثأر وطنها. فانتظت ثأر وطنها وإخوتها، ووضعها البارود في أعصابها، كما يوضع في المدافع، ثم أرسلها في هذا الشعب الحاجع، تفرع أذنه بالرعود، فيبقى أو ينام إلى الأبد...

وأحست ميسون أن في عضلاتها القوة التي تهز دمشق هزاً . وفي حنجرتها الصوت الذي يسمع الأموات . وفي قلبها العزم الذي لا يكل . والمدد الذي لا ينقطع . والأيد الذي يقل الجيوش ، ويدك الحصون . وكذلك الإيمان إن نزل بقلب امرأة جعل منها بطالا لا يغلب ، وما أعجب ما يصنع الإيمان !

• • •

وهمت ميسون أن ترتدي ثيابها . ثم تطاب ميدان العدل . وتلفتت حوذا . فلم تجد لها في الأرض قريباً ، ولا ذا رحم . فقطعت أسبابها من الأرض . ثم وصلتها بالسماء ، فشعرت كأنها مؤيدة بقوة إلهية ، أصطفتها من دون الناس . لتعلم . وهي الفتاة الغريضة الناعمة ، لتعلم هؤلاء الرجال ، الرجولة كيف تكون !

ولم تعلم من أين تبدأ العمل . وجعلت تفكر . وهي تمر يدها على شعرها المتسدل حولها ، المتموج كالحرير ، يفتن العباد لو أرادت به الفتنة . ويأسر قلوب الفرسان ، فسطعت لها الفكرة كما يسطع البرق خلال الظلام . إن هذا هو سلاحها . تشدين الرجال بهذا الشعر الناعم . ثم لتقودنهم من أعناقهم إلى المعركة الحمراء . لتجعلن من ضعفه قوة تأكل القوي .

وذهبت فنادت جارات لها كنن يقتدين بها ، ويسمعن منها . فذكرت لهن مصابيحها في إخوتها ، فحسبها قد دعتهن ليواسينها ويخفن عنها ، ولكنها مضت في حديثها مصعدة ، حتى سمت إلى فلك التضحية . ونسيان النفس ، ورفعتهن معها . حتى إذا استوثقت منهن ، قالت : إننا لم نخاق رجالاً نحمل السيوف . ونقود الحميس ، ولكننا إذا جبن الرجال لم نعجز عن عمل ، وهذا شعري أؤمن ما أملك أنزل عنه . أجمعه قيدا لفرس تقاتل في سبيل الله . لعلي أحرك هؤلاء الأموات .

وأخذت المقص فجزت شعرها . وصنع الفتيات صنعها . ثم جلسن يصفرنه بلحماً وقبوراً لخييل المعركة العابسة ، لا يصفرنه ليوم الزفاف . ولا لليلة العرس .

• • •

أرسلن هذه القيود واللجم ، إلى خطيب (الجامع الأموي) سبط ابن الجوزي العظيم ، فحماله إلى الجامع يوم الجمعة . وقعد في المقصورة . وقد زلزلته الحماسة فما يستقر ، ونفذ منه الصبر ، فما يدري أيا ن يصعد المنبر فما آن الأوان حتى أسرع بالصعود . وجلس وهذه اللجم وهذه القيود بين يديه . والدمع يتفرق في عينيه ووجهه ممتقع شاحب . والناس يلحظون ذلك كله ، وينظر بعضهم في وجوه البعض . فلما أنتهى الأذان قام فتكلم ...

خطب خطبة ، حروفها من نار ، تلذع أكباد من يسمعها . وكلماتها سحر . لم يدرك هو مأتاه لأن قلبه كان يتلقاه من عالم مجهول . فيقذف به على أسائه . ولم يستطع أحد أن يرويها لأنها خطاب من الروح إلى الروح . قد ذابت كلماتها في معانيها . ثم استحالت معانيها إلى إيمان وتضحية وبذل ، فكانت إحدى هذه المعجزات البلاغية التي يهدر بها كل عصر مرة ، لسان محدث ، أو يمشي بها قلم ملهم . كرامة من الكرامات ، وواحدة من خوارق العادات . يجعل الله بها الكلمات أحياء عظيمة . لما روح تجذب الأرواح . ويد تشد الأعصاب ، وعيون تبصر العيون ... وإنما حفظوا منها جملاً : نقلوها إلى لسان الأرض ، فجاءت كتمثال الحساء ، جميل ولكنه من الشمع ... وكان مما حفظوا :

« يا من أمرهم دينهم بالجهاد حتى يفتحوا العالم ، ويهدوا البشر إلى دينهم . فتعدوا حتى فتح العدو بلادهم ، وفتنهم عن دينهم !

يا من حكم أجدادهم بالحق أقطار الأرض ، وحكموا هم بالباطل في ديارهم وأوطانهم !
يا من باع أجدادهم نفوسهم من الله بأن لهم الجنة ، وباعوا هم الجنة بأضلاع نفوس صغيرة ، ولذائد حياة ذليلة » !

يا أيها الناس :

ما لكم نسيتم دينكم ، وتركتم عزتكم ، وقعدتم عن نصر الله فلم ينصركم .
وحسبتم أن العزة للمشرك ، وقد جعل الله العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ؟

يا ويحكم أما يؤلمكم ويشجى نفوسكم مرأى علمو الله وعدوكم : يخطر على أرضكم : التي سقاها بالدماء أبائكم ، يذلكم ويتعبدكم . وأنتم كتتم سادة الدنيا ؟ أما يهز قلوبكم . وينمي حماستكم ، أن اخواناً لكم ، قد أحاط بهم العدو ، وساء بهم ألوان الحسف ؟!

أما في البلد عربي ؟ أما في البلد مسلم ؟ أما في انباد إنسان ؟
العربي ينصر العربي ! والمسلم يعين المسلم ! والإنسان يرحم الإنسان .
فمن لم يهب لنصرة فلسطين ، لا يكون عربياً ولا مسلماً ولا إنساناً ! .:

• • •

أفناً كلون وتشربون وتنعمون وإخوانكم هناك يشربلون بالنهب . ويخوضون النار ، ويتنامون على الجمر ؟

يا أيها الناس : إنها قد دارت رحى الحرب . ونادى منادي الجهاد . وتفتحت أبواب السماء . فإن لم تكونوا من فرسان الحرب : فافسحوا الطريق للنساء يدرن رحاها : واذهبوا فخذوا المجامر والمكاحل ! يا نساء بعمائم ولحى !
أو لا ... فإني الخيول . وهاكم لحمها وقيودها ...

يا ناس . أتدرون مم صنعت هذه اللجم وهذه القيود ؟

لقد صنعها النساء من شعورهن ، لأنهن لا يملكن شيئاً غيرها . يسأغدن به فلسطين . هذه والله ضنائر المخدرات ، التي لم تكن تبصرها عين الشمس . صيانة وحفظاً . قطعنها لأن تاريخ الحب قد انتهى ، وابتدأ تاريخ الحرب المقدسة . الحرب في سبيل الله . وفي سبيل الأرض والعرض ، فإذا لم تقدرُوا على الحيل . تقيدونها بها . فخذوها فاجعلوها ذوائب لكم وضمائر ... إنها من شعور النساء . ألم يبق في نفوسكم شعور ! وألتماها من فوق المنبر على رؤوس الناس ، وصرخ :

« تصدعي يا قبة النسر ، وميادي يا عَمَمَد المسجد ، وانقضي يا رجوم . لنشد أضع
الرجال رجولتهم ... »

فصاح الناس صيحة ما سمع مثلها . ووثبوا يطلبون الموت !

• • •

بانت الحياة هذه القلوب فعاشت بحمية الإيمان . وحماسة الشرف . وعاش فيها
إرث الحدود . فهبت دمشق . يستبق رجالها في طريق الجهاد . وتوالت الأمداد على
المنك المعظم في نابلس . ونابلس دائماً مطلع شمس النصر . ونابلس دمشق فلسطين ،
وكانت هجمة الأسود على الأعداء (الواعلين ...) فطردوهم حتى التجأوا إلى عكا ،
فحاصروهم فيها حتى أشرفوا على الاخلاك : فاستسلموا ...

وكذلك جاء النصر على يدي رجل وامرأة . أما الرجل فقد أكرمه الله فجعله أحد
العظماء الخالدين . وأما المرأة فقد كافأها فرد عليها إخوتها الأربعة سالمين مضمنين ،
لم يصيبهم سوء ...

وعمت الدنيا أن أتباع محمد . لا يذلون ولا يستعبدون ، ما بقي فيهم رجل واحد ،
أو امرأة مفردة ، طوت صدرها على إيمان صحيح . وأنهم قد ينامون ولكنهم
لا يموتون . وأن (الواعلين ...) عليهم ، في فلسطين وغير فلسطين ، قد يقيمون حيناً ،
ولكنهم لا يستقرون ولا يملكون !



عالم

حدثني بعض مشايخي عدمن رأى بعينه وسمع بأذنه . قال :
وقعت نصيحة في حي الميدان ، أجل أحياء دمشق وأكبرها . صبيحة يوم من
أيام سنة ١٨٣١ . بأن إبراهيم باشا قادم لزيارة عالم الشام الشيخ سعيد الخايمي ^(١) في
مسجده وإبراهيم باشا من قد علمت في بطشه وجبروته . ومن يده إلى السيف أسرع
من لسانه . من لسانه إلى القول . وعينه إلى النظر . . . ومن كان جبار سورية . وفاتحها
وسيدها . فطار الفزع بالباب الميدانيين . وهم فرسان دمشق وحماتها . وأقبل بعضهم
على بعض يتساءلون ماذا يصنعون ؟ إنهم يعلمون أن الشيخ لا يقيم وزناً لأحد من أبناء
الدنيا . فلا يبجل سلطاناً لظانه . ولا يوقر غنياً لغناه . ولا يقيس الناس بما على
جسومهم من ثياب . ولا بما في صناديقهم من مال . ولا بما يبتزون من أموال الدول ^(٢) .
ولكن يقيسهم بما في نفوسهم من فضائل ، وما في قلوبهم من إيمان . وما في رؤوسهم
من علم . وإذا نظر الناس من خارج فرأوا الطبل سمياً عظيماً . نظر هو من داخل
فراه خالياً حقيراً . . .

وكانوا يخشون أن يسوء ذلك من شأنه الباشا ، ويودون لو رجوا الباشا
ولكن كيف يصلون إليه وهو في قصره ، حوله الحجاب والأعوان ، والجند

(١) كان عالم الشام قبل طبقة الشيخ محمود الحمزاوي والشيخ محمد طنطاوي والشيخ بكر العطار وأصحابهم .

(٢) يعني الرواتب .

بالسلاح ، ومن حوله الموت ألواناً وأشكالاً ، يحمي حماه ، ويحرس أبوابه ...
ويتمنون لو رجوا الشيخ . ولكن الشيخ أعز من مائة ملك جبار ، تحميه هيئته ،
ويحرسه تقواه ، وتحف به الملائكة واضعة له أجنحتها .^(١)

ولم يكونوا يخافون أن ينال الشيخ سوء . فهذا شيء تحيله عقولهم ، لما استقر فيها
من إجلال الشيخ وإكباره ، ولا تراه أبصارهم . لأنهم يقضون عن آخرهم قبل أن
تراه أبصارهم ، ولكنهم كانوا يخشون الشيخ على الباشا ، ويخشون الباشا على نفوسهم .

* * *

ومضوا يقيمون معالم الزينة ، ويبنون أقواس النصر ، ويرفعون الرايات على طريق
البطل الفاتح ، ويقطفون أزهى أزهار الغوطة لينثروها عليه ... فما كان الأصيل حتى تم كل
شيء ، وأقبل الباشا في الموكب الفخم ، والجنود والسلاح والهدبة ... حتى انتهى إلى
باب المسجد وكان باباً صغيراً ، فاعترض الباشا كأنه يقول له : إرجع أو أرجع
دنياك ، إنك تدخل بيت الله بشراً خاضعاً ، أما أن تكون تزوير إله ... بألف عبد ،
وألف ثوب ، فلا ! إنه لا يجتمع ميراث النبوة التي جاءت بالتوحيد والمساواة ،
ببقايا الجاهلية التي قامت على الشرك والتمييز بين الناس ، إلا محي أحدهما ... فانظر
هل محا باطل حقاً ؟

قال الراوي : وتردد الباشا هنيهة يفكر ، ثم أبعد أعوانه . وترجل ، ودخل المسجد
منفرداً ، وكان الشيخ جالساً على حصير ، قد وضعت فوقه حشية . وكان ماداً رجله
فسمعتة يقول :

... والمرء إذا خاف الله ، وصدق في مخافته ، خافه كل شيء ، لأنه لا يرى كبيراً
إلا صغره عنده أن الله أكبر ... الله أكبر . إن لهذه الكلمة سرّاً إلهياً ، ولكن المسلمين
استعجموا فلا يرددون منها إلا حروفها فارغة من المعنى ، وما فرض الله على المسلم أن

(١) جاء في الاثر : ان الملائكة تضع اجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع .

يقفوا كل يوم (٨٥) مرة أقل ما يقولها ^(١) ويسمعا من المنارة ثلاثين مرة... ^(٢)
إلا ليعلم إنه لا كبير في الدنيا . وأن من كان مع الله لم يبال شيئاً : لا الملك ولا المرض
ولا الوحش . فإو أن المسلم عرف معنى هذه الكلمة وهو يقوذا ، ما عرف النذل
ولا الجبن ولا الكسل .

— قال رجل من طرف الحلقة :

— فإن قناه المنك يا سيدي الشيخ ، أو أماته المرض ؟

فقال الشيخ : سبحان الله ! وهل يهاب المسلم القتل ؟ أو يبغض الموت ؟ إن الموت
شديد لأنه انتطاع الأذات . وخسران الدنيا ، ولكنه لا يكون بهذا المعنى إلا عند
الكافر الذي يعيش في الدنيا ، ويستمتع بملاذها ، أما من كان يتهيأ فيها للعيشة الخالدة ،
ويتقيم فيها كالمستعد للسفر . ويرقب ساعته كما يرقب المسافر ساعة انقطار ، ويراه
حين يمضي لينقضى ربه . كالأب إلى وطنه حين يذهب ليلقى أهله وصحبه ... من كان
هذا شأنه لا يرى في الموت موتاً ، وإنما يرى فيه ولادة جديدة ، وابتداء حياة . وقد
حفظنا عن مشايخنا : أن أفضل الشهداء رجل يقول كلمة حق عند إمام جائر فيقتله بها .
وكان الباشا قد وقف على الحلقة منتبخاً ، مصعراً خده . شامخاً بأنفه ، فنظر إليه
الشيخ رحمه الله . فلم يتغير ، ولم يبدُ عليه أنه رأى فيه أكثر من رجل ، وأشار إليه
أن اجلس كما كان يفعل بغيره . فلم يمانك الباشا أن يجلس ... ونظر في الحاضرين
يقلب فيهم بصره . يفتش عن شيء أضاعه فيهم ، عن الخضوع والإكبار ، التذنين
تعود أن يراهما حوله دائماً . ينتظر أن يقوموا له ، وأن يقفوا بين يديه صنفاً ،
ولم يدر أن القوم كانوا في غير هذا . لم يدر أن الشيخ قد علا بهم : حتى جعلهم يطلون
على الدنيا من شرفة طيارة ، أو من قطع السحاب فيرون الأرض كأنها كفضة قطاة ،
ولا يرون في الباشا العظيم إلا نملة ... فمنذا الذي يحفل بنملة ...

(١) ان صلى الصلوات المفروضة (١٧) : ركعة كل يوم ، وذلك ما لا يكون المسلم مسلماً الا به .

(٢) في كل أذان ست مرات .

وأجال الباشا نظره فيهم حتى عاق برجل الشيخ ، وكانت ممدودة نحوه : فأثار
مرآها كبرياءه وسلطانه ، ورأى فيها علامة تعجب أضيفت إلى عظمته وجلاله ،
إضافة سخرية وتهكم ورآها كبيرة في عينه ، فأحس كأنما هي في عينه . ونظر في
الحاضرين ، ألم يجرد واحد منهم سيفه ، يتقرب إلى الباشا بتخطها ؟

وكان الباشا ينظر بعين بصره المادية لم تفتح بعد عين بصيرته المعنوية : فيفاضل بين
قصره وسريره ، ومكان الشيخ وحصيره ، وبين جنده وأعوانه ، وتلاميذ الشيخ
وإخوانه ، فيوقن أن دنيا الشيخ كلها لا تثبت لحظة لسيفه الذي لم تثبت له دنيا الخليفة
العثماني (امبراطور الشرق) ... وكان كالأسد الذي زعموا أنه مر على قنينة
من القنابل المدمرة ... ملقاة في أجسته ، فعجب منها وحقرها وقال : ويحك أي
حيوان أنت ؟ يا للضعف والمهانة ! أين الأنياب ؟ أين المخالب ؟ أين ... أين ... ؟
يا للهوان ما ذا يصنع بأهله !

قالوا : ثم ركلها برجله ، فانفجرت القنبلة !

وانفجرت القنبلة من فم الشيخ فرجع يتكلم .

...

قال : ومن عجيب صنع الله في الإنسان أن خالقه حيواناً كالحيوان ، ولكنه وضع
فيه ملكاً ووضع فيه شيطاناً ، فمن كان همه من دنياه لذتا بطنه وفرجه ، وابتغاهما
من حل ولم يعرف غيرهما لم يكن فيه إلا الحيوان ، فهو يرتع كما يرتع الحمار ، ويتبع
غريزته كما يتبع . ومن كان همه اللذة من حل وحرمة ، ومن كان لا يبالي ما اجترح
من السيئات ، لم يكن فيه إلا الشيطان ، وكان العقرب والخنفساء خيراً منه ، لأن
مصيرهما إلى التراب ومصيره إلى النار . ومن كان همه أن يعيش في هذه الحياة كما
يعيش في مدرسة يتلقى فيها أساليب الكمال ، ليعيش من بعد في أساليب الكمال ، فهو
الإنسان حقاً ...

ومن عجيب صنع الله في الإنسان ، انه وضع في نفسه الملك ، فلا يحتاج مهما كان

خداً فاسقاً ظالماً إلا تنبيه المملك في نفسه . ليطرد الشيطان . ويقود الحيوان . فقلت أنت الذي يعظه . ولكنه يعظ حينئذ نفسه . وهذا معنى قولهم :

لا تنتهي إلا النفس عن غيرها ما لم يكن منها ذم زاجر

وذلك ثوابه في الجنة . والجنة لا تكون بالتمني والأمل . ولكن بالجهد والعمل . ولو أن تلميذاً أمضى عامه في لعبه ولجوده . ثم تمنى النجاح . أكان ينجح ؟ ولو أن صياداً ألقى بندقيته فلم يضرب بها . ورمى شبكته فلم ينصبها . ثم حلم بالقبضة أكانت أحلامه تعدو في أثر الغزال . حتى تأتي به مكتوفاً ؟ أم كانت السمكة تأتيه وحدها . وعلى ظهرها الملح والشغل تقول له : كلني ؟ ...

قال رجل : ولكن القلوب قست يا سيدي الشيخ . فما علاجها ؟

قال : إن الشيطان لا يأتي إلا من إشعاره الكمان . فأشعر نفسك النقص . وذكرها في الصحة المرض . وفي الحياة الموت ، ولقد أدركنا من مشايخنا إذا قسا قلبه أم المستشفى أو قصد المتبرة . فخوف نفسه المرض وذكرها الموت . والمؤمن لا يزال بخير ما زال بين الخوف والرجاء . فإن لم يخف أو لم يرج فقد هوى .

ولقد سمعنا أن منهم من كان يذني يده من المصباح ويقول : يا نفس إن لم تصبري على هذا فكيف . ويحك . تصبرين على نار جهنم ؟ وإن المؤمن ما ثارت في نفسه شهوة ، إلا أطأها بأنهار الجنة . أو أحرقتها بنار جهنم . فاستراح منها ...

وما الإنسان لولا العقل ؟ وكيف يكون العقل إن لم يكن معه الإيمان ؟ إنه لا يكون إذن إلا كما قالوا : أوله نظمة مبدرة . وآخره جيفة قدرة ... وإن تسلطان لسكرة فمن أسكره سلطانه وعزته على الناس ، فليذكر هوانه على الله . وأن الله أهلك أشد الملوك وهو التمروود ، بأضعف الخلق وهو : البعوض .

فيا من أصله من التراب ، لا تنس أن نهايتك إلى التراب !

* * *

وكان الباشا يشعر والشيخ يتكلم ، كأنه كان محبوساً في صندوق ، ثم فتح عينيه فنشق الهواء الطاق ، أو كأنه كان في ظلمة فاحمة ، فطلع الشيخ عليه شمساً نيرة ، فتضاءل حتى جلس على ركبتيه . ورأى نفسه دون هؤلاء كلهم ، لأنهم ألصق منه بالشيخ وأدنى إليه . ولم يعد يزعجه مرأى الشيخ وهو مادرجله ... بل كان يراه الغريق وبراها خشبة النجاة . وكان يبصرها عالية كجناح النسر المعلق ، ثم لم يعد يرى فيها شيئاً ، لقد استحال الشيخ في نظره إلى فكرة ... لم يعد يرى فيه إلا الحقيقة تمثلت إنساناً .

• • •

قال الراوي : « فلما ذهب الباشا . بعث إلى الشيخ بكيس فيه ألف دينار من الذهب العين ، فلما جاءه به الرسول وألقاه بين يديه تبسم الشيخ رحمه الله ورده إليه ، وقال له : سلم على سيدك وقل له : إن من يمدرجله لا يمد يده » (١)



(١) هذه الفقرة هي من أصل القصة التي رويناها وبينناها عليه .

ليلة الوداع

ولى نهار الاثنين ١٦ جمادى الأولى سنة ٧٣ للهجرة ..

وخلف مكة وهي ثكلى ملناعة ، محطمة القلب ، مخلعة الاضلاع . قد غرقت في دماء أبنائها الذين ضربتهم يد الدهر ففرقت جمعهم ، وشتت شملهم ، فراحوا ... فريق مصرعون على أرض الحرم ، وفريق تحت رايات أمية . قد أرمضتهم هذه الحرب الطويلة التي حملوا عناءها ، وقاسوا أواءها سبعة أشهر لم تدع ضم أخضر ولا يابساً ، فتسللوا من مكة ليواذاً ، ثم تسلقوا هذه الجلاميد التي انتشرت عليها جيوش أمية الغازية ، فاستسلموا اليها وأخذوا منها لأنفسهم أماناً ، ثم كانوا عوناً ذا وجنداً فيها ، وفريق أقاموا على الولاء لابن الزبير ، يذكرون من مات من أهلهم فيغصون بالماء حزناً وألماً ، ويذكرون من فرّ من إخوانهم فيوارون وجوههم حياءً وخجلاً ، ثم انهم ينتظرون الموت بين كل لحظة وأختها ، ويعيشون خائفين في مقام ابراهيم (ومن دخله كان آمناً) ! .

وألقى الليل غلائله السود على هذه المدينة التي عضتها الحرب بنايها ، وأصابها بأوصابها ، فباتت تنفس الصعداء من شدة يوم قاس عبوس ، تحالفت فيه الطبيعة العاتية والبشرية الطاغية ، على حرب هذا البلد الحرام ، فلم يكن ينجو من حجارة المنجنيق إلا إلى شرى الصواعق ، فكأن الطبيعة قد شمعت عن ساقها للقتال ، فهي ترمي المهاجمين والمدافعين والآمنين من صواعقها ورجومها بشواظ من نار ، تصيب به الدور والمنازل ، فتدعها قاعاً صفصفاً ، كأن لم تغن بالأمس . والحجاج ما ينفك مجالداً مقارعاً ،

يقذف بأحجار منجنيقه وجنادله بيت الله ، فيهدم جدران بيت الله . ويرمي بيوت الناس ، فيهلك من بقي فيها من أشياخ عجز ، لا قبل لهم بالحرب وأهوالها . وأطنال برءاء ، لا يد لهم في جرائرها وأوزارها ، فيختلط عويلهم وصرائحهم بهزيم الرعود ، وزئير الطبيعة ثم تضيع هذه الموسيقى المروعة في جلبلة الانهدام ، ويخفي الغبار النائر حول المنازل المهذودة ، هذا المشهد المرعب لحظة من زمان . ثم ينجلي فإذا التراب قد حوى كل شيء ، واذا المدينة العامرة المقدسة مقبرة من المقابر !

وأمتد رواق الليل ، فنامت الطبيعة وكفت عن هياجها وجنونها . وصفت السماء وأطل البدر من عليائها ، ونامت الحرب ، وكانت يومئذ طفلة لم تستكمل شراستها ، ولم تم أنيابها ، ولم يستطر شرها كما استنظار اليوم فعدت لا تنام ولا تنيم . وكان في نفوس المتحاربين شرف ووفاء . فاستراحوا وأراحوا . ونام هؤلاء الأبطال المدافعون نوم الأسد في آجامها ، كما نام هذا الجيش الجرار الذي إمتد زحفه حتى بلغ أبواب الحرم ..

سكن الليل وعم شوارع مكة المتفجرة الخالية ، حيث كان جيش ابن الزبير يروح ويغدو بطبوله وراياته ، فطوت كف الردى راياته وطبوله . وهذه الأوعار العجم التي انتشر عليها جيش الحجاج بكبرياته وعنفوانه ..

عمها كلها صمت عميق وهدوء شامل ، فلا تسمع في ثناياها الا صيحة حارس يتنقل شبحه خلال السواد ، أو صرخة جريح معذب ، ثم يعود السكون .

• • •

نامت العيون ، واستسلم المتحاربون إلى سبات أعمى ، لا تبصر فيه مقلة حلم ، وأراق القمر غدوبته وهدوءه على هذه الجبال فبدت جميلة فتانة . فجفا فراشه سيد الموقف ، وبطل الجيوش المظفرة وقائدها ، وانسل في خفية كيلا يشعر حرسه وأعوانه ، فجلس على باب الفسطاط يتأمل هذه السماء العاصفية ، ويحدق في النجوم المتوقدة المتلألئة ، فتفتح عليه باب الذكرى ، فيلج منه إلى سالفات أيامه فيعيش

فيها وينسم أريجها .. وحملته هذه النجوم إلى ذكرى بعيدة . فأحس بأنها عزيزة عليه محيبة إليه . فظنق يتأمل صورة تلك الليلة .^(١) التي قضاه في الصحراء وحيداً فريداً ، قد هجر بلده وحياته . ليقتدم على بلد لا يعرفه . وحياة لا عهد له بها . ويستعيد خواطره التي كانت تحتاج في نفسه ، وذهب إلى أبعد من ذلك فذكر أيامه في تلك الأعالي الباذخة . حين كان معلماً لصبيان الطائف . وأمانيه التي لم يكن يأنس إلا إليها ، والتي يحاول أبدأ أن يستشف خيالها . من وراء حجاب الغيب .. واستمرراً بقايا تلك اللذة التي أحس بها وهو خارج من دار (مستشار الدولة) روح بن زنباع . وقد قلده شارة الشرطة . فكانت عنده أكبر من شارة الخلافة .

أين ذلك الشرطي من قائد الخميس العرمم . الذي ترك جنات الشام الألفاف ، وسهوله الفبيح ، وأبى أن يقطف ثمرة النضر . وأزاهر المجد . إلا من جلاميد مكة وصخرها . فأمّ بزحفه رؤوس الجبال . ثم هبط نحو مكة ، يستدري براية الظفر ، حتى أمتد بزحفه . هذا الذي كان يحسبه مجيداً ، إلى أبواب الحرم .

وألتمى نظرة القائد الشاب (ابن السبع والعشرين) على الحرم فرأى الكعبة . وقد أضاءها القمر بشعاعه الكابي . فبدت مهادمة مصدعة الجدران رهيبة . فراعته ذلك وأخافه . وعراه إرتجاف شديد هزّ كيانه كله ، فعاف ذكرياته . وأعرض عن المجد والأمان ، ولم يبق في فكره إلا صورة بيت الله المهتم . تظل ماثلة له بعد أن أغمض عينيه عنها . فيحس بأنها تثقل على قلبه حتى لتكاد تسحقه سحقاً . ويكبر هذا الذي أقدم عليه وتملاً نفسه خشية الله . فيندم وبشند به الندم .. ثم يذكر وعده الذي وعده الخائفة : أن يتضي على ابن الزبير ويعيد إلى الدولة سلامتها ووحدةها . ويشعره جلال هذه الغاية وسهولتها استصغار ما أتى . ويذهب ياتمس لنفسه المعاذير .

أليست وحدة المسلمين وسلامة دولتهم ودعامة حياتهم . ورأس دينهم . الذي قام على توحيد الخالق . ووحدة المؤمنين

(١) راجع قصة (هجرة معاوية) .

أليس ضمان هذه الوحدة من واجبات الخليفة ؟

وما ذنبه هو إذا أمره عبد الملك بضرب الكعبة لتحقيق الوحدة . وما هو إلا جندي في طاعة عبد الملك ؟

بل ما ذنب عبد الملك وهو أمير المؤمنين الموثوق عن مصالح المسلمين وسلامة دولتهم ؟ أيدع المملوكة شطرين يعيث فيها المفسدون ويهاكها الخلف ؟ وأي جسم يعيش إذا انقسم جسمين . وغدا قطعتين ؟

أو ليس علي عبد الملك أن ينقذ المسلمين من هذا الخلاف ولو دفع ثمنه حياة ابن الزبير وسلامة حصونه وقلاعته ؟ فما ذنب عبد الملك إذا اتخذ ابن الزبير بيت الله حصناً له واحتفى به . واستغل حرمة ؟

أمن حق نبيت الحرام على عبد الملك أن يدعه آمناً في ظله . يدعي ملكاً . وينشر راية ، ويتخذ جيشاً . فينتهي في مشعر الحج ملكان مسلمان . ورايتان وجيشان . ويأبى الله والاسلام إلا راية واحدة ، بجيش واحد . يسيّره خليفة واحد ؟ أو لم يكن أخلق بابن الزبير لو جنب بيت الله أوحاش الدنيا . وأوضار المطامع . وخرج بجيشه إلى الحل ؟

وانطلق القائد الشاب يفكر في ابن الزبير وعبد الملك . ويعود به التفكير إلى رحلته الأولى يوم صافح سمعه للمرة الأولى اسم ابن الزبير . فاذا هو اسم ضخم مجلجل وإذا هو ينطوي على السيادة والظفر . والملك الواسع الذي يظلل ثلاثة أرباع البلاد الاسلامية . وإذا اسم عبد الملك ضاو هزيل . فما زال هذا يضحخ ويعظم . وما فتىء ذلك يهزل ويضؤل ، حتى انتزع عبد الملك الذي كان قابلاً في زاوية قصره في الشام ، ينتظر أن يغلبه عليه ابن الزبير - انتزع العراقيين والحجاز ، ونازل عبدالله في قرارة داره ، ودارة ملكه . أليس هذا دليلاً قاطعاً على أن ابن مروان أحق بالخلافة من ابن الزبير ، وأقدر عليها وأولى بها ؟

وأفلتت منه نظرة فوقعت على الكعبة ، فأعادت صورتها الرهبة إلى صدره ، وأحس بوجل شديد ، فذكر تهيبه الاقبال عليه ، اذ كانت مثابة الأمن ودار السلام ،

منذ الزمان الذي يضيع أوله في طفولة البشرية . وذكر كيف فرغ جنده وأحجموا ،
فشد من عزائمهم . وهون الأمر عليهم . وكيف عبست السماء وبسرت ، حين
شرعوا بتسديد الرماية إلى صدر الكعبة . وأنقت برجومها وصواعقها . فقتلت منهم
مقتلة . فارتدوا وامتنعوا . وظنوا أن الله مهلكهم كما أهلك الأمم من قبلهم . فانصدعت
قلوبهم وطارت نفوسهم شعاعاً . فقام فيهم بطمئنتهم ويهديهم :

- (أنا ابن تهامة . وهذه صواعقها ^(١)) فلا تخافوا ولا تراعوا سنة الله التي
لا تبدل لها ، وقوانينه في كونه ، لا تغيرها أمور البشر ولا تبدلها حوادث الأرض ،
وما قيمة جند الشام حتى يدع الغللك من أجلهم سيره . وتخرج الطبيعة عن سننها وتخالف
طريقتها ؟ وانطلق يحدثهم حديث رسول الله ، ومعلم العالم ، حين استأثر الله بابنه
إبراهيم . فكسفت الشمس فظنوا أنها كسفت لموته . فنبأهم أن الشمس والقمصر آياتان
من آيات الله لا تكسفتان لموت أحد ولا لحياته .

فاطمأن الجند . وعادوا إلى تسديد الرماية . وضرب الكعبة ، فعادت السماء إلى
زمجرتها وزئيرها ، وانتضت صواعقها . ولكنها أصابت من جند ابن الزبير مثل
الذي أصابت من عسكر الشام . فأمن الجند وأقبلوا يوالون قذف الحجارة .

إنه لم يضرب الكعبة على أنها بيت الله ، ولكن ضربها على أنها قلعة من قلاع ابن
الزبير ، ولم يقام مكة فاتحاً . ولكن قدمها حاجاً محرماً . وحج بالناس ولكنه لم يطف
... ولم يكن له إلا الوحدة الإسلامية غاية . فهو يعلم أن المسلمين كرجل واحد . فأى
رجل هذا الذي له رأسان ؟ ولقد نهاه فقيه العصر وإمامه (عبد الله بن عمر) أن
يضرب الكعبة فيؤدي الطائفتين بها ويعطل مناسك الحج . وشدد عليه في النهي ، فأطاع
وامتنع وترك الناس وحجهم . حتى إذا استكملوا مناسكهم وفرغوا من عبادتهم ،
فاد فيهم بالرحيل إلى بلدانهم وعاد يحارب ابن الزبير .

(١) هذه الجملة من التاريخ .

وسكن الحجاج إلى هذه النتيجة التي انتهى إليها ، واقتنع بأنه لم يأت منكراً^(١)...
فعاد يتأمل هذه النجوم الصافية ، وهو عازم على بناء الكعبة ، وسد هذا الخرق
الذي خرقه ، وإصلاح ما أفسدته الحرب ، وراح يحدق في القمم الشاهقة التي تلوح
له عن بعد دائية أعاليها في الشعاع الفاتن الذي يسيل من صفحة القمر ... فذكرته كرة
أخرى بيته ومدرسته وقريته الصغيرة فأحس كأن قلبه ينازعه إلى أيامه اللاتي سلخن
فيها ..

— سلاماً أيتها الأرض الضائعة في طريق السماء .. لقد وفيت لك بنذري ، فمقدت
إليك المجد ، ووهبت لاسمك الظفر ، وخرجت منك معلم صبيان ، ولكني عدت
إليك قائد الجيش العرمم ، فثبت اسمك على صنمحات البطولة. فلا يذكر التاريخ
عودة الوحدة الإسلامية الا ذكر معها (الطائف) !
ثم استغرق في تأمل عميق

* * * *

في تلك الساعة كانت تهدف في طرقات مكة الحالية ، عجوز طويلة ، لا تبالي هذا
الظلام الثقيل الذي يحف بها ، لأن عينيها المنطفئتين قد ألفتا هذا الظلام منذ أمد طويل.
وكانت تؤم منزلاً من هذه المنازل المقفرة ، فتمضي إليه قدماً كأنما هي قد ألفت
طريقته ، وحفظته بذاكرة قدميها ، لكثرة ما تردد عليه في الصباح والمساء ، فهي
تخطى هذه الأنقاض ، وتدور حول الجدر ، لم تقف حتى غيبتها مداخل المنزل المهجور
فقبت في زاوية من زواياه جامدة ، لا تتحرك ولا تهمس ، كأنما هي بعض أثاثه
القديم الهرم ، الذي تركه أصحابه زهداً فيه ... وجعلت تجيل عينيها الهامدتين في
أرجاء عالم مجهول ، فيبدو لها مترعاً بالألوان الفتانة ، زاخراً بالصور البارعة ، فلا

(١) هذه حجة لنفسه ، والحق ان الحجاج من الظلمة المعتدين ، ولم يكن من امراء الخير ولا من
باهل الصلاح .

تمل التحديق فيه ، والتجوال في أرجائه ، تفتش عن هذه الفتاة التي عرفتها في سالفات أيامها ، فلا تلبث أن تجتلي خيالها فتطمئن إليه وتجد فيه صبيةً تحسب وبها لغة أمانها ... وترى هذه الفتاة وقد أهديت إلى بعنها الذي خلا كيسه من المال . ولكن نفسه فاضت بالحب . فشاركته حبه وفقره . وأقامت من نفسها أليسا لنفسه خادما لبيته ، وسائسا لفرسه ، تلتقط لها النوى ، ثم تدقه . وهي سعيدة هائلة . تعيش أيتها وزوجها ، الذي تنهل السعادة من نظراته وكلماته وتمسك اخنائة من حبه وإخلاصه . فاستراح قلبها إلى هذا الخيال الذي ترى . وشعرت كأن دم الشباب قد عاد يجري في عروقها بحرارته وتوثبه وفورانه . وأحست بالنور قد عاد يضيء في عينيها . فاستقرت على شفيتها بسمة عريضة ، طغت صورتها على جبينها المجدد . فأومض فيه بريق من السعادة خاطف ، ورجع إلى وجنتيها ظل من حمرة الشباب الآفل . حتى لو أن انساناً رآها في تلك الساعة لما رأى عجوزاً شمطاء عمياء . ولكن فتاة في السابعة عشرة ...

ونفضت عنها العجوز غبار السنين المائة . وانطقت تعيش في بقايا ليلة من ليالي زواجها الحافلة بالفراغ والنبيل والسعادة . فتصفي إلى أغاني الحب . تبعث هدساً . من فم ذلك الزوج المعمود ، وتذوق بين ثناياها حلاوة قبالاته المعسولة . وتسمع بأذنيها وسوستها الناعمة . وتبالغ في التخيل . فتمد يديها تعانقه . وتعفي وجهها في صدر العريض ، وتلقي برأسها على قلبه الكبير الخافق . الذي يعفق أبدأ للحب والمجد والايمان.... ولكن برودة الحجر الذي ألقت عليه رأسها أطفأت جذوة أحلامها . وردتها إلى حاضرها . فاذا هو ينشر أكفان الموت على مسراتها ومباهج حياتها الماضية ، فتنى كيف استقادت اليها السعادة كاملة على يد هذا الزوج . الذي تبعته الدنيا حين تبع دين محمد ، فقدا يحمل على ألف فرس في سبيل الله ، بعد أن كان ماله كله فرساً تعلقها زوجه النوى . وتغيب صور هذا الماضي في الليل السرمدي ، الذي غمر حياتها ، وأترعها بالآلام والأوجاع . فتمنت لو أنها ماتت وهي بنت الخليفة العبقري ، الذي صحب رسول الله وخلفه في أمته ووقف وحده حين كانت

الردة في وجه الناس كلهم . ثم ظفر بهم وساق المرتدين عن دين محمد . ليقاتلوا في الشام والعراق تحت راية محمد ... أو لو ماتت وهي زوج البطل الذي ملأ حياته بطولة وشرفاً ومجداً . ثم ذهب فمات في ساحة الشرف والبطولة والمجد . أو لو ماتت وهي أم الخليفة الذي عنت له الحجاز والجزيرة والعراق وخراسان ... وكاد يدخل دمشق مظفراً منصوراً ... ثم ضاع منه كل شيء . حتى كادت أمية تدخل عليه مكة مظفرة منصوراً .

واستياست من طلوع الفجر الذي يزيح ظلمة هذا الليل ، فانطلقت تناجي الموت . وتدعوه بأحب الاسماء وأجملها . وأذكرها الموت أحبها الذين طواهم في أحشائه . فاشتتت قرب الأحبة ... وكان من أقوى رغباتها في هذه الليلة أن تقف على قبر أبيها . الذي يجاور أشرف بقعة في ملكوت الله الواسع ، في الغرفة الصغيرة التي بنيت من الحجر والطين . وسعف النخل ، في العشايا الأولى ، لاستقرار الاسلام في يثرب . فكانت مقر أختها الصغيرة ، أحب زوجات الرسول اليه ، وأفضل أمهات المؤمنين . وعالمة النساء ومعلمة الرجال . ثم كانت مهبط الوحي وصلة الأرض بالنساء . ثم كانت دار الحكومة ، فيها نظمت خطط الحروب ، وأعدت قوانين المجتمع . وعقدت مجالس الشورى ، ومنها خرجت الكتب إلى شيرويه ملك الفرس كسرى شاهنشاه .. وهراقليوس قاهر كسرى وسيد الدنيا في عصره . ثم خرجت الجيوش لتمحو ملك شاهنشاه . وتخلف سيد الدنيا في أرضه ، وتعود بأسلابه . وفيها عاش النبي ﷺ حتى اذا مات دفن فيها . ثم أعلق بابها لا إلى سنة ولا إلى عشر ولكن إلى ... يوم القيامة .

وكان من أمتع أمانيتها هذه الليلة أن تقف على قبر زوجها المائل في آخر البادية . في الزاوية التي تلتقي فيها بادية العرب بسواد العراق^(١) ، بيساتين العجم ... بالبحر ! فتجدد بزيارته عهد الماضي ...

(١) أي على قبر الزبير . وهو في قرية (الزبير) الواقعة في مكان البحيرة القديمة .

وكانت تتناهى اليها بين كل آونة وأخرى صرخة من صرخات الحراس ، أو أنة
عن أنات الجرحى . فتردها إلى وعيها ، فتأمل هذه الشعاع الواحدة ، التي بقيت لما
من شمس حياتها الآفلة ، ابنها عبدالله ، الذي تجدد فيه عبق غرامها بزوجها . وعطر
الأمجاد التي عاشت فيها ، والمعارك النبيلة التي شهدتها ، وتذكر فيه تاريخاً طويلاً ،
تلتقي حرادته الكبيرة في هذا التاريخ الصغير . الذي تحفظه لابنها ، وتنقلها الذكري
إلى هذا التاريخ ... فاذا هي في دنيا قريش ، وقريش في حيرة وقتل . قد خابت وفشات
في رد هذا السبل الأنبي بأكنها الضعيفة . ورأت الاسلام ينتشر ويمتد ، ولا يثبت شيء
أمامه ، فائتمرت بالنبي تقتله ... ولكنها لم تجده في بيته . ولا تعلم أين هو ... لا يعلم
أين هو الا رجل في مكة وامرأة . أما الرجل فعلي ، وأما المرأة فأسماء ... يا لروعة
هذه الذكريات !

لقد كانت في بيتها تعد النحم لتحمله إلى رسول الله (فإن رسول الله يعجبه النحم^(١))
وإذا بالملأ من قريش يدخلون عليها ، وهم يرعدون ويبرقون ، يزهون بكبرياتهم
الفارغة . وعنفوانهم المزيف ، وثيابهم الزاهية . فقال ذا أبو جهل بلهجة حاول أن
يجعلها فخمة نبيلة . ولكنها جاءت أقرب إلى التصنع والاضحاك :

— أين أبوك ؟

— وما يدريني أين أبني ؟ لا أعلم ؟

فلم يرفع هذا السيد الذي عجز عن رد محمد . عن أن يرفع يده على امرأة ... لقد
لطمها لكمة أطارت قرطها ... ومدت العجوز يدها لتلمس أذنها على غير شعور منها .
ومست بيدها بطنها . فقد كانت يومئذ حاملاً ... يا لبطولة هذا السيد القرشي الذي
ضرب امرأة حاملاً !

ثم استدار المشهد . فاذا هي قد انطلقت من دنيا قريش الضيقة المحصورة ، إلى دنيا
محمد الواسعة التسيحة . لقد هاجرت تقطع الصحاري والتفار . حتى أشرفت على نخيل

(١) جملة من التاريخ .

المدينة . ترقفت على هذه الجنان الظاهرة . التي أسس فيها أول مسجد بني على تقوى .
فسمعت وحدها هذا انشيد العالوي . التي أصفت إليه الدنيا كلها من بعد . والذي
يتردد انيوم خمس مرات في كل نهار . تتجاوب به المناثر في كافة أرجاء الأرض .
وهناك : وسط هذا النشيد . الذي يتألف من كلمتين اثنتين . لم تعرف أنسة البشر
منهما هديرأ . وأشد في النفس تأثيراً هما : (الله أكبر) ! صاح البشير أن (أول
مولود في الاسلام قد استهل) . فانشرحت به صدور المسلمين حتى كأن كل واحد
منهم كان أباه . وأخذ رسول الله ﷺ فحنكه وبارك عليه . ودعاه ...
وتثلثت عبدالله وهو صبي يبائع رسول الله . ورسول الله يتسم له ابتسامه تفيض
بالحب والرضا ...

ورأته وقد شب حتى صار يلعب مع الصبيان في الضرقات . وإنه لثقي لعبه وإذا بعمر
التقوي المهيب يمر فينثر النسبية ويتوارون . ويبقى عبدالله وافقنا ...
— ليم لم تفر كما فروا ؟

— ولیم أفر ؟ وما أنت ظالم فأخشي ظلمك . ولا أنا مذنب فُرهب عندك ؟
فيعجب به عمر ، ويكبر جرأته وبلاغته .

ثم تبصره وقد علا مكانه . واستعلن أمره . وضخم سلطانه . فانقادت إليه الأمانى
طبعة . وتبعته الدنيا خاضعة .. ثم انهار هذا كله ... ثم انهار هذا كله ..
وراحت العجوز تحديق بعينها اللتين حرمتا النور ، في أفق مجهول . وتفكر في
غير وعي . فقادها الفكر إلى دنيا تحبها وتألفها . فإذا هي ترى كرة ثانية بداية هذا
الصباح الذي غمر الكون ضوءه ، وغسلت أنواره الأرض من أرجاس ليل طويل ،
ماتت في ظلامه الفضائل والمثل ... وتفكر في قوة هذه الرساله ، التي انتصرت على
العالم كله .. ثم ترى حاضرها الممض فتشجى وتتألم . ما أسرع ما نسي الناس هذه
المبادئ . وأجدبت نفوسهم منها ، وهذه أصلاذ حراء ، وهذه جلاميد ثور ،
لا تزال مخصبة مخضرة ... أف تكون هذه الحجارة وهذه الجلامد أوفى وأحفظ من

قلوب البشر ؟ واذا نسي الناس أفلا تذكرهم هذه الجبال الشاهقة . التي شهدت عزلة محمد ، وإيواءه اليها ليالي بطونها . يفكر في خلق السموات والأرض . واختلاف الليل والنهار . ويمتدح وراء مظاهر المادة عن مبدع المادة ... ثم شهدت منبثق الوحي ، وأشرق عليها هذا الوحي فأضاء جنادها وصخورها . قبل أن تسطع أنواره في السهول والنرى . وسمعتة وآمنت به قبل أن تسعه هذه المدائن العظيمة المشورة في الأرض ؟ أولاً تذكرهم ساحة الحرم ... ومثلت لها (حين ذكرت ساحة الحرم) الكعبة المهتمة . فهأنذا أن يعبت المسلمون بحرمة الكعبة وهي التي كان المشركون على جهالتهم وكفرهم . أكثر لها إجلالاً . وأشد احتراماً . وصبت سخطها على ابنها وعلى الأمويين جميعاً .

أيستحلون البلاد الحرام في الشهر الحرام . وينسون مبادئ الرسول ولما يمتدح على وفاته الاثلاث وستون سنة أو ينقضون عرى الاخوة بينهم . ويقاتل بعضهم بعضاً في بطن مكة أو مكة ؟ أو لم يبق في الأرض ظالمون ولا طغاة يقاتلونهم ؟ أينض المسامون أيديهم من هذا الأثر العظيم . ويهملونه حتى يبدو في عبورهم مجدباً . وهو الذي بلغ من خصبه أن شرع أيام البشرية الماضية بالحياة . وهو كتميل بأن يغمر أيامها الباقيات حياة ومجداً وفضيلاً ؟ وآلمها من ضياع هذه المبادئ أكثر مما آلمها من خذلان ابنها وضياع عرشه . بل هي قد نسيت ابنها . ونسيت هذا الملك الذي رجع في بحبوخته تسعة أعوام . جاء يتجرع الآن مرارتها . ونسيت ماضيها الآفل . بل لقد نسيت نفسها . وذهبت تفكر فيما هو أعز عليها من حاضرها وماضيها . وابنها ونفسها . في هذا المبدأ الذي أخالحت له . إنه لا يتنصر هذا المبدأ وعلى الأمة واليان يضطرعان ويقتلان . فلا بد من ذهاب أحدهما . فإذا لم يذهب عبد الملك . فليكن ابنها هو الذي يذهب . ولتشر حياة الأمة بحياة ابنها ..

وكان عزمًا خطيراً . وكانت فكرة هائلة يرتجف لها أقوى القلوب . ولكن قلب أسماء الذي يحمل قطه من الأثر الأخلاقي الذي صهرته شمس هذه البلاد في الألوف المؤلفة من السنين . وأنضجه الاسلام وهدبه . لم يرتجف ولم يخف .. كان همها أن تستريح هذه البلاد المقدسة ليلة آمنة - إثر نهار مليء بالخطوب . لتستيقظ مع

الفجر قوية نشيطة ، فتغنيء إلى ظلال وحدة هائلة تستجم فيها . وتفرغ لنفسها ، لتفرغ من بعد لأعدائها . ولكن العجوز غفلت لحظة عن عواطفها التي خنقتها في صدرها ، فانطلقت صارخة صاخبة ، فتصورت العجوز نفسها بعد عبدالله فلم تطق أن تتصور ... وعادت اليها أنوثتها فعظم عليها أن تفرط بولدها الحبيب . وهي على عتبة الموت ، وهو عمادها وعونها . وحاضرها ومستقبلها ، وهو كل شيء لها ، وعادت تعرض ذكرياته . منذ كان طفلاً . إلى أن غمدا شيخاً ، فتحس أن أمانها كلها تختصرها ساعة تضم فيها ابنها إلى صدرها ، ثم تنسى نفسها . وهي بين ذراعيه ، حتى تسلم الروح ، إنه حيائها ، وهو كل شيء لها .. وراحت تبكي بعينها المنطفئتين بكاء موحشاً .

• • •

وفي تلك الساعة كان في الحرم طائفة من الناس تحت علم منصوب في ظل الكعبة ، أولئك هم بقية هذا الجيش اللجب ، الذي كان منتشرأ بين أقصى خراسان والبحر الأحمر ، وهذا هو العلم الذي خفق على هذه البلدان ، تسعة أعوام كاملات . وليس أروع من الجيش القوي الظافر ، الذي يسد منافذ الفضاء ، ويحجب الشمس . وتغنوا له الشوامخ الراسيات ، وتميد بثقله الأرض ، الا هذه الحفنة من الرجال الأشداء الصابرين ، الذين تخيرتهم شجاعتهم وعبقريتهم ، فكانوا بقية السيف ، وطرائد الموت ، ثم آثروا الموت أمجاداً ، على الاستسلام والهوان . وتلك هي حال هذه الطائفة من الناس .

وكان في الجمع شيخ مستند إلى جدار الكعبة ، تومض شعوره البيض في شعاع القمر ، يفكر ، أو هو يبدو كالمفكر ، على حين ينجرع مرارة خيبة قاتلة . ويحس من حرله زمهريراً بارداً ، فكان بحاجة إلى صدر دافئ ، يقبس من حرارته الحياة والأمل ، ولقد كان شيخاً في الثمانين ، ولكنه لا يزال حيال أمه ذلك الطفل الذي يتمرغ في أحضانها ، ثم يضغط فيه ، ويرفع وجهه الصغير ، إلى وجهها . ويقطف

بعينه ثمرات الحب الحلوة من عينيها الوادعتين ، وبعث أصابعه تعبت بوجهها وشعرها .
وملأت نفس هذا الشيخ صورة أمه ، فنسي اليوم العصيب ، وغفل عن تصور
النصر الذي أفلت منه . كما يفلت الطائر الحميل من قنصه ، ثم يوغل في مسارب السماء
وخيبته التي جعلت حياته سوداء فارغة ، كظلام الليل ، ولم يعد يفكر إلا في هذه
الصورة التي أعارته من بهائها وسموها ، جناحين طار بهما إلى أيامه الخوالي ، فتغلغل
في رحابها الواسعة ..

...لم يبق له من صورة هذا الماضي العظيم - من عالم أبي بكر والزبير - إلا خط
واحد ضعيف كابٍ ، بوشك أن تعدو عليه الأيام فتمحوه اليوم أو غداً ، لم يبق
إلا ذات النطاقين أمه ، أسماء العظيمة ، التي كانت تاريخاً حياً ، وكانت التفضيلة
المجسدة ، فأنتلق إليها يودعها قبل أن يموت ، وكان الموت الشريف أجمل أمنية لهذا
الشيخ البطل ، الذي خسر الملك والجيش ، ولكنه لم يخسر الشرف ولا العبقرية : بيد أن
هذا الشيخ يخشى أن يدع هذه العجوز تحمل معها آلام الثكل والوحدة ، حتى تبلغ بها
قبرها القريب .. فكيف السبيل إلى إكراهها على التسليم به والرضا بموته ؟

وقام الشيخ من مجسه يسلك هذه الطرق الموحشة ، التي سلكتها أمه في المزيج الأول
من هذا الليل . فلم يتف في طريقه على الأطلال . ولم يثره مشهد الملك الضائع . لأن
أفكاره كلها قد تعلقت بأمه ، فهو يجب أن يصل إليها ، فيمضي مسرعاً ، حتى
إذا دنا من هذا المترنم المظلم الموحش ، تباطأ في سيره ، حتى إذا بلغ بابه تهبب الدخول
عليها ، وأحس بالعجز عن مواجهتها بعزمه ، وهو الذي لم يحس بالعجز عن مقابلة
الحميس العرمرم ، ولم يشعر بالضعف عند مجابهة الشدائد والخطوب ، فوقف وأطال
الوقوف ، وتقاذفته الأفكار ، حتى أحس كأن رأسه خلية نحل ... كيف يمسك
قلبه أن يتخاذل ويضعف أمام بكائها وتوسلها إليه أن يبقى ، أن يبقى إلى جانبها في
أيامها الأخيرة ...؟

كانت الأفكار تصطرع في رأسه : وهر هادىء ساكن لا يبدي حراكاً . قد تعثر بصره بهذه العجوز التابعة في الزاوية ، ينيرها شعاع ضئيل من أشعة النمر ، يستط عليها من خروق السقف المتهدم ، وكانت أذنه مرهفة مائلة اليها ، فسمعها تردد اسمه في خفوت ، بلهجة يقطر منها الحب والشوق ، واليأس والحزن ، فلم يتمالك نفسه هذا الشيخ أن صاح : أمي ! وألقى بنفسه بين ذراعيها ، فمرغ لحينه بوجهها ، وخاط أنفاسه بأنفاسها ، ونفسه بنفسها ، وغابا معاً في حلم ممتع نشوان .

ثم تنبتهت العجوز ، وذكرت نذرها الذي نذرتة للوحدة الإسلامية ، وعزمها الذي أعتزمتة ، فخلصت من عناقه برفق وقالت له :

— ما جاء بك ؟

فحار في جوابها ، ولم يدري كيف يعلن عزمه على الموت ، ثم آثر أن يرى ما عندها وقال لها :

— (يا أماه ، قد خذلني الناس حتى ولدي وأهلي ، ولم يبق معي الا اليسير من أصحابي ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة ، والقوم يعطونني ما أردت من الدنيا فما رأيك ؟^(١))

— قالت : أهذا ما جئت لأجله ؟ .. أجشمت نفسك عناء المسير فوق أنقاض المدينة المقدسة التي هدمتها ، وتركتها أطلالاً ، لتقول لي إنك جنت ، وفقدت حميتك وشجاعتك أجشمت تحتمي بصدري من الموت ، الذي سقت اليه هذه الألوف المولفة من المسلمين أهذه هي خاتمك يا ابن الزبير ، ويا من جده أبو بكر ، ويا من جده عبد المطالب ؟ ولم يكن عبدالله يتوقع أن يسمع منها ما سمع ، فطفق ينظر مشدوهاً ، يود أن يصيح من الفرح ، لأنها رضيت له بالموت في مععان المعركة ، وذلك أقصى ما يريد ، ولكنه لا يدري إلى أية غاية ترمي فهو يكتفم صبيحته وبصمت ...

— ما لك يا عبدالله ، أنسيت أمجاد أبيك الذي يجري دمه في عروقك ... تعال أقرب أحدثك بأمجاد أبيك :

(١) هذه الجملة من التاريخ .

في عشية من عشايا الاسلام الأول خرج أبوك من بيته هذا . فتنكب طريق الحرم حيث تمثال قريش بجبروتها وشرورها . وأم هذه الجبال القربية يحمل في نفسه بهاء هذا الدين الجديد فهو يجب أن يفزع اليه وأن يستمتع بعزلة هائلة ، فلم تكده تحويه أعالي مكة .. حتى طرقت أذنيه همس مرعب ارتجفت له أضلاعه ، وأضطرب قلبه . وأنساه غايته التي خرج من أجلها . لقد سمع أن محمداً قتل . وانطفأت هذه الشعلة التي أضاءها الله ليقبس منها العالم ضياء نهار دائم . وجف هذا الينبوع . ووقف الاسلام الذي جاء به للعالم كلها . عند هؤلاء النفر القلائل الذين أسلموا ، وكان أبوك يعلم أن قريشاً التي قتلت محمداً ستمحو هؤلاء النفر وتبيدهم . ولكن أباك لم يخف . ولم يفزع ، بل ثارت في نفسه حماسته ؛ وصرخ في عروقه دمه ، الذي يحمل ميراث عصور طويلة من النبيل والشرف . وتوثب إيمانه في صدره وأشعره أنه يتقدم بهذا الايمان على العالم كله ، فسلّ أبوك سيفه ، ورجع يريد أن يثار لمحمد فإذا محمد صلى الله عليه وسلم حيّ يبلغ دعوة ربه .

فكان أبوك أول من سل سيفه في سبيل الله . فسطع من سيفه الوميض الأول لهذا انصباح . الذي غمر الكون بالضياء الذي أشرق من سيوف المسلمين في بدر وهوازن والتمادسية واليرموك ونهاوند ...

أفلا يهز حماسك حديث أبيك ؟

فلم يجب عبدالله ، وآثر أن يظل ساكناً .

فرجعت تقول :

— يا أسلمي . لم يعد بشرك حديث أبيك . فلن أحدثك عن أمجاده ... فهل تثير حماسك شجاعة جدتك صغمية بنت عبد المطلب ؟ انك تعرف حديثها . وتروي خبرها مع حسان بن ثابت في الحصن ... فهل أطفأت لذائد الحياة غيب الحماسة في صدرك ، فأنت في حاجة إلى قبس تقتبسه من امرأة ؟

فبرقت عينا الشيخ واشتعلت النيران في عروقه . ولكنه أزمع السكوت لتمضي

العجوز في حديثها . فألمها أنه ساكت لا يجيب . وحببت سكوته جناً وهلعاً ،
فراحت تبالغ في تحميسه ... قالت :

— أخبرني ... أنسيت ذلك الدم الزكي الذي أهريق على عتبات المجد ؟ سرعان
ما نسيت صورة مصعب ابن ابيك . ذلك الذي عاف الشباب والمال والرفاهية . وجفا
عقيلتي قريش . عائشة بنت طلحة وسكينة بنت الحسين . وذهب ليموت شريفاً مجيداً
تحت راية الخليفة عبدالله بن الزبير .

إذا كنت تعلم انك تدعو إلى باطل . فلم فرطت بهذه الأرواح .. هذه الألوف
من الأرواح التي زهقت في سبيلك ؟ أكان جنى هذه المعمارك النبيلة أن يحمل الخليفة
الذي مات هؤلاء كلهم تحت رايته ، ليزدان به موكب الحجاج ؟

ما كان جدك أبو بكر . ولا كان أبوك الزبير جباناً ولا رعديداً . أفتنتمي إلى هؤلاء
الذين أترعوا التاريخ بأحاديث المكارم . ثم ترضي أن تساق . وأنت شيخ أبيض اللحية
إلى دمشق . ليلعب بك صبيانها وليشيروا اليك بأصابعهم : يتولون : هذا الذي كان ..

ولم يعد عبدالله يملك صبره ، فصرخ :

— أماه ! كفى ... إنني جئت أودعك ..

وأنتى بنفسه بين ذراعيها . فتحسسته فإذا هي بالدرع . قالت :

— أتخدعني يا عبدالله ؟ (ما هذا صنيع من يريد الموت)^(١)

قال : ما أبسته إلا لأجلك . وما لي به من حاجة ..

ونزعه فألقاه .. ثم تملص من ذراعيها برفق :

— أماه ... وداعاً (ولا تدعي الندماء لي . فوالله ما دعاني إلى الخروج إلا الغضب

لله أن تستحل محارمه . واني مقتول في يومي ، فلا يشتد حزنك ، وسلمي الأمر إلى الله ،

فإن ابنك لم يتعمد إثارة منكر . ولا عملاً بفاحشة . ولم يجر في حكم الله ولم يغدر في

أمان . ولم يتعمد ظلم مسلم أو معاهد . ولم يبلغني ظلم من عمالي فرضيت به .. اللهم

لا أقول هذا تزكية لنفسى . ولكني أقوله تعزية لأمي) ...^(٢)

(١) و (٢) هذه جمل من التاريخ .

وأسرع فخرج وأمه تدعو الله :

(اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل ، وذلك التحيب . والظماً في هواجر مكة والمدينة ، وبره بأبيه وبني ، اللهم اني قد سلمته لأمرك فيه ، ورضيت بما قضيت ، فأثبني ثواب الصابرين الشاكرين (١) .

وسكنت العجوز ، ومدت يديها تتلمس عبدالله لتودعه الوداع الأخير . فلما أحست أنه قد ذهب ، ثارت أحزانها دفعة واحدة ، وهوت على الأرض ! ..

• • •

وسدل الستار يوم الثلاثاء ١٧ جمادي الأول سنة ٧٣ للهجرة على هذا الشاب الذي هجر مدرسته وصيانه ، ونزل من الطائف وحيداً شريداً ، فمهدت له عبقريته السبيل لما كان يحسه مجداً وعظماً : وأعاد إلى الأمة الاسلامية وحدتها وسلامتها ، وبني في صرح أمجادها ركناً ضخماً ، ما كان أعظمه وأزهاه لو لم يلطخ بدماء الأبرياء ... وهذا الشيخ البطل الذي سمت به نفسه ، حتى ضارع الخليفة في الشام ، ثم صارعه حتى سلبه ملكه وسلطانه ، ثم خسر كل ما ربح ، ولكنه مات أشرف ميتة وأمجدها ، فكان موته مغلوباً ، ظفراً بارعاً ونصراً مؤزرراً . وهذه العجوز التي لم يعرف تاريخ بنات حواء ، من وقفت مثل موقفها ، أو ضحّت مثل تضحياتها ، أو دانتها في نبلها وشرف نفسها ، وإخلاصها لوطنها ودينها . رحمة الله على الجميع .



(١) هذه جمل من التاريخ .

يوم اللقاء

لما خرج (عبدالله) من المنزل المهجور . كان الليل قد عسعس فانبجابت ظلمته عن سنا السحر ، والصبح قد تنفس . فتضوعت أنفاسه الناعثة في أرجاء هذا الوادي المقدس ، وكان الكون لا بساً ثوب شاعر مدائه . أو عابد متبتل . يغمز النفس بحس سماوي لا تصل إلى الاحاطة بوصفه لغات البشر ...

ولكن عبدالله لم يلتفت إلى شيء من ذلك ، ولم يلق إليه وعيه . لأن الدنيا قد ماتت في عينيه منذ عزم على الموت وسلك سبيله ... وماذا ينفع السحر وجماله رجلاً فرغ من ذلك كله ، وخلفه وراءه ليستقبل حفرة الموت التي لا تضيئها أشعة الشمس . ولا يصل إليها رواء السحر ؟

وماذا يرى المسلول اليائس في صفاء العيون ، وضحك الورود ، وغناء العصافير . وهو يعلم انه سيموت ويحتويه هذا القبر الموحش ... فلا تدري به الينابيع ، ولا تكف عن وسوستها وتغريدها ، ولا يحفله الورد ولا يمسك ضحكه حزناً عليه . ولا تأبه له الطيور ، ولا تقطع من أجله غناءها ... والشمس لا تفتأ تطلع من بعده تغمر الكون بلألائها ، والقمر لا يزال يريق على الدنيا وابلاً من نوره .. وكل شيء يبقى على حاله بينا يكون هو قد ذهب وامتحى؟ وماذا يرى المحكوم عليه . وهو يساق إلى جبل المشنقة في بهاء الشمس ، وابتسام الربيع ، وضحك الروض ؟

إن المرء لا يجد في الكون إلا صورة نفسه ، وخياله وعواطفه ، فأى شيء يجده

(عبدالله) وليس في نفسه الا ذكرى ماضٍ بارع ، قطف ثماره أمدأ طويلاً ،
ثم عصفت به رياح الفناء . فصوح نبتة ، وذوت غصونه ، وصورة مستقبل غامض ،
يسلم اليه أمه المسكينة . لا يدري من أمره شيئاً ، ولكنه لا يثق به . ولا يطمئن اليه ،
وهو بينهما يمشي طائعا مخناراً إلى ... الموت !

وبلغ (عبدالله) أبواب الحرم . وهو في ذهلة عميقة ، فاذا هو بأبي صفوان عبدالله
ابن صفوان بن أمية بن خلف ، فألقى عليه نظرة فارغة كأنه ينظر إلى رجل من العالم
الآخر لا يبصره ..

— سيدي أمير المؤمنين !

— ...

— لقد استطاع رجالي أن يفتحوا لك طريقاً إلى العراق ، وهذه هي ركائبك ،
وهؤلاء هم حرسك . فتلنح يا سيدي بهذا الثوب وسر في أمان الله !

فلبث (عبدالله) صامتاً ، شاخصاً اليه بعينه . يردد هذه الكلمات التي سمعها
ترديد من لا يفقه لها معنى ، كأنما هو قد أضل فكره : وقد ذكاه ، أو كأن هذه
الكلمات ، قد خلصت إلى نفسه . بعد أن طرحت معانيها . فجاءت خالية لا تدل على
شيء ... فريح ابن صفوان ، وأشفق أن يكون قد أصابه سوء ، وجعل ينظر اليه
بعينين تجلى فيهما الاخلاص للأمير : والحب للوالد ، والوفاء للصديق . ولا عجب
في ذلك فلقد كان يرى في (عبدالله) أميره ووالده وصديقه : ويوليه من نفسه الحب
والاكبار . وجعل ابن صفوان يحلق فيه ، فيراه دائماً على ترديد هذه الكلمات ،
ولكنه يرى وجهة تنبسط أساريره ، ويخطف على جبينه نور الذكاء ، وتبرق عيناه
ببريق العبقرية ، فيطمئن ابن صفوان ويعلم أنه قد عاد إلى نفسه ...

نشط (عبدالله) واستبشر ، استبشار غريق رأى خشبة النجاة ، وعاشت في نفسه
آماله ، وأورق غصن ماضيه الداوي ، فبسط ظلالة الندية على حاضره القاحل المقفر .
فأحس كأنه يسمع أبواق النصر ، التي كان يسمعها في سالفات أيامه ، وانتهى إلى

أذنيه صدى أناشيد الظنير . التي كان يهتف بها جنده تحت راياته المنصورة . وشعر كأن قد عاد إلى اسمه عطاره وجلاله . فرجع ينبثق من أفواه الكمامة المساعير ، الذين ذهبوا ينشرون عقبه في بلاد العرب والعجم ... وكرت الأيام راجعة ، فإذا هو يرى عبد الملك ، وقد روعه اسمه وأرقه ، ويصر رأس المختار الذي ظفر بعامل الأمويين ، يسقط على قدمي عامله وأخيه مصعب . ثم تقوى هذه الصورة في نفسه ، وتجيئ وتموج ، حتى تبلغ هذا الحاضر الذي يعيش فيه . ثم تمتد إلى آفاق المستقبل ، هذا المستقبل الذي ولد ونما واستكمل نموه في لحظة ...

وطفت موجة الفرح على نفسه ، فأحس كأنه في حلم . واختلطت عابه الحقيقة بالوهم ، فأخذ بيد ابن صفوان ، وسأله نشوان فرحاً :

— هل قلت إن الطريق مفتوح ؟ أستطيع أن أخرج من مكة ؟

ولم يكن ابن صفوان ينتظر منه الرضا ، فاستخفه الطرب لرضاه . ونسي أنه يكلم خليفته وأمره . فجعل يهز يديه بشده ويقول :

— نعم . نعم يا سيدي ، أسرع . أسرع بالله . أخشى أن يفوت الأوان . إن الفجر سينبج !

فينساق (عبدالله) في الطريق الذي أراده له ابن صفوان ، ويكاد يمضي فيه ولكنه يذكر أمه . ويعود إلى نفسه مشهداً ، وهي قابعة في زاوية البيت ، حزينة ماتاة .. هل يدع أمه وحيدة ، بين براثن هؤلاء الذين براهم وحوشاً ؟

لا . وتوقف ، وبدا عليه التردد :

— سيدي ! إن الوقت قصير .

— لن أدع أمي !

— وكيف تدعها يا سيدي ! ان الجند سيحملونها معك إلى حيث تمضي ،

أو يضعونها حيث لا تنالها أيدي الحجاج

فعاودت عبدالله حماسه ، ولكنه وقف مرة أخرى يفكر ، هبه وصل إلى العراق

فماذا ؟ هل تكون خيراً له من الحجاز ؟ لقد ضاعت العراق يوم ضاع مصعب . فهل يذهب إلى خراسان ؟ لقد مد الأمن رواقه على هذه المدن . افيقلبها ساحة الحرب ؟ لا . لن يقتل الآلاف من المسلمين ليعيش هو !

وراح يعرض البلاد كلها في لحظة ، فلا يجد بقعة لم يبلغها ملك أمية . أفيمضي إلى بلاد الكفر ؟ وضاعت عليه الأرض بما رحبت . فاستصغرها . وزهد فيها ، وفترت همته . وانظماً هذا اللهيب الذي وقد في نفسه ، وخطف نوره على جبينه . فاستل يده من يدي ابي صفوان . وقال له بصوت رهيب :

— إسمع يا أبا صفوان

فأدرك ابن صفوان أنه سيسمع نبأ لا يسره — فقد نطق وجه (عبدالله) بأنه عازم على الموت . قبل ان ينطق به لسانه . ولكنه ارهف أذنيه وذهب يستمع . فقال له (عبدالله) :

— يا ابن صفوان . أخبرني . أفي طوقك أن ترد على العالم بهاء الشمس ونورها إذا غمره الليل بسواده القاتم ؟ إن لكل نهار ليلاً ...

فقاطعه ابن صفوان وقد رأى بارقة من أمل سنحت له فحاول ان يتمسك بها ، — ... ولكل ليل فجر يا أمير المؤمنين ،

ولكن هذا الفجر لن يسطع عليّ من بين رايات الأمويين أستظل بها . ولا تتسرب خيوطه من خلال هذا الثوب ، الذي رضيت لي الفرار فيه ... بل إنه سيسطع ، إني لأرى تباشيره تلوح بيضاء زاهرة من وراء باب الموت ، ولا بد لي من ولوج هذا الباب يا ابن صفوان ، فلماذا تأبى عليّ أن أبله حراً مجيداً ، وترضى لي أن اضيع على لحيتي البيضاء وصمة العار الحمراء . وأن أختتم سفر حياتي الماجدة ، الحافلة بالبطولة ، بأبشع خاتمة وأبعدها عن البطولة والمجد ؟ أتأبى عليّ أن أموت ميتة ابي ؟

في تلك الرملة التي تتكسر على جوانبها أمواج البحر كل مساء ، ويحمل الرافدان دجلة والفرات ، العذب النмир من أعالي بلاد الروم ليغسلا به حواشيها الأخرى ،

حيث تلتطم رياح الجزيرة ، وتراقص نسائمها اللينة... هنالك يا ابن صفوان بشري
قبر منفرد منزل ، هو قبر أبي .

لقد مات أبي شهيداً . ولكنه لم يمت في المعركة الحمراء ، وإنما مات على يد وغد
دنيء ، فضع قبره في تلك الفلاة ... أفسوؤك أن يموت ابنه وسط المعركة . فيقوم
قبره في بطن مكة ، فيشير إليه الناس قائلين : هذا قبر الشيخ الذي مات شهيد المعركة
المنتبهة . وتمتد أيديهم إلى السماء يسألون له الرحمة والغيث ، ثم يمسكون بقلوبهم
مخافة أن يهزها هذا الدرس الصامت ، فتتمجر من الحماسة !

لماذا تأبى علي أن أموت ميتة أخي البطل مصعب . وأنت الذي مجد مصرعه .
وأخذته مثلاً للبطولة والتضحية والشرف ؟ الا يسرك أن أشري بدمي حياة هذه الأمة .
فتعود السعادة إلى هذه البقعة الطاهرة ، ويخيم عليها الأمن ، وتستعد لتحمل رسالة
الله إلى الدنيا ... مرة ثانية

إنك لن تستطيع أن ترد ما فات . أرجع إلى الزهرة الجافة رواءها وعطرها ، ردّ
على الشيخ الحرم شبابه وقوته . أعد للنهار الآفل ضحاه !
لقد انتهى كل شيء !

فإن تكون خاتمة حياتي أن أفر تحت ثوب امرأة ...
وأخذ الثوب يقلبه بيده ، وعلى وجهه ابتسامة ساخرة ، فيها آيات القنوط المرعب ،
والإستماتة الهائلة ، والإقدام المخيف .

— لا . لا يا ابن صفوان ، إن عبدالله بن الزبير أكرم من أن يتشح بثوب امرأة .
لا لن أفر (بشس الشيخ أنا إذن في الاسلام ان اوقعت قوماً ثم فررت عن مثل مصارعهم)^(١)
— سيدي !

— ابن صفوان !
ثم التفت الأذرع في عناق جمعت فيه الصداقة والمحبة والتضحية أروع قطوفها .
ثم تملص الشيخ من ذراعي ابن صفوان وأمسك برأسه فقبله بين عينيه ،

(١) هذه الجملة فقط من التاريخ .

— جزاك الله خيراً يا ابن صفوان ، فلقد والله وفيت لي حين غدر الناس بي ،
ولزمتني حين تركني ابناي ، فكانت صداقتك أوثق من الولادة ، وأثمن من البنوة ،
ولقد كنت رفيقي في اليوم الأسود ، كما كنت رفيقي في الليالي البيض ، ومننت
وأجزلت ، ولم تدع لي إلا حاجة واحدة ، فاخبرني هل تقضيها لي ؟

فترق نفس ابن صفوان ويطفر الدمع من عينه فيقول :

— ولو كان في قضائها موتي !

— بل فيها حياتك إن شاء الله ، فأنا أعزم عليك إلا ما نجوت بنفسك

— معاذ الله يا سيدي !

— اني لتقر عيني في حياتي ، وتسكن عظامي بعد موتي ، اذ أنت نجوت

بنفسك . قل إنك فاعل !

— معاذ الله يا سيدي ، أموت معك كما حييت معك !

* * *

وكان الفجر قد انبلج وأرعدت هذه الأوعار والصخور وأبرقت ، فضاع هذا
الحديث الخافت في جلبة الجيش المنتصر وإرعاده . قطع (عبدالله) الحديث وانثنى
نحو الكعبة يأمر مؤذنه بإعلان الفجر ، وكان محتفظاً بعظمته وجلاله ، فكأن هذا الفشل
المتتابع وهذه الحية الشاملة ، لم تنل منه قليلاً ولا كثيراً . وكان جنده الأوفياء ينظرون
إليه فيعديهم بجلده واحتماله ، وتسري فيهم هذه العزة ، فيطوون جوانحهم على
قلوب ملوؤها القوة والأمل . وهل في الدنيا أقوى من عصابة تريد أن تموت ؟ إن العدو
يفزعها بالموت . والموت أكبر أمانها ، فكأن عدوها خادم لها ، مسخر لرغباتها !

ودوى صوت المؤذن قوياً ضخماً ، فجأوبه من تلك الأوعار صوت آخر واضح

قوي : الله أكبر ! الله أكبر !

● ● ●

— الله أكبر من هذا الجيش وهذه الدنيا ، ولكن هؤلاء قد نسوا معاني (الله أكبر)
وأضاعوا جوهرها .

ذلك ما كانت تناجي به نفسها هذه العجوز وراء سور الحرم
وكانت قد أوت إلى هذه الزاوية لتودع ابنها ، وتحفظ بذكرياته الأخيرة ،
وتسمع جرسه ، تخترن في نفسها هذه الصور التي ستكون من بعد ينبوع حياتها ،
وستعيش بقية أيامها بذكرها .

وقد لبثت هذه العجوز في مكانها من المنزل المهجور ، بعد أن ودعها ابنها ، تبكي ،
وتتقاذفها شتى الأفكار ، حتى نالت منها متاعب اليوم ، وأوقار الشيخوخة فاستلمت
إلى نوم مزعج ، متقطع ، تضطرب فيه الأحلام المرعبة ... فرأت ابنها بأيدي الجنود
الشاميين ، تنوشه رماحهم وسيوفهم . فوثب قلبها من صدرها ، وجعلت تصيح وهي
ناثمة : دعوه . دعوه لي ، لا تقتلوه ، قد ترك لكم الخلافة فاتركوه لي .

وأفاقت مذعورة : وقد طار النوم من آفاقها ، فلم تطق البقاء وابنها على عتبة
الموت ، فقامت تحمل آلامها وأوجاعها ، وأنتال هذا القرن الكامل الذي يعجشم على
عاتقها ... هذه السنين المائة ... وتوجهت تلقاء الحرم .

وكانت تفكر في ابنها ، ماذا عليها لو أنها أخذته من بين مخالف الموت ، ثم
عاشت معه في ركن منزل من أركان هذا الكون الواسع ؟ أيؤدي عبد الملك وقد تم
له الأمر واطاعة الناس كلهم أن تعيش عجوز بجانب ابنها ؟ ألا يجد لذته إلا في ألمي ..
وهمت العجوز باستئزال اللعنات على عبد الملك ، ثم رجعت إلى نفسها تفكر في عبد الله
فإذا هو لا يقر ولا يهدأ ، وإذا هو صاعقة حيثما نزلت خربت ، وقلبت الأرض
عاليها سافلها ، فلا يقر لهذه الأمة قرار .

وكانت قد بلغت الحرم . فسمعت صوت المؤذن يردد التكبير ، فيعود الصدى من
هذه الأوغار بمثل تكبيره ، فأصفت فإذا ما حسبه صدى ليس إلا أذان أهل الشام ،
فألها هذا الانقسام وجعلت تتكلم همساً كأنما تخاطب نفسها :

— يا هؤلاء الذين نسوا معاني (الله أكبر) وأضاعوا جوهرها ...

* * *

وفي تلك اللحظة تقدم هذا الشيخ الذي كان أمير المؤمنين ، ووارث كسرى وقبصر ،
ليصلي آخر صلاة له في ظل الكعبة ، فسمعته العجوز . ولم يكن بينها وبينه إلا جدار
قصير . فنازعتها نفسها إليه ، واشتاق إلى عنقه وشمه !
ولم يكن يكلفها ذلك إلا همساً خافتاً يعلم منه موضعها ، فكادت تهمس باسمه ،
وقويت هذه الرغبة في نفسها ، حتى لقد توهمت أن ابنها ، قد داف إليها يعانقها ،
فمدت يديها تعانقه فسقطتا على جنبها ... وكان قابها يرتفع في صدرها حتى يبلغ
حنجرتها . ويذوب حزناً وكمداً ، ويسيل من عينيها المنطمنتين قطرات من الدمع ...
ولكنها لبث ساكنة صابرة على قضاء الله .

• • •

انتقل هذا الشيخ من صلاته . وقد رقى النظام . وانبعثت فيه أشعة الفجر . فأراقت
عن الحرم ظلالاً من النور . فاستطاع أن يتأمل في أصحابه الذين لبثوا على وفائهم له
لم يخلووه كما خلاه ابنه حمزة . فسرت على وجهه سحابة من غم . حين ذكر أن
حمزة قائم في هذه الساعة تحت رايات الخجاج . ينتظر أن يرى أباه معانقاً على خشبته .
ليرقص في مآتمه . ويقتصر بأسلابه . وكاد يجاري غضبه ويتدفقه بلعنة حمراء تتسلسل
في أصلاب ذريته . فلا يتجر من جناها المسوم أحد منهم . ولكنه أسكت ولم يحب
أن يكسب أولاده هذا الشر المستطير في آخر لحظة من حياته ...

وجعل ينظر إلى هؤلاء الفتية فيروقه شبابهم المزهري . ويفض بهذا الصبا الغض على
النوت . ويعلم بأنه ميت لا ينفعه دفاعهم شيئاً . فأرادهم على الحيادة وزينها لهم ،
وابتغى إلى إقناعهم شتى السبل . وأفانين الأساليب . فأبى وفأوهم ومرؤتهم ودينهم .
وما كانوا يعتمدون من ضلال الأمويين إلا الموت .

فرقت نفس هذا الشيخ ، وغمرها الحب والرضا . فاحب أن ينظر إلى هذه
الوجود وأن يجعل صورها زاداً له من دنياه في جولته الأخيرة . فقد كانوا ثمانية

ذلك الجيش العظيم وبقية أولئك الأبطال الفطاريق . الذين كان في وسعهم أن يقلعوا قيصراً من كرسيه في القسطنطينية . كما قلعوا كرسى من عرشه في المدائن ، لولا أن ألقى بأسهم بينهم . فأصبحوا يحسبون مجد القائد المسلم في الانتصار على القائد المسلم ، ويرون المعركة الظاهرة هي التي تأكل اخوانهم في الدين وفي النسب ، ويرون الفتوح الأغر في استباحة مدينة الرسول ، أو العبث بقصبة الخلافة .

وكان هؤلاء الفتية قد لبسوا الحديد . واتخذوا المغافر لا يبين منهم إلا الحدق . فلما أرادهم (عبدالله) على كشف وجوههم . أراحوا هذه المغافر ، فأضاعت وجوههم كما تضيء الأفمار . ولكن شعاعها وميض الجمال الفاضل . وبريق الاخلاص والذكاء . فأشجاه أن تكون هذه الوجوه فريسة السيوف بعد ساعة واحدة . وأن يذهب هذا الشباب الناصر . وأن يخسر جيش المسلمين هؤلاء الفتيان الأشاوس . ومن ستصيره سيوفهم الماضية ينالونه بها قبل أن يموتوا . فعاد يدعوهم إلى الحياة ورجعوا بأبون .

— قال : أما إذا أبيتم (فلا يرعكم وقع السيوف فإن الدواء لنجراح أشد من ألم وقعها . صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم . غصوا أبصاركم عن البارقة وليشغل كل امرئ قرنه . ولا تسألوا عني فمن كان سائلاً عني فإني في الرعيل الأول . احملوا على بركة الله (١) ...

فهتف هؤلاء الجنود هتافاً عالياً . وأنشدوا أناشيد الحرب .. ولكن أصواتهم ذابت في هزيم الرعود التي تفجرت من حلوق الأمويين . وهم منحدرين من أوعارهم وأصلادهم التي أعتصموا بها يتدفقون نحو أبواب الحرم . ودارت المعركة في في البقعة المقدسة التي كانت ملجأ الناس ، ومثابة الأمن في الجاهلية وفي الاسلام !

* * *

(١) هذه الجملة من التاريخ .

بلغ هذا الزحف أبواب الحرم الأقدس ، واشتركت في حمل وزر هذا الزحف مدن من الشام تعاونت على العبث بحرمة المسجد ، وإراقة الدم الزكي ، على أرضه الطاهرة ، فكانت حمص بجندها على الباب الذي يواجه الكعبة ، تحاول أن تقتحمه لا تتذرف بالبيت العتيق ، ولا لتقوم فيه لرب العالمين ، بل لتستبيح فيه حرمة الدم الحرام . في الشهر الحرام ، في المسجد الحرام ...

وكانت دمشق على باب بني شيبه ، وكان أهل الأردن على باب الصفا ، وأهل فلسطين على باب بني جمح ، وأهل قنسرين على باب بني تميم ، وكان الحجاج قائد هذا الجيش الذي هدم بيت الله في ناحية الأبطح ... تدفقت هذه الجموع براياتها وكبرياتها ، وقوادها وجندها ، وسلاحها وعتادها ، وحماستها وهتافها ، ولكنها لم تستطع أن تتقدم . ردها وحده هذا الشيخ !

هذا الشيخ الذي أذنته الأيام من الثمانين ، فكان من حقه أن يستريح أثر حياة صاخبة ، وأن يقضي بقية أيامه في دعة وهدوء ... قد جفا راحته وهناءته ، ووقف وسط الحرم كالأسد الهائج ، يدافع عن عرينه بلبدته البيضاء ، وشيبته المهيبه ، قد دارت مقلته اللتان تنفضان الشرر على هذه الأبواب ، فكلما رأى باباً انفتح كره على أهله فردهم على أعقابهم ، فكان يحمل مرة هاهنا ، ومرة ها هنا ، حتى ارتفع الضحى ولم يقر الشيخ ولم يهدأ .. فأحس بالوئي في أعصابه ، وكلت يده . وأي رجل يستطيع أن يجالد مثل هذا الجلاد ، وأي رجل يقدر أن يقف وحده ، في وجه هذا السيل الطامي من البشر ، وكلما أزاح من طريقه واحداً حلّ مكانه مائة .. فوقف لحظة يستريح ، وتلفت فإذا هو بابن صفوان لم يفارقه .

سُفقال له : (أبا صفوان ، (ويل أمه) فتحالو كان له رجال! والله لو كان قرني واحداً كفيته (١)) .

فيقول أبو صفوان :

(١) هذه جمل من التاريخ

— أي والله ، وألف !

وتدور رحى الحرب من جديد قد دفعها الحجاج دفعة ، انطلقت على أثرها مدوية مرعدة ، تسيل على جوانبها الدماء ، وتزهق الأرواح ..

• • •

حتى إذا زال النهار ، وتلهمت شمس مكة فجمعت على الناس نارين : نار الحرّ ونار الحرب ، ضاق ابن الزبير وأصحابه ذرعاً ، فجمعوا بقية عزمهم ، وأقدموا إقدام المستميت فلم يرجعوا حتى أجلوا هذا الجيش العرمم ، عن الحرم ، وردوهم حتى بلغوا بهم الحجون وكان في طوقهم أن يردوهم إلى أبواب الشام ، ولكنهم كانوا عشرات من الناس يحاربون ألوفاً مؤلفة !

ورجع عبدالله إلى الحرم ؛ وقد خلّت ساحته إلا من الحجارة التي نثرتها المنجنقات من جدار الكعبة ، وأشلاء القتلى ودمائهم ، وهذه البقية الباقية من جنده - تغلب عليه الألم لما حل بالمسلمين ؛ وعزف عن الطعام والشراب ، فلم يفكر فيهما ، ولا في الراحة المسعدة إثر هذا الجهد الحاطم ، وإنما أقبل يريد أن يصلي في ظل الكعبة فيناجي ربه ، ويستغفره ويودع دنياه .. ولكنه لم يدن من الحطيم . حتى وقف مرتجفاً قد اهتز من مفرقه إلى قدميه ، كما تهتز القصبة في الريح النكباء ، وفتح عينيه بحدق ... إنه لا يشك في أنها هي ...

— يا إلهي ... ما الذي جاء بها إلى هنا ؟

ودنا منها متلصصاً يمشي على رؤوس أصابعه ، فإذا هي صامته جامدة لا تتحرك

ولا تنبس

— أهي ميتة ؟

واقترب حتى حاذها فأحست به وصاحت :

— من أنت ؟

فلم يجب ، فعادت تصرخ :

— من هذا الذي يمد يده إلى امرأة عجوز ؟؛ ويلكم أما كفاكم أن دفعت إليكم
ابني لتقتلوه .. آه أين أنت يا عبدالله ؟

وسمعتها تبكي بكاء خافتاً فتحرك ، فعادت إلى تصريحها :

— قلت لك ابتعد أيها الوغد ، أنسيتم أخلاقكم ومروءتكم واستبدلتم بها هذه
الأخلاق التي ترى البطولة في البطش بعجوز عمياء لا تريد أن تؤذي أحداً؟ آه لو أن
عبدالله كان حياً ؟ أين أنت يا عبدالله ؟ عبدالله ...

وراحت تنسج نسيجاً أليماً ، حتى لقد ظن أنها ستشرق بدمعها ، ونخال روحها
ستزهق في نسيجها ، وأحس كأن قلبه يقطع بسكين ، ونسي الحرب والنضال ، وهمم
بأن يلتمس نفسه بين ذراعيها ، كما فعل في ليلة الأمس ، ثم يحملها إلى بقعة من أرض الله
الواسعة تقضي فيها لياليها الباقيات ، ثم يرده الحفاظ والدين ، وهذه الغاية التي باع
نفسه من أجلها ...

وكان يسمع اسمه يرتجف في غضون الزفرات يخرج بصوت مكوم ، يلهب
قلبه كأن فيه قسماً من قلبها المحترق ، فخاف أن يغلبه ضعفه البشري ، وانتهى إلى
أذنيه هتاف أهل الشام ، وقد أقبلوا كرة أخرى كما يقبل البحر بملده على الساحل ،
بعد أن نأى عنه في جزر طويل ، فترك مكانه حيال أمه ، وذهب يستقبل الموت ،
وقد مات من قبله مراراً .

• • •

وكان في شعب من شعاب مكة النائية عن الحرم ، شيخ جليل قد اعتزل الحرب هو
وأصحابه ، لأن دينه لم يبيع له أن يحارب أبناء دينه ، ومروره تمنعه من تجريد
سلاحه في وجوه إخوانه ، وذهب ينظر في هذا الشعب النائي .

كان عبدالله بن عمر معتزلاً ، يحصر لأصحابه عما يخامر نفسه من ألم لتفريق
المسلمين ، ويحدثهم حديث الرسول الذي جاء بالإسلام فألف بين القلوب ، وجمع

الناس جميعاً... ويرقب انكشاف هذه الغمة . فسمع التكبير (ظهر يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الأولى سنة ٧٤) يتجلجل في حلق الشاميين ، فاسترجع ومد يده إلى عينيه الهامدتين فمسح دموعه خائلاً أنها تترقرق فيهما ، وأقبل على أصحابه فقال لهم :
 — ألا تسمعون التكبير ؟ والله لقد كبر المسلمون مثل ذلك من قبل . في ليالي الحجرة الأولى . وارتجت لتكبيرهم حرتا المدينة وتمايد نخيائها ، وأشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لولادة هذا الرجل الذي يكبر المسلمون اليوم لموته !
 (رحمة الله عليك يا أبا خبيب ، أما والله لقد كنت أنكأ عن هذا . ولقد كنت والله صواماً قواماً وصولاً للرحم^(١)) .

• • •

لما أقدم عبدالله ، تساقط الشاميون تحت سيفه كما تساقط أوراق الخريف ، وانزاحوا من بين يديه ، ولكن رجلاً ممن عجز عن مواجهته في المعركة ، ومقابلته بالسيف ، قذفه بأجرة ضخمة . فعمل الجبان الرعيد ، فأصاب بها وجهه وحشمه .. أحسن عبدالله كأن أعصابه كلها قد مزقت ، واستلت من جسمه دفعة : وشعر في رأسه بأشد من لدغ النار ، ودار الكون من حوله ، وتداخلت في عينه المشاهد ، فزاع بصره ولم يعد يرى شيئاً ، ثم هوى ولكنه نهض بعد لحظة واحدة . نشيطاً سليماً يكاد يتوثب من الصحة والنشاط ، فأقدم مجالداً ، فلم يعرض له أحد ، فعجب ، وأغار على القوم ؛ فلم يرعه إلا أنه يخترق الجموع ، لا يمنعه أحد . حتى جاز الجيش كله وصار إلى الفضاء والحربة ، فوقف يفكر ويذكر أمره ... فلم يعرف منه شيئاً ، ولم يجد في أعماق نفسه إلا لذة لا توصف ، وطرباً لا يحد ولا يعرف . فرجع بوغل في هذا الجيش ، فإذا هو يخترقه كرة أخرى ، ويتغلغل بين كتائبه وفرسانه ، ثم ينتهي إلى الفضاء ... فينظر حوله ويتمنى أن يعلو هذه الجبال الشامخة ،

(١) جملة من التاريخ .

ثم يجلس على قنة من قننها البواذخ ، يفكر في أمره . فلا يكاد ينتهي من أميته ، حتى يصير في أعلى الجبل ، من غير أن يتجشم عناء ، أو يقاسي تعباً . فيزداد حيرة وعجباً ، وينظر حواليه فيحسر له البصر عن عوالم عجيبة تموج بالنور ، وتمور بالشاهد الباردة ، التي لم ترها عين بشر ، فيأنس اليها ، ثم تغلب عليه حيرته المحبوبة اللذيذة ، فيحجب عينيه بكفه ، وينطلق يفكر ، فإذا كفه تشف عما وراءها ، كأنما ينظر من خلال زجاج صاف شفاف ، فيجفو مكانه ويمر هائماً على وجهه ، فإذا هو يمشي بسرعة البرق ، يخترق الصخر ، وينفذ من الجبال ، فيزداد دهشة ويبالغ في مروره ، ثم يسمع من يدعوه باسمه ، فيقف ويلتفت فإذا هو بابن صفوان ..

فيقبل عليه فرحاً بلاقائه .. ولكنه يرتد فجأة ..

— انت ابن صفوان ؟

— نعم يا سيدي ...

— ولكن ...

— ماذا ؟

إن بصري ينفذ من خلال جسمك !

— وأنا يا سيدي أرى ما وراءك ؟

— ويحك ، ما هذا ؟ ابن نحن ؟

— لست أدري !

— ألا تتذكر شيئاً ؟

فيفكر ابن صفوان وينظر حواليه :

— بلى ، اذكر الموقعة .

— الموقعة ؟ أي موقعة ؟ ها . لقد ذكرتها ، لقد عادت صورتها إلى نفسي ، ولكن ...

أين نحن ، وأين جيش الحجاج ؟

— هو هناك ... أترى هذه النقطة الدقيقة المائلة في أقصى الحضيض ؟

عبدالله : من المتكلم ؟

أبن صفوان : من هو الذي يتكلم ؟

— أنا ؟

يعجب عبدالله وابن صفوان ، ويجعلان بصريهما في أرجاء الكون فلا يريان أحداً.

عبدالله : من أنت : ؟ أقول لك : من أنت ؟

— ها أتدا ! (ويظهر لهما) .

— عبدالله : زيد ؟

— نعم ، أنا زيد !

— عبدالله : ولكنك قد مت منذ زمن طويل !

— زيد : نعم ، لقد مت منذ زمن طويل .

— عبدالله : كيف تكون ميتاً ، وأنت حي تنطق ؟

— كما تنطق أنت !

— ولكني لم أمت ...

— نعم يا سيدي ... ولكن تعال معي !

وينحدرون بخفة البرق وسرعته ، كأنما كانوا يطيطرون بغير جناح ، فلا تمضي

لحظة حتى يشرفوا على مكة ...

— زيد : ألا ترى يا عبدالله ؟

— عبدالله : ما هذا الذي أرى معلقاً على رمح ؟

— زيد : رأسك ؟

— عبدالله : رأسي أنا ؟ هل جنت يا زيد ؟ عهدي بك رجلاً لقناً عاقلاً . هذا هو

رأسي لا يزال مركباً بين كتفي !

— زيد : وهذه هي جثتك مصلوبة !

— عبدالله : (وقد أخذته حيرة ، فجعل ينظر في جسده ، ويجسه ...) ، لا شك

في أنك قد جنت يا زيد ، إن جثتي صحيحة ...

– زيد : إنها جثتك ، ألا تسمع ؟

– يصيح عبدالله بسمعه ، فيسمع حديث القوم . حول جثته المصاوبة ، ولكنه لا يصدق ...

– عبدالله : مستحيل ، إن جثتي كاملة ألا تراها ؟ تلك بقايا حشرة حقيرة : أنا وبعك أدخل في جسم حشرة ؟

– زيد : ولكنك عشت فيها أكثر من سبعين سنة !

– عبدالله : قات لك ، مستحيل ... إن أرضى أبدأ بهذا السجن تضيق الخناق .

– زيد : ألا ترى إلى هؤلاء الذين يحفون بالحثّة ؟

– عبدالله : بلى ، أرى حولها كثيراً من هذه الحشرات الوضيعة ...

– زيد : هذا هو جيش الحجاج !

– عبدالله : أرواح بشر تدخل هذه الأجساد الحقيرة وتسجن فيها ؟ اني لأختنق من تصوري الحياة فيها لحظة ...

– زيد : كما يحس هؤلاء بالاختناق إذا تصوروا أنهم عاشوا لحظة في بطون أمهاتهم .

لقد نسيت سجنك الثاني ، كما نسوا سجنهم الأول !

– عبدالله : ولكنني لم أمت ، أنا في غمرة الحياة ...

– زيد : إن هذه الحشرات تسمي الحياة الحقيقية موتاً ...

– عبدالله : يا للغباوة ! ولكنني لم أمت ، بل أنا لم أعرف الحياة إلا اليوم !

– زيد : ذلك لأنك مت !

– عبدالله : أليس في الموت، قيد ؟

– زيد : بلى ، ولكننا مطلقون (ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل

أحياء عند ربهم يرزقون) ، والآن ... هلم بنا !

– عبدالله : دعني أرى أمي وأحملها ...

— زيد — لا . إنه لم يجيء أجلها فهلم بنا .

فينطلق الثلاثة إلى النعيم المقيم في السماء . كما تنطلق العجوز إلى العذاب الأليم في الأرض .

• • •

حل السلام في هذه البقعة التي خلقها الله للسلام الدائم . ونزل الحجاج يزيل الأضرار عن الحرم ، ويرفع القواعد من البيت . ومرت الأيام سراعاً . فووري ابن الزبير في لحده ، واستغفر الحجاج من جريمة صلبة ، كما يصاب المجرمون والمفسدون . وكادت الجروح تندمل ، وأوشك الناس أن يستعيدوا هناءتهم وسعادتهم . بعد هذه الحرب الطاحنة الضروس ، ولكن أسماء لم تسترح ولم تهناً ، ولم يبق لها من الدنيا إلا قبر عبدالله ، تلبث الليالي والنهارات . عاكفة عليه . تبكي وتدعو ، وتنادي عبدالله ، وكانت تتخيل كأن شخصاً قد ألم بها فتصرخ فيه :

من أنت أيها الوغد ؟

فينلع الصمت صيحتها ولا تسمع من مجيب ، فتعود إلى تجرع آلامها وأحزانها . إنها لفي مقامها على القبر في وسط ليلة ساكنة ، وإذا هي بيد تلمسها لمساً رفيقاً . فيذكرها مسها بعالم غامض يفيض باللذة والأنس . ويردها إلى ماض بعيد لا تتبينه ولا تعرفه . عالم عبدالله والزبير . فتحاول أن تمسك بهذه اليد ، لترفعها إلى شفيتها ، فإذا هي لم تمسك إلا الهواء . فيختلط عليها الأمر وتتعوذ بالله ، وتمتد يديها إلى كل جهة . تنامس صاحب هذه اليد فلا تقع يدها على شيء ثم تشعر بصوت مستمر يطن في أذنيها ، ثم يقوى حتى يشبه هزيم الرعود ، ثم يستحيل إلى ضجة هائلة تحسب أن الأرض لم تسمع مثلها ، وتشعر بزلزال عظيم . فتמיד بها الأرض ، وتهتز بشدة وعنف ، ثم تحس بيد تقبض على خناقها ، وتطير بها مع الرياح الأربع ، لا بل الرياح الأربعين ، فتحوم في أرجاء الكون بسرعة البرق المخاطف حتى تصير الدنيا كلها خلاء في نظرها ، لأن نظرها لا يستقر على شيء . ثم تلقيها هذه اليد في أعماق هوة سحيقة فلا يبقى عضو

من أعضائها إلا أصابه كسر أو حطم . وتجتمع عليها البرودة القاتلة ، والصلمت المرعب ، والظلمة المتكاثفة . فلا تعي من بعد ذلك شيئاً .

ولكنها تستفيق على صوت محبب إلى نفسها يذكرها جرسه ورنينه ، بعوالم تعرفها وتحبها . فإذا هي في دنيا عبدالله ، قريبة منه ، بل تسمع صوته يدعوها . يدعو أمه بأحب الأسماء اليها . فتمد يديها تمسح دموع الفرح ، فإذا هي مفتحة العيون تبصر عالماً من النور كل ما فيه جميل ساحر ، وإذا هي ترى (عبدالله) وقد عاد شاباً يفيض وجهه بشراً فتمد ذراعها تعانقه ، تعانقه حقيقة ...

— أهذا أنت يا عبدالله ؟ ... كلا كلا . إن عبدالله قد مات . فمن أنت وملك ؟
— أنا عبدالله ! سرعان ما نسيتني يا أماه . أما تذكرين ليلة دفعتني إلى الموت ؟
— بلى ، بلى ، ولكن ... رباه . ماذا أرى .

— لقد حسبوني مت . ولكنني ذهبت لأحيا الحياة الحقيقية مع أبي بكر والزبير .
فتعالى يا أماه ، تعالى !

— هأنذا قد جئت ... عبدالله ! أدركني إني أحس كأني أظير . بل أنا أظير حقاً
لقد عدت شابة ... ماذا أرى ؟ عبدالله ... عم ...
— مهلاً يا أماه . سنلتقي لقاء لا افراق بعده
— أقلت أ ... أ ...

* * *

ولما مر الناس في الصباح على قبر أمير المؤمنين وجدوا أمه ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر الصديق ميتة على القبر !

* * *

قضية سمرقند^(١)

كانت ليلة مبيتة لا يتردد في صدرها نفس من نسيم . ولا تبدو فيها حركة حياة ، عمياء لا تبصر فيها عين من نجم يسطع في السماء . أو مصباح يزهر على الأرض ، وقد أوى كل حي في (سمرقند) إلى مضجعه . ونامت المدينة تحت أنقال من الصمت والظلام ، ولم يبق متيقظاً فيها إلا هذا الرجل الذي خرج من داره . يخوض أجرة الليل ماراً إلى غايته . ولا يقف ولا ياتنم حتى بلغ قصر الإمارة فألقى عليه نظرة ، لو كانت نظرة تحرق : لأحرقه الشرر المتطاير منها . ثم أوسع الخطو . وأسرع كانه يريد أن يجنب نفسه مرأى هذا القصر . وأن يسابق الزمن إلى هدفه الذي يرمي إليه ... وفارق المدينة واحتواه الغاب . وطنت في أذنيه أصوات هوائه وحشراته . وكان الغاب موحشاً غارقاً في ظلمتين : ظلمته وظلمة الليل ... وأكن الرجل لم يتبه إلى وحشته وظلامه ، وقد كان له من ضخامة المطاب الذي يسعى إليه ، وعظم الخطر الذي يقدم عليه ، شاغل عن التفكير في ثقل هذه الليلة ، وانفراده في الغاب ، والخوف من أن تنشق هذه الظلمة المترابكة حوله عما يؤذي ويروع ... حتى إذا بلغ الصخرة التي تقوم عند باب المعبد وقف وأحجم . وخالطته هيبه شديدة . ووقر على صدره شيء لم يجد مثله في الغاب الموحش . ولم يكن غلاماً تفرزه الأشباح ، ولا كان الجبان الرعيد ،

(١) انصح التاريخي لهذه القصة في ستة أسطر من الصفحة ١١١ من : فروع البلدان للبلاذري ، طبعة مصر

سنة ١٩٣٢ م .

ولكن ما وضعوه في نفسه وهو صغير . من أسرار المعبد وعجائبه . جعله يشب ويكتمل ولا يزال أمامه مثل الطفل الصغير . وكان فارس البلد غير مدافع . وبطل المارك المكنهرة . ولكن المعبد غير الميدان . وأثن واجه في الميدان رجالاً مثاه . ففي المعبد قوى لا يراها . وخفايا لا تصنع معها شجاعة شيئاً . . . ولم يدخاه قط . إنما يدخل المعبد هؤلاء الثمر من الشيوخ الذين مارسوا من أنواع العبادة والرياضات ما جعلهم أهلاً لدخوله . ثم لا يخرجون منه أبداً . ولا يجوز لهم أن يعودوا فيروا نور الشمس ولا زهر الروض . وكان يشعر بأن هؤلاء الكهنة مهابة في قلبه ومحبة . ويحس بالخوف منهم وهو الذي يواجه الأبطال الصناديد . ويقدم على الموت الأكيد غير خائف ولا وجل . وطاك وقوفه عند الصخرة وهو يتهيب أن يقرعها بيده على نحو ما أمره أن يفعل إذا هو وصل . . . وجعل يحدق في الظلام . فرأى كأن شخصاً عظيم الهامة . له لحية بيضاء عريضة قد نبع من الأرض . ففرع وارتاع . ولكنه سمع صوتاً إنسانياً يناديه باسمه ويدعوه إلى أن يتبعه . فعلم أنه الحارس الموكل بباب المعبد . فلحق به وقلبه يخفق تطامعاً إلى ما وراءه من خفايا وأسرار . فاجتاز به سرداباً طويلاً ملتويماً . تضيئه مصابيح نحاسية منقوشة . يخرج منها لمب أزرق . يراقص فيلتي على الجدران الصخرية ظلالاً عجيبة . وفي السرداب تماثيل (آهة . . .) ذات صور بشعة مرعبة . يومض من عينيها ضوء أحمر فيكون لما منظر يخضع قلوب الجبابرة . . . وفي السرداب شقوق يدخل منها الهواء فيصنر صنيراً مخيفاً . كأنه صوت سرب من اليوم . . . ثم دخل به غرفاً منقورة في الصخر . حتى انتهى به إلى قاعة الكهنة . الذين لا يراهم أحد . لأنهم لا يخرجون من المعبد . وقل أن يدخلوا أحداً عليهم . والذين كانوا هم حكام البلد وملوكه . وأصحاب الكامة فيه . لا يجروء على مخالفة أمرهم أحد . إلا حقت عليه لعنة (آهة . . .) المعبد . ذات الوجه البشع المرعب . . .

لم يستطع الرجل من دهشته أن يدير نظره فيما حوله . أو أن يمالأ عينيه من الكهنة

ومن كان معهم . وسمع كلاماً ينصب في أذنيه بصوت خافت رهيب كأنما هو يسمعه حائماً ... وفهم أن المتكلم يذكر ماضي سمرقند وسالف مجدها . وكيف هبت عليها هزلاء المسلمون . هبوط البلاء . فأزاحوا عرشها . وحطموا جيشها ، وحكموا وماكوا أمرها . ثم أفاض في الكلام على الخفة التي اختطها لإفساد أخلاقهم ودينهم . وإضعافهم وإتناء الخلف بينهم . وكانت خطة شيطانية ارتجف اسماعها ، ثم عاد المتكلم فقال :

.. غير أنا رأينا أن نرجىء خطتنا . ونرمي آخر سهم في جعبتنا . وذلك أنا سمعنا أن هؤلاء القوم ملكاً عادلاً . يقيم في دمشق . فأر معنا أن نرسل إليه رسولاً . يرفع إليه شكايتنا . ويشرح له مظلمتنا . ثم نرى ما هو فاعل . وقد اخترناك لمعرفةك العربية وجراءة جنانك لتكون أنت الرسول ! فهل انت راضٍ ؟ قال : نعم .

قال : امضِ بنوفيق الآفة ... !

وخرج وما تسعه من فرط الزهو الأرض . وأحسن من الخفة والنشاط أنه سيطير ، ورأى ظلام النيل أبيض مضيئاً . ولقد اعتدها نعمة كبرى أن دخل المعبد . وكلم الكهنة . وكان موضع ثقتهم ونجواهم . وأن أووه شرف القيام بأضحى مهدة عهدوا بها إلى أحد . وشعر أن حرية قطر سمرقند وشرفه في يمينه . وأنه هو المحامي عنه والمنافع دونه . وكان لفرط شجاعته . يتمنى لو كثروه حرب المسلمين . وإخراجهم من بلده . ولم يكن يعرف مبلغ قوتهم . وجلال ملكهم ، وأن هذا القطر كله في جنب دولتهم كالساقية التي جاءت تغالب البحر ... ولو مد البحر وأزبد وهاج ، لاقتلع الساقية من منبعها فشربها ، فضاعت فيه ، فلم يبق لها أثر .. فلما شد رحاله وسافر ، ومضى يقطع الليالي الطوال . والأسابيع والشهور ، وهو لا يفتأ يمشي في ظلال الراية الإسلامية المظفرة ، لم يلق عصا التسيار ولم يبلغ العاصمة ... من سمرقند ، إلى بخارى ، إلى بلخ ، إلى هرات . إلى قزوين ، إلى الموصل . إلى حلب ، إلى دمشق ..

دنيا من الحصب والحضارة والمجد ، وبلاد كانت ممالك كثيرة ، ما مملكة منها
إلا وهي أعظم وأضخم من سمرقند... وما سمرقند في جانب ملك كسرى وخاقان؟ فأين
ملك خاقان وكسرى ! لقد ابتلعت المدينة المتوارية بين الحرتين ، وراء رمال
الجزيرة ، تلك القرية التي هزها محمد يمينه ، فولدت الأبطال الذين انتشروا في
آفاق الأرض وملكوها ... وأثبتت رمالها جنات الشام والعراق وفارس وخراسان...
وهذه البلاد الحصبة المرعة التي ليس لها آخر ... وكان كلما تقدم ورأى جديداً من
دنيا الإسلام ، تمتلئ نفسه فرقاً من لقاء الخليفة ...

وأفاق يوماً من ذهوله ، بعدما صرم في هذه الرحلة أشهراً ، على صوت الدليل وهو
يهتف باسم (دمشق) .

هذه دمشق ، سرّة الأرض : هذه سدة الدنيا . . هنا التقى والعلى والمجد والغنى
والجلال والجمال. من هنا تخرج الكلمة التي تمضي مطاعة ، حتى تنتهي إلى بلده سمرقند ،
وتمضي من هناك حتى تبلغ أرضاً أبعد وأناى ، حتى تجوز اسبانيا . هنا يقيم الرجل
الذي ملك مالم يملكه في سالف الدهر قيصر ولا كسرى ولا الاسكندر ولا خاقان ...
والذي لا يجد من جبال الصين إلى بحر الظلمات من يخالف عن أمره . أو يرد قوله .
ولكن كيف الوصول إليه ؟ وأنى لغريب منكر مثله بالدخول عليه ؟ وخالط قلبه
اليأس ... فسأل عن خان يتزل فيه ، فأرشد إلى خان أضى فيه لبلته ، فلما أصبح
أخرج ثيابه فلبس أحسنها ، وخرج ليلقى الخليفة ... وأقبل على أول إنسان لقيه يريد
أن يسأله عن (القصر) ، فاعترتة هية شديدة ، وخاف من مواجهة الرجل الذي
يحكم نصف الأرض ، والذي لا يبلغ ملك شاهنشاه العظيم ولاية واحدة من ولاياته ،
يحكمها أمير من أمرائه... وذكر كيف كانت تتصدع الأفئدة خوفاً من لقاء كسرى ،
وتقف الملوك على بابه ، وكيف كان يقتل على الظنة ، ويأمر بضرب عنق الرجل يقول
كلمة لا تعجبه ، أو يأتيه في ساعة يكون فيها لتقيس النفس ضيق الصدر ، وتلمس
عنقه وتخيله من الفرع مضروباً .

وتصور رأسه طائراً عن جسده ، فطارت معه حماسته وشجاعته ، وكره لقاء
الخليفة ، وفكر في العودة إلى بلده سالماً قبل أن يحقق به مصاب لا ينفعه معه مجد يناله ،
ولا وطن يحمره . ولا كاهن يرضيه...

وغرق في مخاوفه وأفكاره ، وجعل يسير على غير هدى ، وكلما مرَّ على قصر
من قصور دمشق ، ورأى بهاءه وعظمته ظنه قصر الخليفة ، فحقق قلبه واضطرب...
حتى رأى قصرأ ماله في جلاله نظير ، له باب هائل ، عرضه مثل الشارع العظيم ، له
قوس مشمخرة عالية ، ذات مقرنصات ونقوش ، قائمة على اسطوانتين من المرمر
الصفافي . ورأى الناس يدخلون ويخرجون لا يسأل أحد أحداً ولا يمنعه حاجب ولا بواب ،
فأيقن انه قصر الخليفة . وتشجع وشد من عزمه ودخل يتقدم رجلاً ويؤخر أخرى ..
فلما لم يرَ أحداً قد منعه سكنت نفسه . ونظر فإذا هو في صحن واسع . اذا كنت في
طرفه لا نستطيع أن نتبين من هو في الطرف الآخر . قد فرشت أرضه بناصع الرخام
فهو يلمع كالمرايا . والناس يجلسون عليه . وحوله جدران عالية ، ما رأى قط بناء
أرفع منها . وهي مزخرفة بأعجب الزخارف والنقوش . وفي وسط الصحن بركة
واسعة يتشجر منها الماء . فيضربه شعاع الشمس فيكون له منظر عجيب ... ونفذ من
الصحن إلى قاعة لا تقل عنه سعة ، ولا يبدانيتها بهاءً وجمالاً . قد قام سقفها على أساطين
الرخام ، تحمل أقواساً فوقها أعمدة أصغر منها . فوقها احناء وطاقات معقودة ،
تتأني من السقف سلاسل الفضة تحمل المصابيح والثريات . وجعل يمشي خلال الناس
ذاهلاً . لا يدري ماذا يصنع فاصطدم برجل كان يقوم ويقعد ويذكر اسم الله ... وتلفت
الرجل إلى اليمين وإلى الشمال . ونظر إليه فرآه غريباً . فسأله عن حاله . فسبق لسانه
إلى الحقيقة فأخبره أنه جاء من بلده يريد لقاء الخليفة . ثم تنبه وقدر أن الرجل سيرتاع
لذكر الخليفة بلا تعظيم ولا تبجيل . وأنه سيدفعه إلى الشرطي فيسأقه إلى السجن ...
فرأى الرجل ساكناً هادئاً كأنه لم يسمع نكراً . وسمعه يقول له :

— أتحب أن أدنك على داره ؟

— قال : أوليست هذه داره ؟ !

قال الرجل مبتسماً : لا هذا بيت الله ، هذا المسجد .. أصليت ؟

صلى ؟! وكيف يصلي وهو على دين سمرقند . ذك الدين الذي لا يعرف منه إلا هذا المعبد المملوء بالأسرار ، وتلك الآفة المخيمة ذات الوجه البشع المرعب... وجعل يفكر : أين هذا المعبد من معبده المختبئ في بطن الصخر ، وأين هذا النور وهذا الجمال . من تلك الظلمة وذلك القبح . وشك لأول مرة في عمره في دينه الذي نشأ عليه !

وأعاد الرجل سؤاله . فقال له : لا لم أصل . ولا أعرف ما الصلاة ...

— قال : وما دينك ؟

— قال : أنا على دين كهنة سمرقند ؟

— قال : وما دينهم ؟

— قال : لا أدري !

— قال : من ربك ؟

— قال : آفة المعبد المرعبة ...

— قال الرجل : وهل تعطيك إن سألتها ؟ وهل تشفيك إن مرضت ؟ !

— قال : لا أدري ...

ورآه الرجل ضالاً جاهلاً . فألقى في هذا القلب الخالي أصول الدين الحق بوضوحها واختصارها وجمالها . فلم تكن إلا ساعة حتى صار رسول كهنة سمرقند مؤمناً بالله ورسوله محمد . الذي جعل الله به العرب سادة الدنيا . وإن كانوا من قبل لفي ضلال ميين ...

ثم قال الرجل قم الآن أدلك على دار الخبيثة . وإن كانت هذه هي الساعة التي يعالج شأنه فيها ولشأن عياله . وينثره بنفسه .

وتبعه وهو ينكر في جمال هذا الدين وسموه . وقد زالت الغشاوة عن عينيه فأدرك الآن سر هذه التفتوح . وهذه القوة التي لم يقم لها شيء . أين هذه الديانة السافرة الواضحة التي تجعل كل واحد من أتباعها كاهناً ذا ورجل دين ... من تلك الديانة المجهولة الخفية ... أين ؟ ؟ ...

وخرج من المسجد . من باب غير الذي دخل منه ، فما راعه إلا الرجل يقول له : مشيراً إلى باب من أنواع الخشب . غير مصبوغة ولا منقوشة : هذه داره !

هذه ؟ ! أيمكن أن تكون دار الخليفة دون دور السوق من رعيته . وقد مرّ عليها فرأى فيها بهاءً وجلالاً ؟

ونظر إلى الرجل بحسبه يسخر منه فرآه جاداً ، فتركه وتقدم من الباب وهو شك فيما قال الرجل . ونظر فرأى كهلاً قائماً يصاح بالطين جدار المنزل وامرأة تعجن ... فترك الباب ولحق بالرجل مغيضاً صمغاً فقال له :

— ما كان لك أن تكذب عليّ وتسخر مني ، أسألك عن دار الخليفة فترشدني إلى دار طيان ؟

— قال : ومن الطيان ؟

— قال : صاحب الدار !

ووصف له ما رأى . . .

قال الرجل : ويحك هذا والله أمير المؤمنين الذي ليس فوقه إلا الله . وهذه المرأة ... ألا تدري من هذه المرأة ؟ هذه زوجة الخليفة عمر وبنت الخليفة عبد الملك ، وأخت الخليفين وليد وسليمان . وأخت هشام ويزيد وسيكوتان خليفين ، هذه أمجد امرأة

في العرب . ولقد كان أمير المؤمنين أرفق الناس عيشاً . وأكثرهم طيباً . ولكنه كان فيه عرق من عمر بن الخطاب فترغ به عرقه من عمر إلى ما ترى . فعد إليه ففرع بابه وانتفض إليه شكائك ، ولا تخف فوالله ما هو الملك المتكبر . ولا الحاكم الجبار . ولكنه عبدالله متواضع هين لين . فإذا رأى الحق أمضاه فلم يقف دونه شيء . وإذا غضب لله كانت العواصف والصواعق دون غضبه قوة ونفاذاً ... فذهب موقفاً .

مضى السمرقندي نحو دار الخليفة يتعثر في مشيته . يقدم رجلاً ويؤخر أخرى . تتقد نار الحماسة في نفسه فيخطو ، ثم تعصف بها رياح الشك فيقف . وكان يطير به الخيال إلى ملوك بلده ، فيتصور تلك الحجب على التصور . وأونك الحجاب على الابواب . والسيوف المصلنة ، والرماح المشرعة . ثم يبصر هذه الدار ... وهذا الذي قالوا إنه أمير المؤمنين ، فيزداد به الشك ... إنه يعرف السلطان الذي يحكم بالبطش . والرعية التي تطيع بالخوف ، أما سلطان العدل . وضاعة الحب . فشيء لم يعرفه في بلده !

واستمر في نفسه أن الرجل يسخر به . فعدا وراءه حتى لحقه وقال له :

... نشدتك الله أيها الرجل ، هل هذه الدار هي دار أمير المؤمنين ؟

قال : نعم والله إنها لهي داره ! ... هذه دار الرجل الذي أورثته شريعة القرآن تبعجان الملوك الأربعة : كسرى وقبصر وفرعون وخابقان . فكانت هامته أرفع من أن يبلغها تاج منها . فما سمت إليها الا (العمامة) تاج العرب ... هذه دار الرجل الذي جبيت إليه ثمرات الأرض ، فكال الذهب كيلاً . وأعطاه لمستحقه باليدين ، ومنع الفقراء الجواهر . وقسم في المحتاجين اللور ، وبقي هو وأسرته بغير شيء ... لأن نفسه أكبر من أن يملأها كل ما في الدنيا من ذهب وجوهر ، إنها أكبر من الدنيا . فلذلك حققتها وطمحت إلى ما هو أعظم منها : إلى الجنة !!

وما هجر الحياة ومناعمها ليأوي إلى غار في جبل فيعتزل الناس . أو إلى مسجد

فيتاجي الله . إذن لزيد العباد واحداً . ولما كان في ذلك حديث يروى : ولا عجب يؤثر ، ولكنه زهد في الدنيا وهو رجل الدنيا وواحدتها . وإليه أمرها . ويده بعد القدر صلاحها وفسادها . فهو في اللجة لا يبتل . وهو (في النهب ولا يخرق) وهو زاهد ولكن في رأسه عقل حكيم . وفي صدره قلب بطل . وفي فيه لسان أديب . فهو يدير بعقله هذا الملك الواسع . بقضائه وماليته وداخلته وخارجيته . وسلعه وحربه . وهو القائد وهو المفتي وهو المعلم ... أداره أحسن إدارة وأقومها . فاستقر الأمن . ونامت الثورات . وقعد القائمون بالمعارضة . وسكت الناقمرون على بني أمية . وتصافى الشيعي والخارجي : والمصري واليهاني . والأسود والأحمر^(١) . واصطحب في البرية الذئب والحمل^(٢) ... وهو يواجه بقلبه أحداث الدهر ، فترتد عنه الأحداث ارتداد الموج عن صخر الشاطئ . وهو يعوغ ببيانه الحكمة العليا أدباً خالداً ...

سمع غداة بويغ بالخلافة مكرهاً . هداة ارتجت منها الأرض . وكان منصرفاً من دفن أمير المؤمنين سليمان فقال : ما هذا ؟ قالوا : مراكب الخلافة قربت إليك لتركبها ، بالسروج المحلاة بالذهب . المرصعة بالجواهر . فقال : مالي وما لها ؟ نحوها عني وقربوا لي بغلتي . وأمر بها أن تباع وبدخل ثمنها بيت مال المسلمين . فتربت إليه بغلته فركبها . وجاءه صاحب الشرطة يسير بين يديه بالحربة . فقال له : تنح عني . مالي وما لك ؟ إنما أنا رجل من المسلمين .

ومشى بين الناس ، راكباً على بغلته (بلا موكب ولا حربة ولا راية ولا طبل) الرجل الذي يحكم الأندلس ومراكش والجزائر وتونس وطرابلس ومصر والحجاز ونجداً واليمن وسورية وفلسطين والأردن ولبنان والعراق والعجم وأرمينية والأفغان وبخارى والسند وسمرقند ... مشى ومشى الناس بين يديه حتى دخل المسجد . فقام على المنبر ، فقال :

(١) كناية عن العرب والمجم (من كنايةاتهم) .

(٢) انظر سريرة عمر لابن الجوزي ، وسيرته لابن عبد الحكم .

أيها الناس : إني قد ابتليت بهذا الأمر من غير رأي كان مني فيه . ولا ضلب له ،
ولا مشورة من المسلمين . وإني قد خلعت بيعتي من أعناقكم . فاختراروا لأنفسكم .

فصاح الناس صيحة واحدة : إننا اخترناك ورخصنا بك .

ومشى الى الخضراء . وما الخضراء ؟ جنة الأرض التي حشر إليها كل ما في الأرض
من كنوز و طرف . القصر الذي أزرته عظمته بالخورنق والسدير وغمدان والإيوان ،
فأمر بستورها فأنزلت . وبسطها ونمازقها فطويت . وبطرفها وكنوزها فحملت ،
وأمر ببيع ذلك كله ووضع ثمنه في بيت المال . وأم داره هذه .

فقال الناس : إنه رجل صالح . ولكن الملك له أهل ، إن الملك لا يقيمه إلا قوي
أمين ابن دنيا ...

ظنوه أم داره يتبع فيها يسبح ويهتلل . فإذا به يحد قلمه . ويعدّ قراطيسه .
ويكتب من فوره بيده . إلى أقاليم الأرض . منشوراً فيه الدستور الذي لا يقوم إلا به
الملك . وينفذ الكتب من ساعته . فعلموا أن خليفتهم زاهد في الدنيا . ولكنه ابنها
وأبوها ...

فعل ذلك كله من الصباح إلى الضحى . ثم ذهب يقبل . فأتاه ابنه
عبد الملك . فقال : يا أمير المؤمنين . ماذا تريد أن تصنع ؟ قال : أي بني أقبل . قال : تقبل
ولا ترد المظالم ؟ قال : أي بني إني قد سهرت البارحة في أمر عمك سليمان . وإني
إذا صليت الظهر رددت المظالم . قال : يا أمير المؤمنين ، من لك أن تعيش إلى الظهر ؟
فترك مقبله ، وخرج فبعث مناديه ينادي : ألا من كانت له مظالمه فليرفعها ، فإني
منصفه من نفسي ومن آل بيتي ومن الناس أجمعين .

ولقد والله فعل أكثر مما قاله !

نعم يا أيها الغريب . هذه دار أمير المؤمنين ، فلا يغرك صغرها وضيقها ، وعطل
أبوابها من الزخرف وجدرانها ، وإنه لا حاجب عليها ولا جند بابها ، فإن هذه الدار

أكرم من كل قصر حملته على ظهرها هذه الأرض^(١) . فامش إليها ولا تخف !
فعاد السمرقندي . فلما دنا من الدار سمع ضجة ورأى ولدين قد شج أحدهما
الآخر شجة منكرة . ورأى الخليفة يخرج بنفسه فيأخذ الولدين . فيراه . فيسأله .
فيقول : إني متظلم يا أمير المؤمنين . فيقول له : مكانك حتى أعود إليك . ويدخل
بنغلامين ويسمع السمرقندي صوت امرأة تصرخ : « ابني » . فيعلم انها أم الولد
المشجوج . وتدخل الدار مريئة . فترى الولد الآخر . فتقول : ابني .

ويسمع القصة فيعلم أن ابن أمير المؤمنين قد خرج يلعب مع الغلمان فشجه ابن هذه
المرأة . وتقول المرأة : إرحموه . إنه يتيم فقير . ويرق قلب السمرقندي ويشفق على
هذه المرأة أن تضرب عنق ابنها أمامها . وهو طفل لا ذنب له ولا يسأل عن فعلته ،
وإن أمير المؤمنين يقول لها : أما له من عطاء ؟ فتقول : لا . فيقول : سنكبه في
النرية .

وتخرج المرأة شاكرة داعية ، ويسمع السمرقندي فاطمة بنت عبد المذنب تقول
مغضية : فعل الله به وفعل إن لم يشجه مرة أخرى . فيقول الخليفة : إنكم أفزعتموه^(٢)
وخرج الخليفة فدعاه . فسأله عن حاله . فشكا إليه قتيبة . وأنه دخل سمرقند غدرأ
من غير دعوة إلى الإسلام ولا منابذة ولا إعلان .

فقال الخليفة : والله ما أمرنا نبيتنا بالظلم ولا أجارد لنا . وإن الله أوجب علينا العدل
في المسلمين وغير المسلمين . يا غلام ... قلماً وقرطاساً !
فجاء الغلام بورقة قدر اصبعين . فكتب عاينها أسطراً وحنمها وقال له : خذها إلى
عامل البلد !

ورجع بطوي هذه النشقة مرة ثانية . وكالما وصل إلى بلاد دخل المسجد فوقف في
الصف . كنفه إلى كنف أخ له في الإسلام . ووجهته وجهته . وفي قلبه إيسانه .

(١) الدار هي المدينة المسيحية اليوم .

(٢) سيرة عمر لابن الجوزي طبع مطبع محب الدين لخطيب سنة ١٣٢١ ص ١٤٦ .

وعلى لسانه تسيحاته وتكبيراته ... أحسن انه عضو في هذه الجمعية الكبرى . وأدرك
 عظمة هذا الدين وحلاوته . اذ يؤم المسلمين واحد منهم . فلا قساوسة ولا كهان .
 ويصلون في كل أرض فلا معابد ولا تماثيل . ويتقنون جميعاً صفاً واحداً . فلا كبير
 ولا صغير . ولا مأمور ولا أمير . وشعر معظم هذه الدائرة التي تطيف من حول الكعبة
 تمر على السهل والحزن . والعامر والغامر . والمدينة والقرية . يقوم فيها عباد لله .
 هم رهبان في الليل وجنّ في النهار ، خاشعة قلوبهم . وأبصارهم . وجوارحهم .
 يقفون أمام رب العالمين ، فلا يباليون الدنيا كلها . بلذائدها وآلامها . وخيرها وشرها !
 ولم تثقل عليه هذه المرة سعة دنيا الإسلام لأنها صارت دنياه . ولم يجد هذه السفرة
 مشقة ولا تعباً . لأنه كان كلما انقضت الصلاة وجد في المسجد (في كل بلد يمر عليه)
 من يسأله عن حاله . فإذا عند أبيه غريب أنزله داره . وقدم له قراه . ومنحه عونه .
 فكان يقابل بين مجيئه كافرأ وبين عودته مسلماً . وكيف كان يشعر بطول المشقة .
 وبعد الطريق . وألم العربة . فصار يتقلب في النعيم . ويحمل على أكف الأخوان .
 فيدرك سر المسجد وجمال هذا الدين !

ووصل إلى المعبد . ولكنها لم ترعه هذه المرة تماثيله ولا مصابيحها ، ولم يمتلي ، قلبه
 فرقاً من أسرارها وخفائها . فقد أضاء له الإسلام ظلمة الحياة . فرأى حقائقها من
 أوهامها . وعلم أن هذه الأصنام التي نحتوها بأيديهم وسموها آلهة . لا تنفع ولا تضر .
 ولا تمنع عن نفسها ضربة الفأس . ولا صب النار . ولكنه كتم إسلامه . وقرع الباب
 قرعة السر . ففتح له . وراه الكهنة بعد أن حسبوا أنهم لن يروه أبداً . ووصف لهم
 ما رأى . فكادت أعينهم تخرج من حناجرهم دهشة ... وأيقنوا أن قد جاءهم الفرج ،
 وأمروه فحمل الكتاب مختوماً إلى العامل ، فإذا فيه أمر الخليفة بأن ينصب قاض يحكم
 إليه كهنة سمرقند وقتيبة ، فما قضى به فقد قضاؤه !

وأطاع العامل ونصب لهم قاضياً ، جميع بن حاضر الباجي . وعين موعد المحاكمة
 ولما عاد فأخبر الكاهن الأكبر ، أظلم وجهه بعد إشراقه . كما تبرد في سماء النهار

الصحو السحب السود . وخبا ضياء الأمل الذي بدا له فحبه فجراً صادقاً ، فإذا هو برق نخلب .. وأيقن أن هذه المحاكمة فصل جديد من كتاب غدر المسلمين ...

... وجاء اليوم الموعد . واحتشد أهل سمرقند من كل قاص منها ودان ، وجاء الكهنة الذين كانوا محتجين لا يراهم من أحد ، وجاء القائد الفاتح الذي خلف قتيبة ، وكانت المحكمة في المسجد . فتعدوا ينتظرون القاضي .

ولم يكن الكهنة يأملون في شيء ... وفيهم يأملون ؟ في أن يحكم ضم القاضي المسلم بطرد المسلمين من سمرقند ؟ يحكم لهم هم المغلوبين على أمرهم ، المخالفين للقاضي في دينه . الذين لم يبق لهم حول ولا طول ؟

وعلى من يحكم ؟ على خلفاء القائد المغرر الفاتح الذي لم يبطأ أرض المشرق قائد أعظم منه . ولا أكثر ضرراً . ولا أعظم فتحاً ، اسكندر العرب : قتيبة ؟

كانت القلوب تخفق ارتقاباً لأعجب محاكمة سمعت بها أذنا التاريخ ، وكانت الأبصار شاخصة إلى باب المسجد الذي يدخل منه القاضي الفرد ، الذي وضعت في عنقه أعظم أمانة وضعت في عنق قاص ، والذي ألقى بين حجري الرحي ، فها هنا . صلحة أمته . وسيادة دولته . والبلد العظيم الذي خفقت فوقه راية الإسلام ، وامتلكه أهله . وهناك الحق والشرف . وإنما لمزلة أقدام القضاة ، وإنما لمحنة الضمائر ...

وكان صاحبنا السمرقندي يقرأ الشك والارتياب ، في وجوه أهل بلده . وفي أوجه الكهنة . كما يقرأ المرء في صحيفة منشورة أمامه . أما هو ، وأما المسلمون فلم يكونوا يشكون ، ولم تكن تداخلهم ريبة في ن الحق والشرف ، فوق مصلحة الوطن ، وما الوطن ؟ إن وطن المسلم دينه فحيثما صاح المؤذن : « الله أكبر » فتحة وضنه ... وإن جهاده للحق . فإن جاء الحق زهق معه كل باطل ، ولو كان فيه نفع الأمة ، وكان فيه الغنم الأكبر .

ونظروا فإذا رجل له هيئة الاعراب ، هزيل ، ضئيل الجسم ، شاحب اللون ، قد

لاث على رأسه عمامة له ، ووراءه غلام ، فجاء حتى قعد على الارض محتياً ، وقام غلامه على رأسه .

أهذا هو الرجل الذي أنى ليحكم على خليفة قتيبة العظيم . وعلى أميره . وعلى مصلحة دولته ؟ أهذا هو قاضي المسلمين ؟

وانظفأت آخر شعاعة من الامل في نفوس الكهنة . ونادى الغلام . باسم الامير . وهكذا بلا اماراة ولا لقب ، فجاء حتى جلس بين يديه ، ونادى باسم كبير الكهنة فأجلسه إلى جانبه .
وابتدأت المحاكمة ...

• • •

وتكلم القاضي فاذا صوته يخرج خافتاً ضعيفاً فقال للكاهن :
— ما تقول ؟

— قال : إن القائد المبعجل قتيبة بن مسلم . قد دخل بلدنا غدرأ من غير منابذة ولا دعوة إلى الإسلام .

— قال القاضي للأمر : ما تقول ؟

— قال : أصاح الله القاضي ، إن للحرب خدعة . وهذا يناد عظيم قد أنقذه الله بنا من الكفر . وأورثه المسلمين .

— قال : أدعوتهم أهله إلى الإسلام ، ثم إلى الجزية . ثم إلى القتال ؟

— قال : لا .

— قال : إنك قد أقررت ، وإن الله ما نصر هذه الأمة الا باتباع الدين واجتناب

الغدر . وإنا والله ما خرجنا من بيوتنا الا جهاداً في سبيل الله . ما خرجنا لنملك الأرض ولا لننعلو فيها بغير الحق . حكمت بأن يخرج المسلمون من البلد . ويردوه إلى أهله . ثم يدعوهم وينابذوهم ويعلنوا الحرب عليهم^(١) .

(١) كذلك . لا كما صنعت لجنة التحقيق التي اختاروا رجالها من أكابر قضاة ذكرا وأمركا . وانتموها عن شرف القضاة السكوتوني التي كان الجهلة منا يضربون بعدائه الأمداء ويعنوها تصور لجانها . تسأل كل رابع ولده =

ورأى الكهنة وأهل سمرقند وسمعوا ، ولكنهم كذبوا عيونهم وآذانهم ، وضنوا
أنهم في حلم ، وليثوا شاخصين . حتى أن أكثرهم لم يلحظ أن المحاكمة قد انتهت ،
وأن القاضي والأمير قد انصرفا ، وجعل صاحبنا السمرقندي المسلم . ينظر في وجه
الكاهن الأكبر . فيحس أن نور الحق قد أشرق على قلبه الذي رققته العزلة والتأمل ،
وكان الكاهن ينظر إلى عالمه الذي طالما أحبه وآثره . فيراه عالماً ضيقاً مقفراً ، وينظر
إلى دنيا الاسلام . فإذا هي خصبة واسعة . مزهرة بالخير والعدل والجمال . وما عالمه؟
فجوة معتمة وسط الصخر الأصم لا يبلغها شعاع الشمس ، ولا ضياء القمر .
ولا زهر الربيع . ولا جمال المجد . ولا جلال الإيمان ...

وسطع النور في قلبه فرأى أن ديانته كهذا المعبد . فأين هذا المعبد من معبد الإسلام ،
وهو الأرض الطهور التي تمتد حتى تصل إلى بلاد ما سمع بها ؟ ... أين ضيقه من
سعتها ؟ أين ظلمته من نورها ؟ أين سقفه الواطي من سمائها العالية .

إنه أُلحد في دينه وخرج من المعبد . وقد حرم عليه الخروج منه . فلن يعود إليه أبداً .

أيعود الحزين إلى بطن أمه بعدما رأى بياض النهار . ورحب الكون ؟

أيعبد مرة ثانية تلك الآلهة ذوات الوجه البشع المخيف . بعد ما عرف رب الأرباب

وخائق كل شيء ...

لا . لقد ماتت ديانة المعبد ومرت أيامها . فهل لما مر ما أب ، هل يعود أمس الغابر ؟

ومرت ساعات . وإذا الجو يموج بصليل الأبواق . ويرتجف من إرعاد الطبول .

ونظر فإذا الرايات تلوح على حواشي الأفق القريب فسأل : ما هذا ؟

قالوا : لقد نفذ الحكم وانسحب الجيش .

= هل فلسطين حق لأصحابها الذين يسكنونها ، أم هي حق لجماعة النصوص الذين جنزوا يسرقون انبيوت من
أصحابها . فدارت حتى دبر بها ، وصعدت إلى السماء ، ونزلت إلى الأرض ، وبخنت ونقبت فظهر لها أن الحق مع
القص ، فحكمت بطرد صاحب الدار منها ليدخلها الحص ويقيم فيها !

هذا الجيش الذي لم يقف في وجهه شيء من مدينة يثرب إلى سمرقند ، وانذي
اكتسح جيوش كسرى وقيصر وخاقان ، رده كرامة من شيخ هزيل خافت الصوت ،
ليس معه إلا غلام ، بعد محاكمة لم تستمر إلا دقائق . ولكنه سينر وسيهود إلى القتال ،
أفتقوى سمرقند على ما عجزت عنه الممالك كلها ؟

أترد صخور هذا المعبد سيل الحق الدافق ، وتأكل ظلمته نور الاسلام ؟

لا . لقد قضى الله أن يمحو الفجر سدفة الليل . لقد أطل على العالم يوم جديد . فان
تنواري من نور هذا اليوم في ظلمة المعبد .

وأقبل يسأل أصحابه : ماذا تقولون ؟

فيقول السمرقندي المسلم : أما أنا فاقدم شهادات أنه لا إله الا الله ، وأن محمداً عبده
ورسوله .

فيقول الكاهن : وأنا أشهد :

وتنزّل سمرقند بالتكبير ... ويعود الجيش المسلم إلى البلد المسلم ، لم يبق حاكم
ولا محكوم ، ولا غالب ولا مغلوب ، صار الجميع إخواناً في الله ، لا فضل لعربي
على عجمي ، ولا لقوي على ضعيف ، إلا بالتقوى والصلاح وخلال الخير .

ودخلت سمرقند كلها في الإسلام ، فلن تخرج منه أبداً .



مع النابغة الذبياني

على أطلال دار «نعم»

لما بلغ الركب مشارف نجد . وترك القارة السوداء عن يمينه . واستقبل تل بني عامر ، احسن الشاعر بفرحة غامضة تشتمل عليها ضلوعه . ويرقص لها قلبه . ولم يعرف لها سبباً ؛ حتى اذا بلغ الركب ذروة التل . وتكشف له الفضاء الرحيب . ومن حوله تلال الرمل الأحمر آخذ بعضها برقاب بعض . وهي تتموج تموج البحر . لينة رخوة تود النفس لو نامت عليها ، ثم اتخذت منها جناحين ناعمين . طارت بهما في أجواء حلم فاتن ، والعلم الشرقي يلوح من بعيد بأوديته القاحلة . وصخوره المهولة . ودون ذلك كله السهل الأفيع . وغديره الذي لا ينضب . والنخلات اللطيفات به إطفاء العاشق بمتزل الحبيب ... هنالك أدرك الشاعر سر فرحته : هذه ديار نعم !

وأقبل الركب ينحدر عن التل ، وقد مدت الإبل أعناقها ، فسالت بها تلك السفوح والحدود ، واستطاب السفر الاغذاذ ، فضربوا بطون الإبل ، يفتنمون لبن الأمسية وطيبها ، بعد حرّ الهاجرة واشتعالها ، ليبلغوا الغاية بعدما طال عليهم السفر ، وقطعوا فيه سواد إحدى عشرة ليلة وبياض نهارها ... وإذا الشاعر يصرخ فيهم صرخة معمود الفؤاد حزين :

عوجوا فحيّوا لنعم دمنة النادر

ويلطم عنق ناقته لا ينتظر جواباً . فيحرفا ذات اليمين . وينطلق يحدوه الشوق .
وتدفعه الذكريات إلى ديار المحبوب . ولم يشأ أصحابه أن يتركوه بهم في هذه القفار
وحيداً . فتمعنوه عن كثب . يخافون أن تنكأ الدار جراح قلبه . ولما يبرأ من داء الغرام .
كان الشاعر ضاحك الوجه متهاطلا . كأنما قد رجع إليه شبابه الذي ولى منذ حين .
وعادت لياليه البراسم . فلم يكذب بلغ أخي الخالي . ويراه قفراً يبأبأ . حتى وقف
وغمرت نفسه كآبة طغت على وجهه . فلاحت ظلالها في عيون الرفاق . فأحزنهم
مرآه . وفاضت نفوسهم بالرتاء له والحدب عليه . وودوا لو استطاعوا أن يواسوه .
ويرفخوا عنه قر الذكريات . فأحاضوا به وعيونهم تنطق بكلمات الحب والاشفاق .
ونكثهم أحرموا صمته وأساه . فلم يحركوا ألسنتهم بكلمة... وظلت أفكار الشاعر
شاردة كأنما هي ضائعة في النضاء . فطنقوا يثيرون التباهه اليهم . ويحاولون أن
يشعروه بأنهم حوله حتى يعود إلى حاضره . وهو غارق في بلج الماضي . يفكر في
المرأة التي أحبها وأحبه . ويلمح وجهها طالماً عذبه من كل صوب . ويرى عينيها
المتين جعلتهما مرآة تنجلي فيها ألوان العواطف : فهما تضحكان بلا صوت . وتبكيان
بلا دمع . وتغضبان وترضيان . وتعطيان وتمنعان . وإن من الجمال ما يثير الشهوة .
وينطق بلغة الغريزة . ولكن جمال نعم يثير الخنو والعطف . ويهيج في النفس الحب .
فتفتنى حاجيات الخسد في مطالب الروح . ويرفع إلى عالم كله ظهر . وينسى من يراه
دنياه حين تغمره لذات هذه الدنيا الصغيرة من الجمال . ويجمع أهواءه المتفرقة في
هوى واحد . هو الثرب منها . والاطمئنان إليها . والثناء فيها ...

وجعل يضوف بالحي طواف العابد المتسلك بالبيت الحرام ، يخيل إليه الوهم ان
الحبيب دان والشمل مجتمع . ثم صحا وانتبه . فإذا يده صفر من هذا التعميم كله .
وإذا الحياة قد ماتت في أخي . وخرب العمران . وامحت صفحة من أمتع صفحات
الحب والجمال . فلم يبق منها إلا بقايا سطور . هنا كانت خيمة الحبيبة مهوى
أمانيه وكمية آماله . وكان نعيمه كلسه في أن يجلس فيها مع « نعم » فتناجسه

بأسراها وتفتح له قلبها . ويبيحها أسرارها ويكشف لها عن قلبه . وتلك هي غاية ما يبتغيه
المتحابون :

أيام تخبرني نعمم وأخبرها ما أكنتم الناس من حاجي وأسراي
وهنا كان موقد أهلها . طالما جالسها عنده تأنس روحه بقربها . ويحيا فؤاده
بنجواها . ويتعش قلبه بأنفاسها . التي لو لامست حرارتها الجلمد لو هبته الحياة .
فكيف بقلب الشاعر ! فلم يبق من خيمة الحبيب . إلا هذه الخفرة التي كانت تحف
بها تمنع عنها المطر . ولم يبق من موقدها إلا تلك الحجارة السود !
وتبلجت الحقيقة للشاعر المسكين . وانتابه الجمل مما حمل لا

وتبلجت الحقيقة للشاعر المسكين . وانتابه الجمل مما حمل رفقة من عناء العوج
على دار الحبيب . والدار قواء . وقد عبثت بها الرياح اذوج . وألبستها ثوباً من التراب
فأقبل يسألهم . وفي تآنة رجفة الجمل . ورتة الأسي :

... .. ماذا تحيون من نوى وأحجار

أقوى وأقفر من نعم وغـيـره حوج الرياح بهابي السرب موار
ويهم أصحابه بالرحيل لطيتهم . يحسبون الشاعر قد آب إلى نفسه . واستوفى من
زيارة الدار مناه . ويسايرهم يريد براحاً . ولكنه لا يستطيع . ويجد نفسه معلقاً
بالديار قلبه نهب بأيدي الذكر . وحياته مبعثرة في نواحي الربع . فيقف ناقته المأمونة ،
ويرجع ليسأل الدار عن نعم وآلها :

وقفت فيها سراة اليوم أسألها عن آل نعم أموناً عبر أسفار
فاستعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلّمنا ذات الخبار

والدار سجل الماضي الخلو ، والدار كتاب الحب ، فيها ولد ونما . وعلى هذه
التلال الطرية الفاتنة ، في الليالي السلاجية ذات النجوم السواهر ، وفي ظلال تلك اشعاف
البعيدة ، في مدخل الوادي المتلوي الرهيب . اذ ينفران فيه في شدة الهاجرة . يأويان
إلى ظله وبرده ، فيحيله الحب جنة عدن ؟ وعلى الغدير اذ يصب فيه القمر زلاله الصافي
النمير ... كم شهدت هذه المغاني من صور الحب ، وكم حفظت من ذكرياته !!

خبري يا دار عن الحبيب وآله : ماذا حل بالحبيب؟ يا دار! قد ذهبت المجالس ، وقوضت الخيام . واقفرت من أهلها المنازل . أفيمحي الحب من الوجود . مثلما أمحت منازلهم ... أفنى الغرام؟ إن الروح باقية يا دار . فلماذا لا تبقى العواطف ، ويخلد الشعور؟ ... او ليست الذكرى من الماضي كالظل من الضاحي ... خبريني إذن يا دار عن حبي . إن ذكراه لا تزال حية في نفسي ، فأين الحب؟ أيكون ظل لشيء وليس من شيء؟

ألتماضي حقيقة قائمة ووجود ملموس . وأين مكانه في هذا الكون؟ أهو شيء وراء المادة ، أم هو منها وفيها . أم هو قد فني الا صورة له في الذهن هي هذه الذكرى؟ أو تكون الذكرى هي العذاب لنا . والنسيان هو الدواء؟

أيموت الحب كما يموت المحبوب؟ ما الحب . ما البغض ، ما الحياة؟ خبرني يا دار ماذا صنعت بحبنا وما استودعناك من أنفاسنا الحرار؟ أبردت هذه الأنفاس واستحالت هواء تصفر به الريح؟ ووسوسة القبل؟ أسكنت (هزاتها) وعادت صمناً؟ وذلك الحديث الذي كان كأنه قطع الروض المطور؟

وأين أثر أقدامنا حين كنا نسير والحب ثالثنا . ومع الحب الطهر والعفاف؟ أين يا دار ذهب أمس بما يحمل من شعورنا وعواطفنا؟ أين ينصب نهر الزمان؟

هل يلتقي الشيخ المهدم بالشاب المتوثب الذي كان يوماً إياه؟ أين ذلك الطفل الذي كان يوماً (أنا ...)؟!

ماذا حل بنعم يا دار نعم؟ لقد سمع القمر نجواها وحديثها ، وحمل النسيم طيبها وأريجها وألبستها الشمس حلة من نورها ، وكستها الأمطار ثوباً من قطرها ، فهل تخبرني عنها الشمس والقمر ، وهل يحدثني حديثها النسيم والمطر؟

لقد كنت في نعيم مع (نعم) ، فما لي أجد هذا النعيم أحلى كلما أوغل في البعد عني؟ مالي أحن إلى الماضي كله ، وأرى سعادتي فيه أكبر ، كلما ألقيت بيني وبينه

من الأيام سجع وأستار ؟ مالي تلذني مآسيه وتولمني أمراجه ، الأني فقدتُها وخرجت
من يدي ؟

هاذا عندك يا دار ؟ خبري !

يا أسفي !

استعجمت دار نعم ما تكلمنا والدار لو كلمتنا ذات أخبار

• • •

وراجع الشاعر كربه وأساه . لقد ترك الدار تفيض بالحياة . وتضج بالأحياء .
تعيش لدحج والحرب : وتلك هي حياة العربي في جاهليته ، وقف على قلبه وسيفه...
فإذا احتضن الجبل الشمس الغاربة . اجتمع الحي على الغدير . فتشرق فيه شمس جمعة
وأقمار من كل فائنة الطرف غضة الاهداب . ذات حسن غير مجلوب . فتدور سوق الغرام .
وينشأ الحب من النظرة الأولى (وأنف السيكولوجيين راغم) . ويعيش هذا المولود قويا
مدنلاً . وإن لم يستكمل مدة حملته . وإن ولد (على رأيهم) قبل أوانه . وينمو ظاهراً لانعلاقه
ريية ولا يدنس مخاطر سوء . غداؤه النظر والكلام . هو حب الصحاري لا يعيش في المدن .
ولا يلدي به علماءها... وإذا أصبح الصباح وأضحى الضحى وتسعرت
الشمس وتلظت . وبدا الموت من وراء الرمال المتأججة كالحج الوجه كاشراً عن نابه...
عصفت في الحي صرخات فرسانه الذين لا تشبههم الخواجر . عما نذروا نفوسهم له من
المجد . يطيرون بخيولهم إلى الغايات النجيج . والبيد القفار . يحملون لبني العمومة
الموت الأحمر . على ظبا الأسنه وشفار السيوف . لم يكن قد بعث الله ضم بعد من يعلمهم
أن المجد في إعلاء كلمة الله . لا في قتل بني العمومة . ونهب أموالهم . ولم يكن قد
جاء من يقودهم إلى قرطبة من هنا . والسند من هناك . فيكتبوا تاريخهم في سطر
طويل يمتد من الأندلس إلى الصين . عنوانه : « لا إله الا الله محمد رسول الله » .
« إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذي القربى . وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى » .
وخلال ذلك ربائب البيوت . يهين الحياة الرعدة لأولئك الفرسان البهائيل . فلا تجد

في الربيع إلا عاملاً كادحاً لا ينسبه الحب أماني المجد . ولا يسليه المجد عن أحلام الحب ...
فلم يلق الشاعر من هذا العالم كله الذي خلقه يوم ارتحل . إلا الحجارة التي كانت
موقد النار . وهذا النبات الضعيف الوائي الذي لا تحمله سوقه . فيمتد على الأرض
عاجزاً ...

فما وجدت بها شيئاً ألوذ به إلا الثمام والاموقد النـرار

.....

و كأن الشاعر قد اختبل ، ولم تحمل أعصابه هذا الهول كله . وعرفته جنة فانطلق
ينادي وهو هائم على وجهه في الربيع المقفر : نعم .. يا نعم ! هاأنذا أتيت فتعالي . لقد
جئتك بأمتع أحاديثي - وأجمل أشعاري . يا نعم ! مالك لا تجيبين ... لقد طففت بالربيع
كله . جئت خلال الحيام . وأممت التل . وأممت بالوادي . وجثوت عند الصخرة .
فوجدت ندى الحب ، ولمحت طيف الذكرى . وشممت عطر الماضي الحلو . والكني
لم أجده أنت ! فأين أنت يا نعم ؟

وظفقت بضحك ضحكاً مروعاً أجفل منه الرفاق . وأمسكوا قلوبهم بأيديهم .
وحبسوا أنفاسهم حزناً على الشاعر الذي جن حقاً . وجعل يعانق شيئاً يتوهمه في الفضاء
... ثم سكت فجاءة . وجذب رفيقه الحارث إليه . فجعل يشير له إلى بقعة غامضة في
الفضاء . ويقول له :

..... تثبت نظرة حـرار

..... ألمحة من سنا برق رأى بصرى
فيحار الحارث ولا يدري بماذا يجيب . وهو لا يرى برقاً ولا يبصر شيئاً . ولا يقدر
أن يفجع الشاعر بأحلامه . فيزيده جنة فيسكت ملثاعاً .

..... أم وجه نعم بدا لي ؟ أم سنا نار

ويسكن الشاعر ويعلو وجهه إشراق وإبتسام . فيسير مرحباً وهو بهمس همساً
ناعماً . فرحان مبتهجاً .

بل وجه « نعم » بدا والليل معتكراً فلاح من بين أثواب وأستار
ويغمر حسه خيال « نعم » ويملاً خواطره وشعوره ، ويرى عينها فيحس
كأنما دارت به الأرض . وهو يحدق فيهما ، ثم أسرعت في دورانها ثم اختفت بما
عليها ولم يبق في الوجود الا عينان . قال الله كونا فكانتا . فعولان بالألباب ما تفعل
الحر .

وخالط نفسه الميل اليها والرغبة منها ، والرغبة في امتلاكها ، وافنائها فيه ،
والاستسلام اليها والفتاء فيها ؛ واختلطت عليه المشاعر ، فلم يعد يعي شيئاً إلا أنه يعيش
مرة ثانية في الماضي الحبيب ، فأعاد طوافه بالربوع التي كانت مهد غرامه ، وجنة
أحلامه ، والرفاق ينظرون اليه ولا يقدرّون له على شيء وطيف « نعم » ما يفارقه
فصورتها في ناظره نقية حلوة ، مخلوقة من النور ...

بيضاء كالشمس وافت يوم اسعدها لم تؤذ أهلاً ولم تفحش على جارٍ
وعطرها في أنفه ، لا العطر الذي تستعيره الحسان من الزهر ، ويستجدينه الروض ،
بل العطر الذي تقبس الوردة منه ، فنتيه على زهور الحقل بأريجها ، وتأخذ منه الزنبقة
فتمختال منه عجباً ، وتشمه القلة فتميس بين الرياحين دلالة ، لا تمس « نعم » الطيب
إلا لتطيه بها ...

والطيب يزداد طيباً ان يكون بها في جيد واضحة الخدين معطار
وبهمس الشاعر في أذن الطيف الذي يراه أحاديث الغرام ، ويثه الشوق المبرح
والحنين الطويل ، والطيف صامت لا يجيب ، فتحالطه الحرة والكمند ، ولا يدري
لهذا العتب سبباً ، ويود لو فداها بروحه وأعتبها . ويقبل على الرفاق يقول لهم
وما قوله إلا صدى أفكاره ، ورجع ما في نفسه من الحرات :

نبئت نعماً على المهجران عاتبة سقياً ورعياً لذاك العاتب الزاري
ويخاف الرفاق أن يطول بالشاعر تذكره ، أو يعود إلى جنته فلا يزالون به حتى
يصحو من سكرته ويعود اليهم .

* * *

وبولي الركب عن دار « نعم » والشاعر منكب على راحلته صامت كئيب ؛
يفكر في دار الحبيب ، وهي خلاء قواء . تنشد فيها الرياح أناشيد الثناء : لا اخب
عاد ولا عادت لياليه ، ولا الشباب آب ولا آبت مجائبه ، وانما هي الذكريات انبعثت
في صدر الشاعر فهدت أركانها ، وضعضعت بنيانه . وشعبت في قلبه شعبة تفجر منها
الشعر صادق اللهجة ، ملتهباً بالعاطفة . قد خرج من فؤاد ائتكل من نار الجوى ،
يبكي به الحبيب على أطلال دياره ، فكان سؤال الديار بيت التصيد في ديوان الغزل ...
وكان سيد شعر العاطفة ...

وانتشر الليل . ومثت القافلة صامته ، قد مكثت فيها الحادي وخشع الرفاق ؛ حتى
لحقها انظلام في طياته ...



في صحن الأموي

في أمية رحية (من صيف سنة ٨٤٩ هـ) خرج الناس - على عادتهم - إلى صحن المسجد الأموي ، فبسطوا فيه البسط . وأسرجوا السرج حتى (كاد المسجد يقطر ذهباً ، ويشتعل لهباً) وأقبلوا عليه زرافات ووحداناً . يقضون بالصلاة حق الله عليهم وبالاجتماع والتعاون حق بعضهم على بعض . ويعودون بثواب الله . وإطمئنان النفس وراحة البال .

وليس أشهى إلى النفس . ولا أحلى في العين ، من صحن الأموي في ليالي الصيف ، وإن المرء ليطوف ما يطوف وينشق عير الأزهار ، ويسمع تغريد الأطيوار . وبصعد الجبال تنفجر منها العيون . ويدخل الحنان تجري من تحتها الأنهار ، ثم يعود إلى الأموي فيراه أجمل من ذلك كله . ويجد في نفسه حين يجلس فيه هزة طرب . ونفحة أنس ، لا يجدهما في شيء من ذلك .

وكانت عشية تنسم نسماً ناعماً . فامتلاً المسجد بالناس وهم بين متوضيء يخلع رداءه فيلقي به على بلاط المسجد الأبيض الناعم . ويسرع إلى قبة الماء وهي (في وسط الصحن) وهي صغيرة مثمثة ، من رخام عجيب . محكم الإلصاق ، قائمة على أربع صوار من الرخام الناصع ، وتحتها شبك حديد في وسطه أنبوب نحاسي يمج الماء

إلى علو . فيرتفع ثم ينثني كأنه قضيب لجين^(١) وقد زينت جوانبها بالمصابيح .
ومصل بيتي جماعة فلا يلبث حتى يجدها^(٢) فيقوم في الصف خاشعاً . يشغله
جلال الله الذي يقف بين يديه . عن الدنيا التي خاضها وراء ظهره .

وجالس إلى حلقة من هذه الحلقات الكثيرة . يستمع إلى محدث أو فقيه أو واعظ ،
أو ينصت لغاريء . أو يذكر الله مع الذاكرين . أو مستند إلى أسطوانة من الأساطين ،
أو محتب تحت رواق من الأروقة . يقرأ في مصحف . أو ينظر في كتاب . أو يسبح
على أصابعه أو يتفكر في شأن من الشؤون . أو ينتظر الصلاة فينعم بجمال المسجد ،
ورقة تنسيم . ويكون من إنتظاره كأنه في صلاة .

وكان حيال قبة زين العابدين (قبة الساعات) في شرقي المسجد . وجل رث الثياب ،
ما عليه إلا مرق مردهة . وخلقان بالية . يرنو بعينه إلى الناس تارة . وينظر إلى المسجد
أخرى . فيقرأ فيه تاريخاً جليلاً ، يقرؤه في هذه القبة الباذخة . قبة النسر . وهي
(من أعجب مباني الدنيا . ومن أي جهة استقبلت المدينة بدت لك قبة النسر . ذاهبة

(١) هذا يوسف لابن بطون . وقد زارها في آخر الربيع الأول من القرن ثامن ، وفوق البركة اليوم
سدة جرسية قد يجلس فيها المؤذنون ، قائمة على أربعة أركان وأربع سوار من الرخام . وقد اجري إلى
هذه البركة ماء الفيحة في العذوبة والمدة . ينبع من قرية (الفيحة) وهي من دمشق على كيلة . وعلى
الينبوع آثار بناء فخم من أبنية الرومان ، وأول من جرد هذا الماء إلى دمشق فاضمه بانسا - رحمه الله - أحد
ولاة العثمانيين فاجراها في الطرقات في الناييب ثم جرد قسم أكبر من الماء في قناة نظرت في الصخر وأدخلت
البيوت والمساحد وكان تمام هذا المشروع منذ أعوام .

(٢) ومن نعم الله على الاموي انه إلى اليوم هذا لا يخلو الناس من صلاة قائمة من اذان الظهر إلى ان
ينطق المسجد بوابه فلا تنقضي جماعة حتى تشرح اخرى .

ملاحظة : كتبت هذه الخاتمة يوم نشرت القصة في الرسالة من عشرين سنة - أما الحال الآن -
في (الله واناليه راجعون) .

في الهواء . منيفة على جميع مباني البلد (١) وليس في دمشق شيء أعلى ولا أبهى منظرًا منها (٢) وهذه المنارة العالية التي يسميها الناس (منارة عيسى) أحدثت جاء فيه أن عيسى عليه السلام ينزل على المنارة البيضاء شرقي دمشق (٣) ويعجب من سموتها وارتفاعها . وهذه المنارة الغربية التي بناها المسلمون فأجادوا ببنائها ووضعوا فيها العجايب . من براعة الزخرف . ودقة النحت والضبط والإحكام . والمنارة الشمالية (منارة العروس) وقد ازينت وأرفقت فيها المصابيح . وقام في شرفتها المظلة على الصحن (٤) المؤقت ليعلم دخول العشاء .

ودخل المسجد قروي له مسألة . فأل عن مجلس المنين حتى دلّ عليه عند قبة عائشة (٥) فجاء فعرض عليهم مسألته . فلم يجد عند واحد منها جوابها . فذهب يداور

(١) ابن بطوطه .

(٢) باقوت ، قلت : ولا تزال إلى اليوم كما وصفها عيسى ما استحدثت في دمشق من بيوت مائية ، فيها ما هو يست طبقات وما هو يسميع . . . وهي عجائب القبة كالغزل بجواب الرجل . ولدت هذه القبة يجلس المحدث الأكبر في البيت . وآخر من جلس تحتها السيد الحسين رحمه الله رحمة واسعة .

(٣) وه تكن المنارات معروفة أصلاً على عهد الرسول صلوات الله عليه .

(٤) وهذه الشرفة مخصصة ليوم البسيط الذي تعرف به الاوقات وكان الذي صنع البسيط الشيخ علاء الدين علي بن ابراهيم الملكي الشهير بابن الشاهر الماتوفي سنة ٧٧٧ هـ فطرح عليه خلال سنة ١٢٩٣ هـ صنع الشيخ محمد الطنطاوي المصري الازهري فزبل دمشق « وهو جد اي » بسيط غيره وحسبه على الافق الحقيقي براد فيه قوس الباتي للمحجر والنزل القديم وجعل هذا مكانه في يوم مشهود وهو فيها إلى الآن . قال مؤلف « الخرائق » : وهو « اي البسيط » موضوع شريف لا يغير له تقرد به الطنطاوي يوم بن الشاهر . ثم مدح الشيخ الطنطاوي بتسبيدة مصلحتها :

صنع البسيط بعبارة التأسيس شيخ التسم رئيس كل رئيس

يجوب بها احد منها دمشق على قسبة حمقاء كان قسبا نال بها من الشيخ . فجلده عبيها الامير عبد القادر الخرائطي حذ القذف .

(٥) وهي شرفة في ارض المسجد ليس لها باب صغير من الحديد تقوم على ثمانية اعمدة كبيرة من الحجر وفوقها قبة ، ولا طريق اليها الا على سلم ينصب حبال تيب . وكذا نضوب ونحن اطفال ان فيها كترًا حتى فتحها الالمان . كي ذكر . في الحرب العظمى . وسرقت منها كنوزًا من الكتب والمصاحف القديمة . ولا احسبها الآن تحوي الآن شيء له خطر .

على الفقهاء والمحدثين . يسأفهم فلم يفرز منهم بطائل . فليس منهم . وهم بالخروج من المسجد . والتفكير ينظر إليه . ويعجب من حاله وحاذم . وعز عليه أن ينصرف أيضاً فأشار إليه . فلما جاءه قال : أعرض عليّ مسألتك ...

فضحك القروي وصاح : أنظروا يا قوم إلى هذا المعجون : يزعم أنه يجيبني عن مسألي . وقد أعجزت المفتين والفقهاء وأصحاب الحديث !

فأقبل الناس على الصوت . ووقفوا يتكلمون فقال قائل : دعه فإنه مجنون . وقائل : لا عليك أن تسأه فاعل عنده علماً ... وقائل : سله واحمل جوابه إلى المفتين فأنظر ما هم قائلون ؟

ثم سكتوا . وسكت كل من في المسجد . وانقضت أصوات القراء والمدرسين والذين كثرين . ولم يبق فيهم متكلم . لأنها قد تكلمت فوق رؤوسهم النبوة . وسمعوا (الله أكبر) تدوي في نواحي المسجد . تهبط عليهم من المآذن . كأنها هي هابطة من السماء . فيها روعة نوحى . وجلال الدين . وجمال الإيمان . فتقرضت المجالس . ورضت الصفوف . ونحاذت المناكب . وقال الإمام : الله أكبر . فماتت الدنيا في نفوسهم وأمحت منها الشهوات . وطمست فيها السيول . لأنه مهما يكن من كبير ف... الله أكبر فلما قضيت الصلاة . عادوا إلى القروي فقالوا له : إذهب فسل صاحبك . فذهب إليه فقال : يا هذا . زعمت أنك قادر على الجواب . فهل أنت على قولك ؟

قال : أستعين بالله . إنها قد أعجزت المفتين وحيرتهم أفأنت تستطيع أن تجيب عليها ؟ قال : أستعين بالله . قال : هي كذا وكذا ...

قال : إخراج كيت كيت ...

وابتدر الفقير الباب .

وحف الناس بالقروي . فقالوا : هل أجابك ؟ بم أجابك ؟ قل لنا بماذا أجابك ؟

فقال : ما أنا بقائل لكم حرفاً حتى ألقى المفتين . وأسرع وأسرع معه الناس إلى

المفتين وقد عادوا إلى مجالسهم . فقال : رأيتم ذلك الفقير ؟ قالوا نعم . قال : قد

أجابني عن مسألي . فضحكوا من جفائه وجهالته ، وقالوا : بم أجابك ؟
قال : بكذا وكذا .

فلما سمعوه أخذ منهم الجلد مأخذه ، ونظر بعضهم إلى بعض ، وكلهم مشدوه
حائر لا يدري مم يعجب : أمن كثرة علم الرجل مع رثائه هيئته ، أم من رثائه هيئته
مع كثرة علمه ، ثم انتبهوا فقالوا : ويحكم ، أدركوا الرجل فإن له لشأناً ،
وما نظنه إلا آية من آيات الله جاءت ترينا حقيقة العلم وسدو القفر ، وجلال التواضع
أدركوا الرجل !

فقالوا : قد خرج

قالوا : أو ليس فيكم من يعرفه ؟

قال رجل من القوم : والله ما رأيناه إلا في السيمساطية^(١) وقد نزلنا منذ أيام فكان
ينظف كنفها ومراحيضها ، ويتمخذ مجلسه على الباب حتى أذنوا له بالدخول وما رأيناه
إلا عاكفاً على صلاة ، أو مشتغلاً بتسبيح ، ولم يكلم أحداً ...

قال المفتون : ويحكم قوموا بنا إليه ...

فلما دخلوا عليه قالوا له : من أنت ؟

قال : رجل من الناس

قالوا : قد سمعنا جوابك ، وإنا نسألك بالله الذي لا إله إلا هو إلا ما أخبرتنا من

أنت

قال : إنا لله وإنا إليه راجعون ... أما وقد اقسمتم فأنا أبو حامد الغزالي .

(١) الخانقاه السيمساطية وراة جدار الأموي الشمالي حيال الحديقة التي فيها اليوم قبر صلاح الدين
الأيوبي وهي قديمة . كانت منزلت عمر بن عبد العزيز فجع لها السيمساطي مدرسة ، والمشهور اليوم بأند
اسمها (السيمساطية) بنشين والناس وهو غلط .

تصاحوا : حجة الإسلام! وانكبوا على يديه يقبلونهما . ويسأونوه أن يعتمد لهم
مجالساً في الغد ... ثم انصرفوا .

• • •

فلما كان الغد ، نظروا فإذا ... الشيخ قد فارق دمشق (١)



(١) انظر طبقات السبكي (٤) صفحة (١٠٤) .

هيلاية ولويس

كل شيء ساكن سيكون الموت . مظم ظنمة القبر !
ولقد أسدل الليل فروعه الأسود . فغطى على المعركة اللافحة الأوار ، وأخفى هذه
الساحة المنروشة بالبحث . وهذه الأصلاذ المصبغة بالدم . وأرخى الستار على مشهد من
أروع مشاهد المأساة التي يمثلها الانسان أبداً على مسرح الوجود فيلبس فيها جلد الذئب
وأختر السبع وأبواب الثعبان ... فسقط جنود المعسكرين صرعى الجهد والكلال ،
وهجعوا كالثقل لا يحسون ولا يحلمون . وأمست خيامهم ومنازلهم جامدة لا حياة
فيها . كهذه الصخور الصم التي تحيط بها من كل جانب .

وثناك هي الحرب : آفة الحياة . وعار الانسانية !

تلك هي الحرب : تنمجر الاذهان بالعلوم والمعارف ، وتنفرج الأيدي عن الصنائع
والمصانع (١) . والنطائف والزخارف . وينشق الوالدون النفس والنفيس لتنشئة الأولاد
وتتهيئهم . فاذا استكمل البنون الفتوة والقوة ، وأزهرت الفنون وتقدمت ، وارتفعت

(١) مصانع المياني والآثار .

بين الرجال ونميره بيني القري

شنان بين مصانع ورجال

وقال لبيد : وتبقى انديار بعدنا والمصانع .

المصانع وسمت ، وأخذت الحياة زخرفها وأزينت ، جاءت الحرب فأودت بذلك كله ، فجعلته حصيداً كأن لم يكن بالأمس . . .

فيا ويل الحرب... وويل لها ما لم تكن دفاعاً عن شرف أو حياة أو دين !

« « «

كل شيء ساكن سكون الموت ، مظلم ظلمة القبر ، الا خيمة في معسكر النصراري نائية ، ينبعث من شقوقها وفروجها ضوء خافت . ويسمع من جوفها همس ضعيف ، لو أصغيت اليه لسمعت صوت امرأة تتكلم بلسان القوم تقول لصاحبة خا :

— ماذا يشجيك الليلة يا هيلانة ، وما الذي جدد أحزانك ، وهاج آلامك ؟ أفرغت من هذه الممارك العابسة التي جننا نخوضها ونصلي نارها دفاعاً عن (قبر ...) المسيح ؟ أم هو الحزن على لويس قد خامر نفسك ؟ لا تحزني يا هيلانة فقد كان مقدراً عليه هذا المصير ؛ ولقد عرفه ومشى اليه مطمئناً راضياً ، فاصبري يا أختاه ، فان لويس في السماء . ألا يسرك أنه مات في سبيل النصرانية ؟ فلا تدعي اليأس يخالط نفسك القوية في هذه الساعة التي تحتاجين فيها إلى الصبر والجلد !

وسكنت المرأة . وعاد السكون يغمر الدنيا ... ومضت فترة طويلة لم يسمع خلافا نبأة ، ولكن النور الضعيف لبث منبعثاً من شقوق الخيمة ... ثم ظهر القمر يطل على الدنيا بوجه شاحب كأنه وجه عليل مدنف ، أو ميت محتضر ، وأبدت أشعته الكليلة ما كان الليل قد ستره ، فبان من خلافا ذلك المشهد الموحش المرعب وقد زاده شحوبها وحشة وهولاً ... فخرجت المرأة من الخيمة وجلست على مقربة منها تتأمل وتفكر ، وكانت في الثلاثين ولكنها لا تزال كالعهد بها ، فانتة الطلعة ، لدنة العود ، بارعة الجمال .

كانت تنظر إلى تلك الخيام وقد انتشرت على السفوح والصخور ، وتمتد البصر إلى جيش أعدائها المسلمين وقد احتل القلعات العالية ليحمي أسوار المدينة ويدراً عنها ،

وتفكر في هذه الحياة المروعة التي تحياها . فتمتلئ نفسها حسرة على حياتها الوادعة في ماضيات لياليها . يوم كانت في قريتها المتوارية في حجر صخرة من صخور (الألب) لا تعرف إلا هذا نعلم بصغير الذي يحده شرقاً منعطف الوادي . ويحده من الغرب المضيق الصخري الضيق . ومن الشمال والجنوب غابة الصنوبر الخائنة وهي تحتضن القرية وتنبسط على السطح الجميل . وذلك اسور الصخري يضيف بذلك كله . ويعانقه ويدفع عنه الأذى . لقد كانت ترى من يوغل في الوادي ويحتجب عن القرية في ملتذاته ومنعطفاته بظلام من الابطال . أما هذه الجلاميد . وهذه الذرى المشرفة على القرية . قام تفكر يوماً من الايام في البحث عما وراءها . ولم ترق بفكرها إلى أعاليها لتفكر ماذا فيها ... فكيف فوجئت بها الأقدار فأثمت بها في هذا العالم الثاني الغريب الذي لم تكن تدري به أو تعلم له وجوداً ! وكيف كتبت عليها أن تفقد زوجها الحبيب . وأن تعيش وسط الذعر والموت ؟

واشدد بها الضيق . وزاد بها الحزين إلى ماضيها اذائيء . وصور لها الوهم القرية فرأتها أمامها . وشاهدت الغابة التي يقطعها فتيان القرية وفتياتها كل صباح ومساء . ليلغوا العين فيزدحموا عليها ليرتووا من مائها العذب النмир . ويذهبوا ظمأ أجسامهم إلى الشراب . ويرتووا من « العيون » الأخرى فيطنشوا ظمأ نفوسهم إلى الحب ... فذكرت كيف عرفت فتاها الحبيب . وقد رأته أول مرة على باب داره تلقاء الغابة ، فأحست كأن عينه قد اخترقنا شغاف قابها ... ورأته بعد ذلك في الغابة ولكنها لم تجرؤ على أن تكاشفه بحبها ... وهل تجرؤ على مثل ذلك فتاة ! حتى كان ذلك اليوم السعيد الذي يمر في موكب حياتها بهيا مشرقاً على حين تمر أيامها الأخرى شاحبات غائبات ...

فجلست معه تحت تلك الشجرة المنزلة أحلى مجلس في حياتها المجلس الذي أعان فيه مولد الحب بقبلة مسكرة لا تزال تحس طعمها في فيها . وأثرها على شفتيها .

لقد كانت سعيدة في هذه القرية . تعيش في جنة الغرام ، لا تعرف إلا قلبها وربها فهي تصبح فتمشي إلى كنيسة ربها لأنها لم تعرف لله بيتاً خيراً منها ، فتتوجه إلى الله

بالصلاة التي حفظتها ... وتمشي فتطوف في الغابة يدها في يد الزوج الخبيب . حتى تبلغ كنيسة حبها تحت الشجرة المقدسة . فتؤدي فيها صلاة الحب على دين الغرام . قبلتها فيها (كما قال ابن ابي ربيعة) حمر وعسل !

كانت القرية كأنها في أمن ودعة . حتى نزل بها ذلك الرجل . فنزل بها البلاء وهبطت المصائب . وتعكرت حياتها الصافية كأنما هي بركة ساكنة سقطت عليها صخرة من الجبل كانت القرية في ذلك الصباح مستأنية في فراش أمنها ترشف بقية أحلام الليل . لتنهض مع الشمس فتعمل على تحقيقها . وكانت الغابة تصلي وقد شمرت أشجار الصنوبر لعبادة عن سوقها . ووقفت بين يدي بارئها صنوفاً . وقامت الطير تنو صوتاتها على منابر الأغصان . ووقف الورد والزنبق في الخدائق خاشعاً مصغياً . وسبحت السواقي فكان لتسبيحها وسوسة دائمة جميلة . وأصاخ الجبلان وصت الرادي ... فلم يفسد هذه الصلاة الخاشعة في معبد الطبيعة إلا صرخة تنوي بين الجبان . يحمليها صوت مبحوح . كأنه صوت جريح ينضح صراخه بدمه . فيسمع الصوت أحمر قانياً يقطر دماً . وتوالت الصيحات الحمر . وازدادت شدة وهولا . فحمت الذعر إلى بيوت القرية وأرباضها وأوكارها . وأبدلتها بصباحها الباسم صباحاً كالح الوجوه مربدأً قبيحاً . وذهب القوم يستقرون الصوت ويقصونه . فرأوا قساً من القسوس مكشوف الرأس . مشغوش الشعر . قد لبس المسوح . وطقق يلقي عليهم باللاتينية تارة وبالفرنسية تارة أخرى . ما يفهمون وما لا يفهمون . وكان يتكلم باكياً نادياً ناتفاً لحيته . منذراً بفناء النصرانية وضياع الدين . ويدعو إلى انقاذ (القبر المقدس) من أيدي (الكفرة المسلمين ...) فذهب الفياح بالعمول . وأطار الأفئدة . وألغت الحماسة المنطق . ونسي الناس كل شيء إلا هذه النار التي قد سرت في العروق . ومشت إلى الدماغ فأذيتته . فنهضوا يتبعون الراهب إلى حيث لا يعلمون . إلى انقاذ (قبر المسيح) من أيدي (الكفرة) الذين أهانوه وحتموه .

وصدقت هيلانة وزوجها ما قالوا لهما من أن المسلمين أكلة لحم البشر . وأنهم ذئاب

الانسانية ، وأنهم عدوا على المسيح .. ونهضا يدفعهما الايمان الذي عبث به العابثون واستغلوه وأوقعوه في أبناء آدم هذه المذبحة المروعة . فأخذ الطفل الوليد وسارا مع الجموع . نحو بيت المقدس .

وعاودتها ذكرى زوجها الحبيب . فانسجرت باكية . فأيقظ صوتها صاحبيتها فخرجت تراها .

— مالك يا هيلين ؟ لماذا تبكين ؟ لم تم تنامي ؟

فلم تجب واستمرت تبكي . فعادت ترفه عنها وتواسيها .

ماذا عراك يا هيلانة ؟ أجيبني . كلميني . لا تقلى نفسك بسكوتك .

— لويس !

وخرج اسمه زفرة متصعدة من أعماق القلب . غارقة بالدمع وعادت تبكي .

— اصبري يا أختاه . إنه في السماء ، ثم إن عندك لويس الصغير . ألا تسمعين كيف يبكي . ؟

انه ابنه يا هيلين . ابن الحبيب فعيشي من أجله . أريه ألوان السرور والمرح . تسعد بذلك روح لويس . هالك الطفل يا هيلانة . ألا ترين أن بكاءك يؤلمه ؟

فأخذت هيلانة الطفل . تضمه إلى صدرها . وهي مغمضة العينين . وتقبله في عنقه الدافئ . وتمرغ وجهها في صدره . ثم تضع خدها على خده . وهي تهمس باسم لويس . كأنما تذكر به موالد الحب وقبلاته الأولى ...

• • •

وهجعت هيلانة وصاحبيتها . وانظفاً هذا النور الكليل الذي كان ينبعث من الخيمة ومرت من الليل ساعات ...

وكان معسكر المسلمين صامتاً مظلماً لا يرى في خلاله الا النور الذي يسطع من نخيمة السلطان . وكان الجنود نائمين يستريحون من عناء النهار الماضي الذي خاضوا فيه حرباً من أشد ما عرفوا من الحروب ، وبذلوا جهد الجن حتى استطاعوا أن يشقوا

الطريق إلى (عكا) المحصورة . وكان المدد يتناهى على جيش العدو من البحر ، وكاد يجزع المسلمون عندما رأوا الأمداد . ولكن منظر السلطان ثبتهم ، فقد كان ينظر إلى المراكب تحمل الصليبيين إلى البر ، فلا يثنيه مرآها ولا يدخل الروح إلى قلبه بل كان يراها مستبشراً متفائلاً مؤمناً بنصر الله . ولقد خبر القاضي ابن شدد رفيق السلطان الجند وقص عليهم أن السلطان عد بنفسه من العصر إلى الليل سبعين مركباً نزلت إلى البر تنقل المدد والذخيرة فما ضعف ولا اضطرب ، ولا تغير اعتقاده بالله الذي يؤمن بأن النصر من عنده . وكان السلطان أشد القوم تبعاً لانه كان يباشر أمور الحرب بنفسه . وينتقل خلال المعركة ، ويعرض روحه للمهالك . ثم يبيت الليل ساهراً يدبر أمور المسلمين لا يبالي راحته ولا صحته في سبيل اعلاء كلمة الله .

في تلك الساعة كنت تلمح رجلين يتقدمان في الظلام يريدان معسكر المسلمين ، وهما يخطوان بحذر ، ويقفزان على الصخور بخفة ونشاط . وقد حمل أحدهما هنة صغيرة ملفوفة بخرقه بيضاء قد ضمها إلى صدره برفق . أحاط بها يسراه وأمسك يمينه السيف مسلولا خشية أن يفجأه كمين أو يعرض له عدو في هذه الظلمة الخالكة ، وكانا صامتين . فلما جاوزا (البيك) ودخلا معسكر المسلمين وأمنا . وضعنا السيوف على الأرض وجلسا يستريحان وقد أبقى الأول حملة على ذراعه وأحاطه بطرف ثوبه مبالغة منه في العناية به ، وقال لرفيقه :

— ماذا ترى السلطان قائلاً لنا ؟ اتراه راضياً عن عملنا وهو الذي أوصانا ألا نعرض للنساء والأطفال ، وألا نمس الأعزل بسوء ، وأن ندع الشمس ، ولم يسمع لنا إلا بسرقة المحاربين والجند ؟ أفلا يكره ما أتينا هذه الليلة ويكون غضبه علينا أضعاف رضاه عنا يوم سرقنا ذلك القائد من فراشه ؟

فأطرق الثاني كأنما كان يفكر في غضب السلطان ، ويبحث عن سبيل الخلاص من

هذه الوهدة التي ستطأ فيها ، ثم رفع رأسه فجأة وقد أشرق وجهه بنور الأمل وقال له :

- لماذا يغضب ؟ أليس الله قد أراح لنا أن نرد العدوان بمثله ؟ أما بدوونا هم بمثل هذا أول مرة ، وروعوا نساءنا ، وسرقوا أطفالنا ، فلما صبرنا عنهم وترفعنا عن مقابلتهم بمثل فعلهم . ظنوا ذلك عجزاً منا فأوغلوا في عدوانهم الآثم اللذيذ ؟ أفندعهم يفعلون ما يريدون ولا نمد إليهم يداً ؟

واضحاً الأول إلى هذه الحجة . فقاما يسيران في هذه البقاع التي كانت فيما مضى رياضاً زاهرة وتلالاً خضراء معشبة . فجعلتها الحرب قفراً خالياً . وقبراً واحداً مفتوحاً . وألمستها ثوباً دامياً من أشلاء أبنائها . حتى بلغا خيمة السلطان فوجدها مضيئة فعلموا أنه لم يلم . ووقفنا ينتظران الإذن ليعرضنا عليه ما جاء به . لأنه كان يطلع بنفسه على كل كبيرة وصغيرة ..

ومرت ساعة ومال ميزان النيل وهما واقفان . فسمعا حركة ورأيا رسولاً يحاول أن يدخل عن السلطان وهم يمنعون حتى أتياهم أنه يحمل رسالة خطيرة مستعجلة لا يجوز تأخيرها . فخبير السلطان فسمح له وقابله على خنوة لم يكن فيها إلا ابن شداد القاضي ثم خرج الرسول على عجل . وخرج من بعده ابن شداد معلناً أن السلطان سينام قتيلاً . وكان ذلك في السحر ... فأيس الرجال من لقائه وذهبوا ينتظران الصباح .

وما كان الصباح ذهب أول الرجلين يلقي القاضي ابن شداد يسأله عن أمر السلطان . وكان صديقاً له ، فحدثه أن الرسول حمل إلى السلطان نبأ مروعاً هو أن جيشاً من المسلمين الأتراك يزحف نحو الجنوب في عدد هائل . فلم يستطع أحد من أمراء المسلمين في الشمال أن يردده أو يقف في وجهه فأصبح المسلمون بين نارين .

تفكر السلطان في الأمر . ثم جمع الملوك والقواد ولم يكن يقطع أمراً دون مشورتهم ، فهبوا من فرشهم . وجنوا راحتهم في هذه الليلة العصيبة التي يلتمس الراحة في مثلها أشد الناس مراساً . وأكثرهم صبراً . فلما أجمعوا عرض عليهم الأمر : فبدلوا له

طاعتهم ، ولكنهم تهيؤوا الاقدام على هذين الجيشين ، واضطربوا لهذا الخطر الذي لم يتوقعه أحد منهم . ولم يكن هؤلاء الملوك والقواد من الجبناء الرعاد ، بل كانوا أبطال الحومة ، وسادة الجلال . ولم يفقدوا الايمان الذي قابلوا به جيوش أهل أوربة كلها حين جاءت يحدوها التعصب الذميم . ولا الشجاعة التي ردوا بها هذه الجحافل الجرارة ، وقسموها قسمين ، قسم مصرع على الثرى قد ذهب جزاء عدوانه الآثم ، وقسم طائر على وجهه لا يدري أين المحط ، فتصدع الحميس العرمرم تحت ضرباتهم المسددة وهتافهم المظفر ، كما يتصدع القطيع من الغنم اذا سمع صوت الأسد وأحس أنيابه ... ولم ينسوا طعم النصر الذي ذاقوه ، ولا النهاية الماجدة التي ختموا بها الوقائع الماضية التي خاضوا غمرتها ، ولكن لم يكن في تلك المعارك كلها ما يشبه هذا الخطب العابس الذي حمل نبأ الرسول ... ففاضت الحماسة في نفوسهم وان لم تنفذ . وسكنت قليلا لتستجم وتنهض من جديد : أما نفس السلطان فلا تني ولا تلين . وحماسة السلطان لا تبلغ منها خطوب الدنيا كلها . وانهم لمن العظماء ذوي النفوس الكبيرة . ولكن أنى لهم بمثل نفس السلطان ؟!

فلما رأى السلطان هيبتهم صرفهم . ولبت وحده مهموماً يفكر ...

— قال الرجل : فماذا فعل السلطان كان الله له ؟ كم يحمل وحده من الأهوال التي

تخر تحتها الجبال . وتعجز عن حملها الأمم ؟

— قال ابن شداد : جلس يدبر أمره . ويرسم خطط القتال وهو مهموم قد أخذ

منه التعب والنعاس ، وأنا انظر اليه ليس معنا ثالث الا الله . فسأنته أن ينام ساعة

فيستريح : فظن اني قد نعست فقال لي : لعلك جاءك النوم . ونهض ... فخرجت

مشي إلى خيمتي فلم أصل اليها وآخذ في بعض شأني حتى أذن الصبح . فعدت لأصلي

لذته يمر الماء على أطرافه فقال لي حين نظر إلي : ما أخذني النوم أصلاً . فقلت :

ت . قال : من أين ؟ قلت : لأنني ما نمت وما بقي وقت للنوم .

لنا بالصلاة وجلسنا على ما كنا عليه . وجعلت أفكر في أمره وما يحمل من

الهم وما ورد عليه من الشدة وذكرت أن قتيبة بن مسلم وقع في إحدى الشدائد وهو يحارب الأتراك ، وضاق به الأمر . وتكاثر عليه العدو ، وبذل كل ما يستطيع من القوة والمكيدة فلم يغن ذلك عنه شيئاً . فقال : أين محمد بن واسع ؟ قالوا : هو في أقصى الميمنة جانح على سية قوسه يومئذ بأصبغه نحو السماء . فتهلل وجه قتيبة واستبشر ووثق بالنصر ، وقال : والله لتلك الاصبع أحب إلي من مائة ألف سيف شهير ، وسان طرير ، فلما فتح الله عليهم قال له ما كنت تصنع ؟ قال كنت آخذ لك بمجامع الطرق^(١) .

وذكرت أن قواد المسلمين الذين دوخوا العالم ، وأخضعوا الممالك ، وملكوا الأرض ، لم يملكوها بقوتهم وعددهم وإنما ملكوها بإيمانهم والتجائهم إلى الله . ورأيت السلطان قد وقف حياته على الجهاد في سبيل الله ، وباع نفسه من الله . ولم يقصر في فريضة ، ولم يهمل نافلة بل كان يتزل حيثما أدر كنه الصلاة فيصلي . ويسمع الحديث بين الصفيين ، ولم يعرف عنه (بعد السلطنة) ميل إلى دنيا أو حرص على لذة من لذائد العيش — فأيقنت أن دعاءه لا يرد ، وأنه هو الولي إن عد الناس الأولياء . وهو النبي ، إن ذكروا الاتقياء . فقلت له : قد وقع لي واقع وأظنه مفيداً إن شاء الله . — قال : وما هو ؟ قلت : الاخلاص إلى الله ، والانابة إليه ، والاعتماد في كشف الغمة عليه .

— قال : وكيف نصنع ؟ قلت : اليوم الجمعة ، يغتسل المولى ويصلي ويتصدق بصدقة خفية على يد من يثق به ويدعو الله وهو ساجد فيقول : « إلهي قد انقطعت

(١) أي أنه يدعو له ، واندعاه من أكبر أسباب النصر ، والله أمرنا أن نعد لهم ما استطعنا لهم من قوة للإرهاب فقط ، لا للنصر بها ، وليس النصر للأقوى سلاحاً ولا للأكثر عدداً ، بل لمن يريد الله نصره (وما النصر إلا من عند الله) يعطيه من يشاء .

أسبابي الارضية في نصرة دينك . ولم يبق الا الاخلاص اليك . والاعتصام بحبلك .
والاعتماد على فضلك . أنت حسبي ونعم الوكيل . .

وان الله أكرم من أن يخيب من يلتجئ إليه !

وقطع القاضي حديثه ونظر إلى تلك المرأة التي أقبلت تريد السانطان . وهي سافرة
تصيح بسان قومها وتعول باكية تشير اشارات الفرع المروع . فأقبل عليها يسأفا
ما خطبها ..

وكانت هيلانة بذاتها . أفاق فأم تجد طفلها فخرجت من الخيمة جاحفة العينين
مجنونة تصيح باسم ولدها وهي تعدو على غير هدى . تسير في كل سبيل تسأل كل
من ترى عن ولدها . هل رأى ولدها ؟ أين ذهب ولدي ؟ ماذا أعمل ؟ سأخذوني .
فتشوا لي عن ولدي . أين ذهب ؟ هل مات ؟ من أخذه ؟! أأكلته الذئاب ؟ وهل تدخل
الذئاب إلى المعسكر ؟ أم قد سرقه اللصوص ؟ آه أين أنت يا ولدي ؟ ألا تردونه عني ؟
أرحموني يا ناس . فتشوا لي عن ولدي ...

وانظمت تعدو في أرجاء المعسكر . حتى بلغت خيمة القواد فافتحمتها . وهبطت
على أقدامهم تولول وتصيح ... فأخذتهم الشفقة بها وكنهم كانوا عاجزين عن
معاونتها . فصمتوا . وبالغت في البكاء والتوسل . فرأى قائد منهم أن يبعث بها إلى
صلاح الدين .

— إن الرجل شهيم شريف ، وفارس نبيل . وما نحسبه يسد أذنيه دون شكوى
امرأة منجوعة تقط على قدميه باكية ذليلة ترجوه أن يرد عليها ولدها الوحيد ... وهو
الذي قبض بالأمس على قائد الحملة الفرنسية . فلما صار بين يديه وانظر
القتل لم ير منه الا الاكرام والاحسان ، خلع عليه وقدمه ورفع مجلسه . وسيره إلى
دمشق معزراً مكرماً . فلم يستطع القائد أن يرفع بصره إليه لعجزه عن شكره . ولحجا

من نفسه حين قابل بين صنع السلطان به . وصنيعه هو بمن أسره من قواد السلطان
ووافق القواد على ما وصف به صلاح الدين من النبل والشرف والانسانية . فسيروا
المرأة اليه . فانطلقت تعدو حتى تقطعت أنفاسها وهي تتحامل على نفسها وتعود إلى
السمي تريد أن تقطع الطريق كله بوثة واحدة ترى من بعدها ابنها . أو يكون فيها
حنتها ، وتخشى أن تتأخر لحظة فيصيب ابنها شر ... يا رحمة الله على الأمهات !
وكانت نفسها كالبحر الغضبان لا تستقر فيه موجة حتى يموج موجة أخرى ...
وكانت الصور تتردد على نفسها متعاقبة يأخذ بعضها بأعقاب بعض . فبينما هي
تتصور فرحها بلقاء الطفل فتقدم مسرعة . اذا بها تفكر في هلاكه فتقف لحظة كأنما
لطم وجهها القدر بكفه ، ولكنها تطرد هذه الصورة من نفسها ولا تطمن إليها ،
ويعاودها الأمل قوياً منيراً . ويخالط الأمل خوف وإشفاق . ثم تمر عليها صور من
حياتها الأولى تجوز آفاق نفسها بسرعة البرق فتزهزها هزاً عنيفاً ثم تمضي إلى غايتها
وترجع صورة الولد فتحتل خيالها كله ...

حتى بلغت (اليزك) فصاحوا بها : قني . فوقفت تنظر ماذا يريدون ... ولم تكن
تلري ما (اليزك) وما الحروب . وما جاء بها الا إيمانها الذي استغله دعاة الشر
وسخروها من أجله لمنافعهم ، فحرموها زوجها وطفلها وجرعوها (كما جرعو الآلاف
من البشر) غصص الآلام !

وجعلت تصرخ فيهم صراخ اللبوة التي فقدت أشبالها . وتخاطبهم بالفرنسية :
— ابني ، ابني أيها الجند ؟ ردوه علي . أريد ابني ، فلماذا تمسكونه ؟ لماذا
تعذبون امرأة مسكينة ؟ أين هو ؟ هل قتلتموه ؟ لا . لا أرى على وجوهكم سمات
الوحشية إني الملح الشفقة على هذه الوجوه ، فلماذا لا تردون عليّ ابني ؟
فلا يفهمون منها شيئاً ، فتعود إلى صراخها حتى جاء رجل منهم يعرف لسانها
خالها :

— ومن هو ابنك أيتها المرأة ؟

— ابني لويس . لويس . أنا هيلانة . ردوه علي أريد أن أقابل السلطان .
فأخذته الرحمة وتركها تمر ودلها على الطريق إلى خيمة السلطان فذهبت تعدو .

• • •

قال لها القاضي :

— ولكن السلطان الآن في شغل . يجب أن تنتظري ساعة .

— لا . لا . اتوسل اليك . أخاف أن يصيب ابني سوء ، فدعني اذهب اليه .

فقال لها القاضي : اذهبي مع هذا الرجل . وأمره أن يدعها ساعة في خيمة الأسرى

حتى يستأذن لها على السلطان . وينبئه نبأها . وظنت انها في طريقها إلى السلطان ،
فسارت صامته مسرعة ، فلما دخلوا بها الخيمة ورأت الأسرى ، عادت تصيح
وتلول ، فنبه صياحها الأسرى . ثم استفاض ، حتى بلغ خيمة السلطان ، فبعث
يطلبها ... وكان في أقصى الخيمة أسير اضطرب لما رآها ووجف قلبه ، ولبث بصره
عالقاً بها حتى خرجت من حيث جاءت ، فلبث مفكراً مشدوها ، تطفوا على وجهه
خيالات أفكار هائلة ، وذكريات بعيدة . ثم تراخى رأسه فأسنده بكفيه ، وظل ساكناً
تنطوي جوانحه على البركان ... الذي انفجر بعد دقائق ، فنهض الأسير يصرخ صراخ
الوحش الكليم : أريد أن أراها ، أريد أن أراها .

وراع صياحه الأسرى وهم يعهدونه وديعاً كالحمل ، فأقبلوا يسألونه فلا يأبه لهم ،

ولا يكلمهم ، وأسرع اليه الحراس يكلمونه فلا يجيب الا بهذا الصراخ ، فرفعوا
أمره إلى السلطان وأدخلوه عليه ... فلما أحتواه مجلس السلطان طأطأ رأسه ووقف
خاضعاً ، وكانت عظمة السلطان تملأ نفسه اكباراً له ، وكان يحس فيها الشكر
الخالص لما رأى من إكرام السلطان في هذه المدة الطويلة التي قضاها أسيراً عنده ، ثم
رفع رأسه وجعل يقلب نظره في أرجاء المجلس فوقع على هيلانة وهي راضية مطمئنة
وابنها في حجرها قد رد إليها ، وهي تنظر إلى السلطان نظرة شكر وحب ، ثم رآها
تنهض فجأة فتجثو بين يديه فتقبل قدميه وتتقاطر دموعها ، فيتململ السلطان وينهضها .

فلم يعد يتمالك نفسه . فأمرع نحوها على غير شعور منه . فلما رآه الطفل هتف به :
بابا ... ووقع بين ذراعيه ... ونظرت المرأة مبهوتة لا تكاد تصدق ما ترى . وجعلت
تنظر حولها لتثبت مما ترى . ولتعلم هل هي في بقعة أو في حنم ثم صاحت : لويس!
أنت حي ؟

وفهم السلطان القصة فحول وجهه حياء وتركهما يتعانقان .

...

ولما تلفت السلطان وجددهما جاثيين بين يديه يحاولان شكره . فلا تجاوز الكلمات
شفاعتهما ألا وهي جمجمات غامضة . فقال لهما : — إنا لم نفعل إلا ما يأمرنا به ديننا!
قالت المرأة : — أدينك بأمرك بهذا ؟

— قال : نعم . فان الاسلام برحمة للعالمين . للانسانية كلها .

— قالت : أفترض هذه الرحمة عن امرأة مكينة ... تحب أن تسعد وتحيا بسلام .
في ظلال الاسلام ؟

فتهازل وجه السلطان . وقال لها : إن رحمة الله وسعت كل شيء .

— قالت : كيف أغدو مسلمة ؟

— قال : تشهدين أن الله واحد . وأن محمداً رسول . لا إله الا الله . محمد رسول

الله . فنطقت بها . وتلفتت إلى زوجها فوجدته ينطق بالشهادة .

...

وخرج ويده في يدها يذكران الماضي الحلو . والقربة الهادئة .

— لقد تركنا البنفسج يا هيلانة مخضراً يانعاً . فهل أزهر من بعدنا البنفسج .

فتفزع أربجه في جوانب الحديقة ؟؟ وشجرة التفاح . هل تدلت ثمارها ؟ وارتخت

أغصانها ؟ والعين هل بقيت على صنائها ؟ ... أواد يا هيلانة ! هل لنا من رجعة إلى

ذلك الرادي السعيد . وتلك الغابة التي ولد حبنا في جنباتها ونما واكتمل ؟

- لا . يا لويس . إنا لن نعود . ان يكن حبنا قد وُثِد في تلك الغاية . فإنه قد بعث
هنا بعدما مات . هنا عدت الي . وهنا عرفت الله . وهنا رأيت جبل والظهور والانسانية .
فلنبق هنا يا لويس ... أليست هذه هي الارض التي وُلِد فيها المسيح ! اننا لم نخسر
المسيح . ولكننا ربحتنا معه محمداً !

• • •

وتقدم الجيش الاسلامي بعد ساعة . يمشي إلى القنقر . كبيراً مهللاً . وكان لويس
المسلم في طليعة ذلك الجيش !



سَاجِسِرِي

قال سراقه : ما أحوجني إلى عشرين ! فكيف السبيل إلى مائة ؟

— قال : ترد على قريش صاحبها . فقد خرج من مكة حين مكرت به قريش وأجمعت على قتله . خرج مهاجراً إلى المدينة . فبثت قريش عيونها في سبل مكة وشعابها ، وبعثت رسلها فتنصوا الصحراء نفضاً فما وقعوا له على أثر ، فعادوا إلى قريش بالايأس منه . فأذنت قريش في العرب . أن من رد علينا محمداً فله مائة من الإبل ، وقد رأيت ركة ثلاثة مروا عليّ آنفاً . وإني لأراهم طلبة قريش... فهل لك أن نأحق بهم فردهم إلى مكة ونأخذ مائة الناقة فنقتسمها بيننا ؟

فرقص قلب سراقه فرحاً . ولعب به الطمع : وكان سراقه بن مالك الجشعبي رجلاً متغزناً متشبطاً . فعقد النية على أن يستأثر وحده بالغنيمة حتى تكون خالصة له ، فقال لصاحبه :

— ما هؤلاء ؟ من تريد ؟ هؤلاء بنو (فلان) ينشدون ضالة لهم .

فصدق الرجل وانصرف . وذهب سراقه فجلس في ندي قومه كما كان يجلس كل عشية فما اطمأن به مجلس ، وما وعى من أحاديث القوم شيئاً . كان يتصور قطع الإبل الذي سيأخذه من قريش يمر به ويدور من حوله ، فيخفق لمراه قلبه ، وتتقلب أشداقه... ثم طمى به الطمع ، فبرح النادي إلى بيته ، يلوص بعينه آفاق المستقبل ، ويقلب أوجه الممكن ويفكر في مائة الناقة ، أيملكها حتى تكون طوع أمره

يصرفها كما يشاء فتلد وتتكاثر ، فينحر منها ويطعم الجائع . ويقري الضيف . ويرفد الوافد ، فيسير ذكره في العرب . وتتجعه الشعراء . وتمشي بمذائحه الركبان ؟ أم هو لا ينالها ، ولا يفيد من سفره إلا لذع الشمس . وبرح العطش . وطول التعب ؟ وامند به التفكير حتى ما عاد يخرج منه . ولا يكاد يستقر على الرأي لحظة حتى يتقل إلى غيره : لم لا أذهب ؟ إني سأجدهم فأردهم إلى قريش .

ولكن ألم تعجز رسل قريش عن أن تهتدي إليهم ؟ فكيف أجدهم أنا ؟ بل سأجدهم ، إني سالك كل طريق تؤدي إلى المدينة .

ولكن يا للسخف ! ألم تسلك رسل قريش هذه الطرق كلها ؟

ولما أضناه التردد أزمع أن يستفتي الحظ . ويهتدي بالمصادفة . فأخرج أزلامه فاستقسم بها . وحاول أن يستشف الغيب من خلالها : إن خرج الزلم الذي أكره ، لم تكن النياق لي وإن خرج الذي أحب ، كانت لي ، إن الحكم للأزلام ...

وضرب بيده فخرج الزلم الذي يكره . فتألم واشتد ذلك عليه . لأنه إنما عمد إلى الأزلام ليستمد منها العزم على الذهاب لا الرغبة في التعمود . ثم قال :

إنها أول مرة ، وهي للشيطان ! وإني ضارب الثانية إن الثانية لآهتنا . وضرب الثانية فخرج الزلم الذي يكره فقال لنفسه : مالي ؟ وهل يقنع أمراً بمرتين ؟ إن المعول على الثالثة . فضرب الثالثة فخرج الزلم الذي يكره ... فتصيب من جبينه العرق البارد . فألقى الأزلام حنقاً ، وأمر غلامه أن يسرج فرسه ويقوده إلى بطن الوادي !

وتريث سراقه حتى إذا انصرم الليل . أسحر سالكاً طريق المدينة . فسار فيه إلى الصباح فلم يقع لاقوم على أثر ، فعاد أدراجه يتبع طريق الساحل فلا يأتي فيه أحداً . حتى زالت الشمس ، وحميت الظهيرة ، وتسعرت الأرض . وأحرق جوفه العطش ، وكان ينهزه الطمع فيعلو فرسه عدواً شديداً . حتى يرى الآكام هي التي تسير عن يمينه وشماله ، يأخذ بعضها بسفوح بعض . ثم يدركه القنوط فيدع الفرس يمشي متباطئاً متخاذلاً ... حتى إذا بلغ منه التعب والعطش والجوع واليأس نظر فإذا عند الغار

محمد وصاحبه ... فصبت القوة في عضلاته . وعادت اليه الحمية والنشاط . فصاح
في الفرس فأطلق نحو الغار كالسهم المرسل .

... .

« قال أبو بكر » (١) :

... قتلت : هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله وبكيت . فقال : ما يبكيك ؟
قلت : ما والله على نفسي أبكي . ولكن أبكي عليك . فدعا عليه رسول الله ﷺ
وقال : أكفناه بما شئت . فساخت فرسه في الأرض إلى بطنها ...
فلما رأى سراقه ما رأى : وثب عن الفرس . وقد طار الخوف بنبه وأبرأه التزع
من داء الطمع . وصاح :
يا محمد قد علمت أن هذا عمالك . فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه . ولأعمين على
من ورائي من الطلب . فدعا له رسول الله ﷺ . فأنقذه الله ... وكلمه فكان من
قوله له :

كيف بك يا سراقه إذا لبست سوارى كسرى ؟

... .

ورجع سراقه . وقد اجتمعت عليه المتناقضات من الأفكار والعواطف . وهاج
نفسه الطمع والخوف . والأمل واليأس . فجعل يقهقه في هذه البادية . ويصرخ كمن
به جنة . ولم لا يحن ؟ وقد كان يأمل أن ينال الغنى فمات ما كان يأمل . وقد فتحت
فأها لتبتلعه الأرض فنجا . ولم يصدر بعد هذا كله إلا بوعد دونه خرط القتاد . وخرق
النار . ونحوض البحار .

— ماذا ؟ أبعدي محمد سوارى كسرى . كسرى شاهنشاه ملك الملوك ... وهو
يقطع الصحراء هارباً من قومه . مختفياً في غار ليس معه إلا رجل واحد ؟ أبتلع هذا
الغار ملك كسرى وجبروته وجلاله ؟ أنتصر هذه الصحراء على ملك كسرى وجناته

وأنهاره ؟ أين يذهب هذان المهاجران كسرى على خزائنه وجنوده وبلاده ؟ ولو أن العرب اجتمعت كلها . ورمت عن قوس واحدة ، ما نالت من كسرى مثلاً . على أنها لن تجتمع العرب أبداً . ومن ذا الذي يجمع مضر وقحطان . وبكراً وتغلب . وعبأ وذبيان ؟ وأين يذهب ما بينها من دماء ؟

أما أن قريشاً كانت أدري بصاحبها حين قالت عنه ما قالت . فما أراه ينجو من قريش ويفلت من أذاها حتى يكون له ملك كسرى ... وإنه والله ما يريد إلا أن يتركنا « نحن أيضاً » مجازين !

وانطلق يقهقه ويصرخ :

ويح لك يا سراقه متلبس سوارى كسرى ... كسرى شاهنشاه ملك الملوكة .
والفرس ينفر على صراخه ، فيطير على وجهه حتى اختفى وراء الآكام ...

• • •

ومرت السنون تعقبها السنون .

وكان يوم صائف متوقد ، ففر سراقه من جره إلى حائط له ، فما استقر فيه حتى سمع منادياً ينادي :

— يا سراقه بن مالك الجمشمي . يا سراقه

فصاح أن : لييك

وانطلق يوم الصوت ، فإذا رسول عمر يدعو أن أجب أمير المؤمنين .

وإذا الشمس بين يدي عمر تأخذ الأبصار بيريقها ولمعائها ، وإذا بين يديه تاج كسرى ومنطقته ،

قال عمر :

— هلم يا سراقه ... أتذكر خبر الغار ، وسوارى كسرى ؟

— قال : نعم

— قال : قد أذهب الله بالاسلام ملك كسرى ، فلا كسرى بعد اليوم . هات يدك

فألبسه السوارين . وقال : ارفعهما فقتل :

— الله أكبر . الحمد لله الذي سبهما كسرى بن هرمز وأبسهما سراقه بن مالك ،
أعرابياً من بني مدلج .

يا سراقه لقد انتصر المهاجران على كسرى وقيصر وكان ذمما ملك الأرض :
يا سراقه . لقد أضاء النور الذي انبثق من بطن مكة الدنيا جديماً . يا سراقه ! لقد ظفر
الغار بالعراق والشام . وغلبت الصحراء العالم !

يا سراقه ! لقد كان ملك كسرى وقيصر كبيراً وقويماً . ولكن الله مع الذين آمنوا ،
والله أقوى يا سراقه والله أكبر ...



أبو جهل^(١)

المنظر الاول

(في بيت عاتكة بنت عبد المطلب)

عاتكة يا أخي : والله لقد رأيت تلبية رؤيا أفضعتني ونخوت أن يدخل علي قومك منها شر ومصيبة . فآكتم عني ما أحدثك . فأنهم إن سمعوا آذونا . وأسمعونا ما لا نحب .

العباس حدثني . فسأكتم الحديث .

عاتكة - رأيت راكباً قد أقبل علي بعيره له . حتى وقف بالأبطح . ثم صرخ بأعلى صوته « ألا فأنفروا بال آشدُّر إني مصارعكم في ثلاث » فأرى الناس اجتمعوا اليه . ثم دخل المسجد والناس يتبعونه . فبينما هم حوله مثل يد بعيره على ظهر الكعبة . ثم صرخ بمثلها . ثم مثل به على رأس أبي قبيس فصرخ بمثلها . ثم أخذ صخرة فأرسلها . فأقبل تهوي . حتى إذا كانت بأسفل الجبل . أرفضت فما بقيت دار من دور مكة إلا دخلها منها فلقمة .

العباس - إن هذه رؤيا حق فآكتمها ولا تذكر بها لأحد .

المنظر الثاني

(في الحرم وقد غابت الشمس وجلست قريش في مجالسها من حول الكعبة)

أبو جهل في رهط من قريش يتحدثون برؤيا عاتكة :

(١) نشرت في (الرسالة) قبل صدور كتاب (محمد) لتوفيق الحكيم .

أبو جهل - يا أبا الفضل ! إذا فرغت من طوافك فأقبل علينا ...
(يقبل العباس)

أبو جهل - يا بني عبد المطلب ! متى ظهرت فيكم هذه النبوة ؟
العباس (متجاهلاً) - وما ذلك ؟
أبو جهل - الرؤيا التي رأيت عاتكة .
العباس - وما رأيت ؟

أبو جهل - كأنك لا تدري ؟ ألم تحدث بذلك الوليد بن عتبة ؟ أما رضيتم يا بني عبد المطلب بكذب الرجال . حتى جئتمونا بكذب النساء ؟ زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال : انقروا في ثلاث . فستربص بكم هذه الثلاث . فإن يكن حقاً فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب . العباس (وقد غضب) - هل أنت منته يا مصفراً استه ؟ فإن الكذب فيك وفي أهل بيتك .

(يهم به فيحول القرشيون بينهما) .

القرشيون - ما كنت يا أبا الفضل جهولاً .

المنظر الثالث

(في بطن الوادي صباحاً)

العباس (لرجل معه) - لقد لقيت من عاتكة أذىً شديداً لما أفشيت من حديثها ، ولم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني تقول أقررتم ... أقررتم لهذا الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع . ثم لم يكن عندك غيرة لشيء مما سمعت .

فوالله لأعرضن له . وإن عاد قاتلته ، فلقد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه

الرجل - انظر يا أبا الفضل ! هذا أبو جهل خارجاً من باب المسجد يشتد :

العباس - ما له لعنه الله ، أكل هذا فرقاً مني ؟ اذهب فانظر ما شأنه .

(يذهب الرجل ويرجع على عجل)

الرجل (مضطرباً) - ألا تسمع ؟

العباس - ماذا ؟

الرجل - هذا ضمضم بن عمرو الغناري يصرخ ببطن الوادي وقد شق قميصه ،

وحول رحله ، وجدع بعيره !

- إسمع ...

(يتقدمان ويصفيان)

ضمضم - يا معشر قريش ! اللطيمة . اللطيمة . أموالكم مع أبي سفيان قد عرض

لها محمد في أصحابه . لا أرى أن تدركوها . الغوث ، الغوث . !

(حركة واضطراب ولغظ وصيحات حماسية)

رجل - هذه والله رؤيا عاتكة !

آخر - والله إن أخذ محمد العير لا تغلح قريش أبداً .

آخر - انفروا إلى مصارعكم في ثلاث . إن رؤيا عاتكة كأنها أخذ باليد .

أبو جهل - هه ! أیظن محمد أنها كعير ابن الحضرمي ؟ والله ليعلمن غير ذلك إنها

قريش !

سهيل بن عمرو - يا آل غالب ! أثاركون أنتم محمداً والصبابة من أهل يثرب

يأخذون أموالكم ؟ من أراد مالاً فهذا مالي .

(يتفرق الناس ، يستعدون للخروج)

المنظر الرابع

(في الحرم وقت الظهر)

(أمية بن خلف وسعد بن معاذ سيد الأوس وهو ضيفه وخليله)

أمية - تعال فطف بالبيت ، فإنه وقت الظهر ولا يراك أحد .

(يطوف بالبيت و يجلس أمية)

أبو جهل (قادمًا) - من هذا الذي يطوف بالبيت؟
سعد - أنا سعد بن معاذ !

أبو جهل - ماذا ؟ أتطوف بالبيت آمناً . وقد آويتهم محمداً وأصحابه ، وزعمتم
أنكم تنصرونهم وتعينونهم ؟! أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك
سالمًا .

سعد - أما والله لئن منعتني هذا لأمنعك ما هو أشد عليك منه : طريقك إلى الشام
أمية (لسعد) - لا ترفع صوتك على أبي الحكم فإنه سيد أهل الوادي .
سعد (الأمية) - إليك عني . فإني سمعت محمداً يقول إنه قاتلك !
أمية - إياي ؟ سعد - نعم !
أمية - بمكة ؟ سعد - لا أدري !
أمية - والله ما كذب محمد .

(يستقط أمية خائراً)

إذن والله لا أخرج من مكة . إذن والله لا أخرج من مكة ..

المنظر الخامس

(في الحرم - . فرائس في مجالسها . عذبة بن بن ميمون مودع
عن مجلس أمية مع جهمرة فهدى يقول . أبو جهل عن يرد)

أمية .. ويأتك من هذا ؟

عذبة - لك يا أبا علي . قم استجدر فإنيما أنت من النساء .

أمية - قبحك الله وقبح ما جئت به .

(يصل أبو جهل)

أبو جهل .. يا أبا صفوان . إنك متى يراك الناس قد تخلفت . وأنت من أشراف

قريش تخلفوا معك . فسر يوماً أو يومين .

أمية - أفعال !

(يعشي عقبة وأبو جهل إلى عتبة وشيبة ابني ربيعة وزمعة من الأسود وحكيم بن حزام)
 أبو جهل - أنتم سادة قريش . وأنتم قادة الناس . فما بالكم لا تجهزون ؟
 عتبة - لقد استقمنا بالأزلام فخرج الناهي .
 عقبة - كلا . ولكنه الفزع من اللقاء .
 عتبة - المثلّي يقال هذا ؟ والله لو لا أنك عند بيت الله ...
 أبو جهل - دعه يا أبا الوليد . فإنك اليوم شيخ قريش . فإذا لم تخرج أقام الناس .
 عتبة - سأخرج

المنظر السادس

(يفتسون من مكة . وهم من راجع فيهم خروج قريش
 و سرّهم خرجوا على تصعب الحانك ومعهم الخدات
 يصرون بالخدات ويغنون بهجاء مسجون وقد ارتاح
 بهم كرمي)

المنظر السابع

(من في يدية . عتبة خير رجول . و سبه
 حرمان الحفصان . يفتل منه رجلا من
 مسجون فاستقران)

البخارية - لا أدعك حتى تقضيبي الذي لي ..
 الأخرى - دعيني . فستأني العير غداً أو الذي بعدد . فأعدل لهم . فأقضيك
 الرجل - لقد صدقت . فستأني العير غداً أو بعد غد .
 (يسمع الرجلان فيجاسان أعلى بهير بينهما ليحقا بالمسلمين أبو سفيان يأتي بعد قابل يتقدم العير وحده)
 أبو سفيان - هل أحسست أحداً أيتها الرجل ؟

الرجل - ما رأيت أحداً انكره ، إلا أن راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم أستقيا
في شن لهما ، وانطلقا .

أبو سفيان - أرنى مبرك ناقتيهما .

الرجل - هو ذلك ...

(يأتي أبو سفيان المبرك فيأخذ من أبعارهما في يده ويحضي

مسرعاً فينجو بالعبير)

أبو سفيان - هذا هو النوى . هذه والله علائف يشرب .

المنظر الثامن

(في جيش المسلمين ، في زفران ، وقد جاءهم

الخبر بمسير قريش ليمنعوا عنهم)

قال رسول الله ﷺ : إن القوم قد خرجوا من مكة . على كل صعب وذلول .

فما تقولون ؟ أعبير أحب إليكم من التغير ؟

رجل - عليك بالعبير ودع العدو .

آخر - هلا ذكرت لنا القتال حتى نتأهب ! إنا خرجنا بالعبير .

(يتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم)

المقداد بن الأسود - يا رسول الله ! امض لما أمرك الله . فنحن معك . والله

لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون . والله الذي بعثك بالحق نبياً لو سرت بنا

إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه . فقاتل عن يمينك ، وعن شمالك ، وعن بين

يديك ، ومن خلفك ، حتى تبلغه .

(يشرق وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم)

المسلمون - كلنا ذلك الرجل يا رسول الله ، ولكننا ظننا أن في العبير قوة للإسلام .

قال رسول الله ﷺ : أشيروا علي ؟

عمر - يا رسول الله ! إنها قريش وعزها . والله ما ذلت منذ عزت . ولا آمنت منذ كفرت . والله لتقاتنك . فتأهب لناك أهبتة . واعدد لنا عدته .

قال رسول الله ﷺ : أسيروا عني أيها الناس !

سعد^(١) - لعنك تريدنا معاشر الأنصار يا رسول الله .

قال رسول الله : أجل

سعد - قد آمنت بك وصدقناك . وشهدنا أن ما جئت به هو الحق . وأخطينك على ذلك عهدنا وموآثيقنا عنى السمع والطاعة . ولعنك يا رسول الله تخذني أن تكون الأنصار ترى عليك ألا ينصروك إلا في ديارهم . وإني أقول عن الأنصار . وأجيب عنهم ، فصل حبال من شئت . وخذ من أموالنا ما شئت . وما أخذت منا كان أحب إلينا مما تركت لنا ، وما أمرت فيه من أمر فأمرنا تبسع لأمرك . فأمس يا رسول الله لما أردت ونحن معك ، والذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك . وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا . وإنا لصبر في الحرب . صدق عند اللقاء . ولعل الله يريك منا ما تتمرت به عينك . فسر بنا على بركة الله

قال ﷺ : «سيروا وأبشروا فإن الله وعدي إحدى الصائفتين فإني أنظر إلى مصارع التمام !»

المنظر التاسع

(ماء في البادية عليه شيخ من العرب يقدم عليه)

رسول الله وأبو بكر الصديق وبسألانه

عن قريش)

- ماذا تعرف عن قريش ؟

الرجل - لا أخبركما حتى تخبراني من أنتم !

(١) ابن عبادة كما قيل ، وابن معاذ على الأصح إذن يكون قد خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم

بعد أن كان بمكة لما علم بغروجه .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أخبرتنا أخبرناك .

الرجل - ذاك بذاك . قال الرسول : نعم

الرجل - بلغني أن محمداً وأصحابه خرجوا يوم (كذا) فإني كان صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان (كذا) .

أبو بكر (لنفسه) - لقد عرف مكاننا .

الرجل (متمماً) - وبلغني أن قريشاً خرجوا يوم (كذا) . فإني صدق الذي أخبرني فهم اليوم في مكان (كذا) . فمن أنتما ؟

قال النبي صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء !

الرجل (متعجباً) - من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟ أم من ماء الشام ؟

المنظر العاشر

(في بدر على الماء الأدنى من المدينة)

الحباب بن المنذر - يا رسول الله ! رأيت هذا المنزل . أهو منزل أنزلك الله تعالى ، ليس لنا أن نتقدمه أو نتأخر عنه ، أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة .

الحباب - يا رسول الله ! إن هذا ليس بمنزل . فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فتزله . ثم تغور ما عداه من القلب ، ثم نبي عليه حوضاً فتملوه ، فشرب ولا يشربون .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأي .

(يتقدم المسلمون)

المنظر الحادي عشر

(في بدر على الماء الأدنى من القوم)

سعد - يا نبي الله ! إلا نبني لك عريشاً من جريد تكون فيه ، ونعد عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله تعالى وأظهرنا على عدونا كان ذلك ما أحببنا ، وإن كانت

الأخرى جاست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا . فقد تخلف عنك أقوام
يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم . ضم رغبة في الجهاد ونية . ولو ظنوا أنك تلقى
حرباً ما تخلفوا عنك . إنما ظنوا أنها العير . يمنعك الله بهم ويناصحونك . يجاهدون
معك .

قال رسول الله ﷺ : أو يقضي الله خيراً من ذلك يا سعد .

المنظر الثاني عشر

(قريش في الخيضة في طريقهم الى بدر)

رسول - يا معشر قريش ! قد أرسلني إليكم أبو سفيان أنه قد نجا بالعبير . فارجعوا
فأحرزوا عيركم .

أبو جهل - سواة لك ! والله لا نرجع حتى نحضر بدرأ فنقيم عليه ثلاثة أيام . ننحر
الجزر ونطعم الطعام . ونسقى الخمر . وتعزف علينا القيان . فلا يزالون يهابوننا أبداً
الرسول - هذا بغي والبغي منقصة وشوم .

أبو جهل - صه قطع الله لسانك .

الأخنس - لقد صدق الرسول وأنا راجع بقومي .

(لقومه) - يا بني زهرة ! قد نجى الله أموالكم وخلص لكم صاحبكم . مخزومة
بن نوفل . وإنما نفرتم لتمنعوه وماله . فاجعلوا بي حميتها . وأرجعوا فإنه لا حاجة
بكم إلى أن تخرجوا في غير منفعة .

(ضجة وهياج ولغط... ينفرد الأخنس بأبي جهل)

الأخنس - أترى محمداً يكذب ؟

أبو جهل - ما كذب قط . كنا نسميه « الأمين » . لكن إذا كانت في بني عبد
المطلب السقاية والرفادة والمشورة ثم تكون فيهم النبوة ، فأى شيء يكون لنا ؟
الأخنس - أنت والله تحسده .

(يرجع الأخنس وبنو زهرة)

عمير بن وهب (قداماً) - يا معشر قريش ! لقد ذهبت في الوادي . أحرز أصحاب محمد . أنظر هل تقوم كمين أو مدد فأبعثت فلم أر شيئاً . وإنهم ثلاثمائة رجل . يريدون قتيلاً أو يقتضون قتيلاً . ولكني رأيت المطايا تحمل المنايا : فواضع يترقب تحمل الموت الناقع . ألا ترونهم خرساً لا يتكلمون . يتلمظون تلمظ الأفاعي . لا يريدون أن ينقلوا إلى أهلبيهم . يرق أعيون كأنهم الخصى . تحت الجحف . ليس فم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم والله ما نرى أن تقتل منهم رجلاً حتى يقتل رجل منكم . فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك . فروا رأيكم .

حكيم بن حزام - (لعنة) - يا أبا الوليد ! إنك كبير قريش وسيدها والمطاع . فيها فهل لك إلى خصلة لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر ؟
عنة ... ما ذاك يا حكيم ؟

حكيم - ترجع بالناس . وتحمل دم حنينك عمرو بن الحضرمي .
عنة - هذا والله الرئي . فادع لي الناس .

(يدعو الناس)

عنة (ختلياً) - يا معشر قريش ! إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً . والله أن أصبوه لا يزال رجل منكم ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه . قتل ابن عمه وابن خاله . ورجلاً من عشيرته . إرجعوا وخالوا بين محمد وسائر العرب ، فإن أصابوه فذلك الذي أردتم . وإن كان غير ذلك كما كنتم ولم تعرفوا منه ما تريدون . يا قوم ! اعصبوه اليوم برأسي وقولوا : جبن عنة . وأنتم تعلمون أني نلت بأجبتكم ...

يا قوم أضيعوني فإنكم لا تطالبون غير دم ابن الحضرمي وما أخذ من العير وقد تحمات ذلك . يا معشر قريش ! أنشدكم الله في هذه الوجوه التي تضيء ضياء المناسيح أن تجعلوها أعداداً لهذه الوجوه التي كأنها عيون الحيات .

(يسكت عنة ويغطي القوم لغطاً شديداً)

رجل - نعيمًا يقول أبو الوليد !

آخر - هو والله الرأي .

آخر - عتبة سيد الناس فأطيعوه .

عتبة (حكيم) - العناق إلى ابن الخنضارية .

(يذهب حكيم)

حكيم (لأبي جهل) - إن عتبة أرسلني إليك لترجع بالناس . وهو يحمل دم حليفه ابن الحضرمي .

أبو جهل -- أهو يقول هذا ! والله لو قاله غيره لأعضضته . انتفخ والله سحره ! كلا والله : لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد .

(يرسل أبو جهل إلى عامر بن الحضرمي)

أبو جهل (لعامر) -- هذا حليفك . عتبة بن ربيعة يريد أن يرجع بالناس . ويخذنا عن القتال وقد تحمل دية أخيك من ماله يزعم أنك قابلها . ألا تستحي أن تقبل الدية من مائ عتبة . وقد رأيت تأرك بعينك . فقم واذكر ممثل أخيك .

(عامر يتكشف ويحثو عليه التراب)

عامر (صائحاً) - واعمره ... واعمره !

(يهيج الناس ويتحدثون)

حكيم (لعتبة) -- لقد أثارها .

عتبة - دعه فسيكون شوهاً وبلاء على قومه .

المنظر الثالث عشر

(استعنت بحرب وقتل المسلمون عتبة وشيبة والوليد)

(ورجع سراقة وكان قد أجارهم من كثافة)

أبو جهل - يا معشر الناس ! لا يهمنكم خذلان سراقة . فإنه كان على مهاد من

محمد ، ولا يهمنكم قتل عتبة وشيبة والوليد . فإنهم قد عجزوا . والمالات والعزى

لا نرجع حتى نقرن محمداً وأصحابه بالحبال ...

يا معشر قريش : لا تقاتلوهم . خذوهم أخذ اليد .

(يخرج رسول الله من قريش فيحضر الناس على القتال)

— أما والذي نفس محمد بيده . لا يقاتلهم رجل فيقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة .

(عمير بن الحسام يأكل تمرات في يده)

عمير يخ بخ ... ما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء ؟

(يأتي التمرات ويتقدم)

عمير (هاجماً) :

ركضاً إلى الله بغير زاد

إلا التقى وعمس المعاد

وانصبر في الله على الجهاد

وكل زاد عرضة النقاد

غير التقى والبر والرشاد

(تزداد الحرب اضطراباً)

المنظر الرابع عشر

(قريش تنهزم ابن مسعود يفتش بين القتلى عن رجل)

عبدالله ... هل أخزأك الله يا عدو الله ؟

(يضع رجليه على عنق أبي جهل وهو على آخر رمق)

أبو جهل ... وبم أخزاني ؟ اعمد من رجل قتلتموه ؟ أخبرني لمن كانت العاقبة لنا

أو علينا ؟

عبدالله ... بل لله ورسوله !

المنظر الخامس عشر

(في الحرم وقد جلس أبو سفيان وأبو لهب في ناس
من قريش ينتظرون الأعداء ..)

أبو لهب - هذا ابن عبد عمرو ! ما وراءك يا ابن عبد عمرو ؟
ابن عبد عمرو - فنيق قريش ! قتل أبو جهل وعتبة وشيبة وزمعة وأممية بن خلف ..
لقد ظهر الإسلام ، فسيظل غالباً إلى يوم القيامة ..! وذل الشرك فلا يعز أبداً .



طالب علم

قال (محمد بن سعيد) :

ويك اتق الله يا أبا فلان . إنك لتوشك أن تقتل هذا الرجل الصالح وتبوء والله بدمه . ويك اتق الله ، لا تطرده من (فندقك) فإنه غريب نائي الديار ، قطع سباسب وبحاراً وجاب ما بين المشرقين ...

قال : أبقى بن مخلد^(١) جواب ما بين المشرقين ؟

قال : نعم ، وهل تراني عنيت غيره ؟ إنه حاجتي إليك ، وما سألتك حاجة قبلها ، أفلا تقضيها لي ؟ إنه شيخ جليل القدر يحمل الحديث ويروي السنن ، أفندعه يموت على قارعة الطريق ؟

قال : وما أصنع به أنا ؟ لقد آوئته في فندقي عامين اثنين ، لا آخذ منه مسالا ولا أرزؤه شيئاً ولا أعصي له أمراً ، أفيكون جزائي أن أعجف عليه نفسي حتى يموت ، فيخرج من فندقي محمولا إلى القبر فيتشاءم الناس بالفندق فيتحامونه فأفلس ؟

إنه مريض أنهكته الأوجاع وأدنته الحمى ، ولقد أعجز نقاريس الأطباء . وما أراه ميتاً العشية أو غداة الغد ... فأرحموني ، أنقلوني منه . ليس لي به حساجة ... قبحها الله ساعة أكرهه فيها هذا البيت ، لقد كانت ساعة ما حضرها ملك ...

قال : أربح عليك أيها الرجل فإنك في نعمة لو عرفت قدرها لتمطعت الليل بحمد الله عليها . اذك لا تدري أي خير ساقه الله إليك ، وأي أجر كتبه لك . فأقم نفسك

(١) انظر الصفحة (٧٩) من مختصر طبقات الخليفة ضبع دمشق .

في خدمته ، وارج وجه الله ، أطمع لك بالجنة .

قال : اني والله لفي بلية لو عرفت مداها لما لمتني على الجزع منها . إنك لا تعرف هذا الشيخ أي رجل هو ؟ أتقول لك ، إنه لم يبت عندي ليلة واحدة حتى يخرج بخلقان بالية ومزق مخرقة وركوة وعصا يسأل الناس ... مالك تضحك من كلامي ؟ ... أتهدأ بي يا ابن سعيد ؟

قال : لا . ولكنك لا تدري ما شأن هذا الرجل .

قال : وإن له بعدُ شأنًا ؟

قال : وأي شأن ؟ هذا رجل هجر جنات الأندلس ورياضها ، وعيونها وأنهارها ، ومكانة له فيها سامية ، وجسداً له عريضاً ... وفارق أهلاً فيها وصحباً ، وعشيرة كبيرة ، وأمواً لا كثيرة ، وذهب يخوض اللجج والبحار ، ويحوب السباب والتفار ، ليقدّم بغداد ، لا طمعاً بمال يناله ، أو جاه يحصله ، أو صديق يزوره ، أو امرأة يخطبها ، أو لذة يطلبها ، ولكن رغبة في العلم وحباً للحديث ، وشوقاً الى لقاء أبي عبد الله ! فلما سمع الفندق في اسم أبي عبد الله اتبه وتبدلت حاله . وظفت على وجهه خيالات من الحب العظيم ، والاجلال الكبير ، الذي يحتفظ عاينه قلبه لهذا الامام . وقال بلهجة أرق ، ونعمة أعذب ، قد ذاب فيها حنقه على بقى بن محمد في محبته لابي عبد الله .
- أتقول إن الرجل قدم من الأندلس ليلقى أحمد بن حنبل ؟

- نعم

- يا له من شرف في الدنيا والآخرة ! وهل أتميه ؟ الا تخبرني كيف لقيه ؟

- قال : انه نزل عليك في هذا الفندق فألقى فيه متاعه ، وذهب يطلب أبا عبد الله ؛ وكان ذلك أيام المحنة والناس لا يجروون على ذكر اسمه ، وأبو عبد الله منفرد لا يلقاه أحد الا اخذته عيون الساطان فناله أذى شديد ... فلما علم الرجل بذلك ناله من الغم ما الله عالم به ، فأمام المسجد الجامع في الرصافة يسمع من المحدثين فما زال يمر بالخلق حتى انتهى الى حلقة نبيلة ، فوقف عليها ، وكنت أول من رأى زيه الغريب ، فسلمت

عليه أونس غربته ، فسألني : من هذا الشيخ ؟

قلت : يحيى بن معين . وكان يعرفه . ومن لا يعرف يحيى بن معين لا فوِّت ساعة . ثم لمح فرجة قد اخرجت فقام فيها . وكان الشيخ يكشف عن الرجال فيفتوي ويضعف .
ويزكي ويخرج . فقال :

— يا أبا زكريا ، رحمتك الله ، رجل غريب نائي الديار . أردت السؤال . فلا تستخفني .
فقال الشيخ : قل .

فجعل يسأل عن بعض من لقي من أهل الحديث . وكان قد لقي منهم خلقاً كثيراً . فبعضاً زكي الشيخ وبعضاً جرح . فسأله عن هشام بن عمار وكان قد أكثر الأخذ عنه . فقال الشيخ :

— أبو الوليد هشام بن عمار صاحب صلاة دمشق . ثقة وفوق الثقة . لو كان تحت رداءه كبر ما ضره شيئاً نخيره وفضله .

فتصايح أهل الحلقة :

— حسبك يرحمك الله حسبك . غيرك له سؤال .

فقال وهو واقف على قدم :

أكشفك عن رجل واحد : أحمد بن حنبل ؟

فما قالها حتى جمد الناس وعامت الشيخ كآبة . ونظر إليه متعجباً كأنه يقول له :
أعن أحمد يسأل أحد ؟ وهل تجرؤ على ذكره ؟ وكان الشيخ قد خالطه شيء من الجزع .
ثم غلب عليه إيمانه فلم يبد يبالي السلطان وغضبه ، وقال للسائل :

— من أين أنت أيها الرجل ؟ نحن نكشف عن أحمد بن حنبل ؟

وسكت الشيخ لحظة ثم قال بجرأة عجب لما الناس ولبثوا شاخصين . ينظرون إلى
الشيخ يخافون أن تتخطفه جلاوزة السلطان . . .

قال الشيخ :

(١) أي رجال الحديث . وأولئك العمري هم الرجال .

ذاك امام المسلمين وخيرهم وفاضلهم .

• • •

ثم إن الرجل ذهب يستهدي الناس إلى دار أبي عبد الله فممنهم من يعرض عنه خشية أن يكون عيناً للسلطان ، ومنهم من يجروا فيمشي معه خطوات ... حتى انتهى إلى الدار .

فذاك الاعجاب من نفس الفندقي كل مثال . وسأله :

... أتقول انه زاره في منزله أيام محنة ؟

قال محمد بن سعيد : نعم . قرع غيره الباب فلما فتح له قال : إني رجل غريب

أتيتك من مكان سحيق .

— قال أبو عبد الله : مرحباً بك . أين بلدك ؟

— قال : الأندلس .

... قال : إفريقية ؟

— قال : لا . أبعد من ذلك . أركب البحر من إفريقية إلى بلندي .

— قال : لا جرم انه بعيد . فما حاجتك ؟

— قال : أسمع منك ، وأروي عنك .

— قال : ولكني كما رأيت وعلمت . لا ألقى أحداً . ولا يدعون أحداً يلقىني ،

ولست آمن عليك الأذى إذا أنت أتيتني .

— قال : ما كنت لأبالي في سبيل الأخذ عنك أذى ولا عذاباً .

— قال : فإن هم منعوك ؟

— قال : أحتمل بحيلة . آتيك بزي السؤال فأصبح : الأجر يرحمك الله . ففتتح لي

وتحدثني .

— قال : على ألا تظهر في الحلق فيعرفوك .

— قال : على ألا أظهر

فكان يفعل ذلك ، وكنت تظنه يخرج فيسأل الناس ، فعاد الفندق في يسأل مثبناً ،
وقد كبر الرجل في عينيه حتى كأن لذي تحتويه غرفته مالك أو وزير ، عاد يسأل مثبناً :
— إذن فهو من (أصحاب) أحمد بن حنبل .

— قال : نعم : ونيث على ذلك حتى رفع لله الشجة وولي الامر (المتوكل) فأحيا
المذهب الحق ، مذهب أهل السنة . وأمات البدعة . وجزى الله أحدا بما صبر ، فكان
كما تعرف وأعرف . إمام الأمة . وأبد الله به الدين كما أبده بأبي بكر يوم الردة فصار
يعرف هذا الرجل حقه ويقول لأصحابه : (هذا يقع عليه اسم طالب العلم) .
قال الفندق :

— جزاك الله يا ابن سعيد خيراً ، فقد عرفني حقه . فهام بنا إليه ...

كان بقي بن مخلد الأندلسي وحيداً في غرفته . يتقاب من الألم ، ويتأوى من الحمى .
قد طحطحه المرض . وهدته الأوجاع . فما أبقيت منه إلا هيكلًا كالقناة الجوفاء يتردد
فيها نفواء . وكما يشكو من الحنين إلى بلده . والتشوق إلى أهله . أشد عليه من كل ذلك
ولم يكن في البيت إلا لبد اضطجع عليه . ووسادة ألقى عليها رأسه ، وكتبه مبثوثة
من حوله ما يدعها ، إذا ادركه انتباه نظر فيها ، فإذا شاب عنه من الوجع عقله تركها
في مكانها . فاما دخلا عليه التيساد يقرأ في صحيفة في يده . فجلسا ساعة يؤنسا ، فما
شعرا الا ضجة تدنو حتى حسابها قد استقرت في الفندق ، فنظرا من الشباك فإذا الرحبة
والطرق التي تؤدي إليها ما فيها موطىء قدم خلا من انسان . فاضطرب الرجل ونزل
يسأل أن ماذا جرى ؟ فما أحس الا الناس يقولون : لقد أتى ... هو في الطريق ...
فأيقن أنه الخليفة ولكنه رأى موكب الخليفة غير مرة فما رأى مثل اليوم . . . ودنا من
شيخ واقف في أطراف الناس فسأله من القادم ، وأين يذهب ؟

• • •

— فقال : إنه أبو عبدالله ، الذي لا ينشي الى الخليفة ، قادم ليعود مريضاً في هذا
الفندق . فصاح الفندق :

— أبو عبد الله قادم إلى فندقي . أبو عبد الله ؟ وطئح يصيح ويثب لا يدري ماذا يصنع وماذا يقول ، وما يحزنه أحد لأن الناس يستشرفون الطريق ينظرون ، وقد احتشدوا فيها فما بقي بزاز في دكانه ، ولا تاجر في سوقه . ولا طالب علم في حلقتة ، ولهم دويٌ وجلبة ...

وصعدا الفندق على نفسه ، فإذا هـذا البحر ينشق بقدره الله وانما الخلق يسكتون حتى كأن على رؤوسهم الطير ، ويبدو الامام ومن حوله طلبة العلم قد احتشدوا من جهات بغداد كلها ، بغداد العظيمة التي يسكنها مليونان ، وبأيديهم قراطيسهم وأقلامهم يكتبون كل كلمة يقوها فأنتهى الإمام إلى الغرفة ، فوقف على المريض فقال له :
— يا أبا عبد الرحمن ! أبشر بثواب الله . أعلاك الله إلى العافية ، ومسح عنك بيمينه الشافية .

فتناقل القوم ما قال فكتبوه ...

ومرت أعوام بعد ذلك وأعوام ، والناس يذكرون هذا اليوم المشهود . أما الفندق فعدا منذ تلك الزيارة محط رجال العلماء والكبراء ، ودرت على صاحبه أخلاف الرزق ، وأما بقي فقد شفاه الله وأعادته إلى الاندلس فملأها علماً ...



سَيِّدَةُ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ

إذا زرت دمشق ، فسنكتك السوق الصغير ،
قبلي المسجد ، المسمى بسوق القباقيب ، فاسألوا
عن (المصبغة الخضراء) وهي تحت الأرض
في زقاق ضيق ، فقفوا عليها ساعة . . . فكم
كانت سرّة الأرض ، وقصبة الدنيا ، دار
الخضراء دار الخلافة الأموية !

نحن في دمشق . . في يوم الجمعة التاسع من صفر سنة تسع وتسعين للهجرة . . والبلدة
خالية الطرقي . مغتمة الخوانيت . لا تكاد ترى فيها أحدا . لأن الناس قد اجتمعوا
حول قصر الخلافة ، وفي الساحات المطيَّمة به . وفي الدروب المؤدية إليه . . وكان
صحن القصر مزدحماً بالروّساء والوجوه . أما الأمراء وكبار القواد وجملة الخواص ،
فقد احتلوا (المجالس) والأبناء . وعلى وجوههم جميعاً أمارات الترقب والانتظار .
في شيء من الخشية والجزع . ذلك لأن أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك . قد فجأه المرض
واشتد عليه . وأشيع أنه مشرف على الموت . وكان عنده مستشاره . رجاء بن حيوة .
منفرداً به .

وفي داخل القصر حيث كانت منازل الحرم . وكانت نساء الأمراء من بني أمية .
يترقبن الأخبار . وفي صدر المجلس زوجات يزيد وهشام ومسلمة وبقية اخوة الخليفة .
وكل واحدة منهن تأمل أن تكون البشارة لها . بأن زوجها هو الذي انتخب للخلافة بعد
سليمان ، الذي يتظاهر بالحزن عليه ، والخشية من وفاته . وتتمنى كل واحدة منهن
موته ، ليخلو مكانه لزوجها !

وكان في طرف المجلس فتاة بارعة الجمال . بالغة الأناقة . عليها ثياب لا تدانيها
في غلاء ثمنها وجمال مظهرها ثياب واحدة منهن . وكان يبدو عليها من الخدوء
والوقار ما ليس مثله على واحدة منهن . كأنها لا تشربهن في رغبة ولا خشية ولا أمل .
و كأنها قد قنعت بما نالت فما تطلب فوقه مزيداً .

ولقد نالت في الواقع كل ما تطمع فيه فتاة. حازت الجمال والمجد والأدب والزوج
الصالح الثري ، والعيش الناعم الرخي . ولدت على فرش الخلافة في قصر
أمير المؤمنين . ونشأت في أحضان العز تنقلب في الزمير . وما طلبت شيئاً ولم تصل إلى
ما طابت . ولا أشتت شيئاً ولم تنل ما اشتت .

وشبت فكانت فتاة فتاة بخلتها وخلقتها . بارعة في جمادى وفي كادى . ولم تكن
تجد إلا من يحبها وبدللها . حباً بها . وترئفاً إلى أبيها ... أما عرفتم بعد من هو أبوها؟
أعرفون كم دولة اليوم بين المغرب الأقصى . والأفغان ؟

لقد كان أبوها يملك . وحده . هذه البلاد كلها . ما بعد أمره فيها أمر ،
ولا فوق سلطانها سلطان !

إنها . فاطمة بنت عبد الملك . بنت الخليفة . وأخت الخفاء ... لقد طمحت
إليها لما شبت أنظار فتيان أمية . فأختارها فتى الفتيان . من التقى فيه مجد أمية
وتقوى عمر . السيد الأموي النبيل عمر بن عبد العزيز .

وانتقلت من قصر إلى قصر . ومن نعمة سابعة إلى نعمة سابعة . فزاد عيشها ترفاً
ورغداً . وزادت النعم عليها تدفقاً وازدحاماً .

كانت فاضلة في طرف المجلس . مترفعة عن من فيه . ليس لها أمل يستخفها وليست
في نفسها حسرة على ضياع هذا الأمل تحزنها . وإذا بصوتين يملآن جوانب القصر ،

صوت فيه النجاعة والألم . هو نعي أمير المؤمنين . وصوت فيه الخيبة لناس والبشارة
لنأس . وفيه الدهشة للجمع ، هو إعلان تسمية أمير المؤمنين بالحديد : عمر بن عبد
العزيز !

وانتقلت فاطمة في لحظة من الطرف إلى الصدر . وكانت معترلة لا يأبه لها احد ،
فصارت هي مطمح الأنظار . وغدا اليها مهوى القلوب . وتأخر نساء الأمراء ،
للتقدم امرأة الخليفة ، وخرجن كاهن وراءها . وقد كانت دخلت ، لما دخلت ،
وراءهن جميعاً !

وعادت إلى قصرها ، ورقص القصر من الفرحة ، ضحكك بالنور . وكان يترقب
عودة سيده ، ليتم بعودته التعميم . وتكمل الأفراح . وقعدت فاطمة تذكر الماضي
الحلو الجميل . وتناجي مستقبلاً ترجو أن يكون أجمل وأحلى .

ذكرت يوم انتقلت من قصر أبيها أمير المؤمنين عبد الملك ، إلى قصر زوجها ،
وابن عمها . الأمير عمر ، فإذا قصر الأمير أعظم من قصر الخليفة ، وإذا هو بيذه
في فرشته وزينته وتحفه وخيراته ..

لقد كان عمر أكثر أموى ترفها وتملكاً ، غذى بالملك ونما في ظلالة . وكانت
ثيابه التي يخرج فيها للناس يزيد ثمنها على خمسة آلاف درهم . وكان العطر الذي
يتعطر به يوتى به إليه وحده من الهند ، فكان إذا جاز بمكان عرفه من لم يره من عبق
عطره . وكان الأشراف يعطون الغسالة العظيمة الكبيرة ، لتجعل ثيابهم مع ثيابه ،
ليسرى إليه من رياه ، وكانت له مشية سماها الناس (العمرية) من حسننها وجمالها ،
وكانت الغواني يحاولن أن يتعلمنها ، وأن يقلدنه فيها ، وكان يرخي ثوبه على عادة
الفتيان الأشراف المدللين في ذلك الزمان ، فربما دخل الثوب في النعل فيشده حتى
يتمزق ، ولا ينحني ليصلحه ، مع أن الثوب من ثيابه قد يزيد ثمنه على ألف درهم ،
وقد يسقط عن منكبيه فيتركه ولا يرفعه ، حتى يجيء من يأخذه !

تصورت فاطمة هذا كله ، وما شاركته فيه من النعم ، في حياة عاشاها لا يبلغ

الخيال مداها ، وكان يجمع بينهما أظهر الحب وأقواه . وكانت إشارته عندها أمراً ،
ورغبتها عنده فرضاً ، لا تخالفه في شيء ، ولا يرد لها عنده طاب !

• • •

وبدأت تتسرب إلى القصر أنهار عجيبة عن الخليفة الجديد ... فمن خادم يدخل
مسرعاً يخبر أن الخليفة رفض مرآة الخلافة ، وألقى الموكب المعتاد ، وركب
دابته ... وآخر يأتي يقول أن الخليفة أعلن إلغاء حفلات البيعة بما كان لها من العظمة
والجلال ... وثالث يقول أنه أبى أن يمد يده إلى شيء من أموال الخزانة .. !

وتسمع فاطمة هذه الأخبار فلا تكاد تصدقها ! إنها تعرف زوجها الشاب المتفتح
قلبه لنعيم الدنيا ، الغارق في الرفاهية والنعيم والمتع الحلال .. فماله يعرض عن الدنيا
التي جاءتته مقبلة عليه ، ملقبة بكل ما فيها من جميل وجميل عند قدميه ؟
وعاد الخليفة إلى قصره ، ولكنه عاد رجلاً جديداً ...

لقد تبدل فيه كل شيء ، لقد بدت النعمة للناس بحكمه منذ بوبع ، ولكن أهله
رأوا في بيعته بوادر الشقاء !

وتلقته فاطمة ، فإذا الأيام الثلاثة التي غاب فيها عنها ، قد فعلت فيه فعل ثلاثة
قرون .. وإذا هو شاحب الوجه من أثر السهر في مصالح الناس ، مضطرب الأوصال من
ثقل الأمانة وخوف الله ، فانشعب قلبها رافة به ، وإشفاقاً عليه .

وقال لها : « يا فاطمة ، قد نزل بي هذا الأمر ، وحملت أثقل حمل ، وسأسال
عن القاصي والداني من أمة محمد ، وإن تدع هذه المهمة فضلة من نفسي ولا من وقتي
أقوم بها بحقك علي ، ولم تبق لي أرباباً في النساء ، وأنا لا أريد فراقك ، ولا أؤثر في
الدنيا أحداً عليك ، واكني لا أريد ظامك ، وأخشى ألا تهبري علي ما أخترته لنفسي
من ألوان العيش ، فإن شئت سيرتك إلى دار أبيك ...

قالت : وماذا أنت صانع ؟

قال : إن هذه الأموال التي تحت أيدينا ، وتحت أيدي إخوتك وأقربائك قد

أخذت كلها من أموال المسلمين ، وقد عزمتم على نزعها منهم وردها إلى المسلمين ،
وأنا بادىء بنفسي ، وإن استبقى إلا قطعة أرض لي ، اشتريتها من كسبي ، وسأعيش
منها وحدها ، فإن كنت لا تصبرين على الضيق بعد السعة . فالحتمي بدار أبيك !

قالت ، وما الذي حملك على هذا ؟

قال : يا فاطمة ، إن لي نفساً تواقفة ، ما نالت شيئاً إلا اشتيت ما هو خير منه ،
اشتيت الإمارة فلما نلتها اشتيت الخلفة ، فلما نلتها اشتيت ما هو خير منها . وهو
الجنة !

• • •

تري لو أن تاجراً موسراً ، أو موظفاً كبيراً يسكن في القصر الفخم في الشارع الكبير
وفي داره نفائس التحف وروائع الفرش ، ثم أراد أن يتخلى عن ذلك كله لله ، هل يجد
زوجة توافقه على ذلك ، وترضى به ، وتعيش معه في غرفتين فارغتين في حارة ضيقة ،
وتأكل معه الحمص والفول بعد المائدة الخافلة ، وتمشي على رجلها بدل سيارة
الكاديلاك الخاصة ؟

لا أظن أن زوجة ترضى بهذا ، اليوم .

أما فاطمة التي انفردت بين نساء التاريخ جمعاً بأنها بنت ملك وزوجة ملك وأخت
أربعة ملوك ، يحكم كل منهم عشرين دولة من دول هذه الأيام ... فاطمة ، هذه
قالت لزوجها ، بعدما سألته وعرفت مقصده ودوافعه :

— إصنع ما تراه ، فأنا معك ، وما كنت لأصاحبك في النعيم ، وأدعك في الضيق ،
وأنا راضية بما ترضى به .

• • •

وانقطع فجأة عيش النعيم ، الذي قلما ذاق مثله المترفون ، وجاء عيش شدة وضيق
قل أن عرف مثله الفقراء المدقعون !

ما انتقطع لأنهما افتقرا بعد غنى ، ولا لأن الدنيا أنزلت بهما مصائبها وأرزاءها ،
ولكن انتقطع لأنهما آثرا نعيماً أبقي وأخذ ، نعيماً لا يزول ، على حين يزول كل
نعيم في الدنيا .

وبدأ عمر فأعتق الأماء والعبيد ، وسرح الخدم ، وترك القصر ، ورد ما كان له
فيه إلى بيت المال ، وسكن داراً صغيرة شمالي المسجد^(١) . وكان في دار الحكم أقدس
حاكم ، وأحزم ملك ، وأعدل خليفة ، فإذا جاء داره هذه الصغيرة ، كان فيها
كواحد من غمار الناس .

جاءت امرأة من مصر ، تريد أن تلقى الخليفة ، فهي تسأل عن قصره ، فدأوها
على داره ، فرصدت ، فوجدت امرأة على بساط مرقع ، بثياب عتيقة ، ورجلاً يدها
في الطين ، يصلح جداراً في الدار . فسألت . فدهشت لما علمت أن المرأة القاعدة على
البساط هي فاطمة بنت عبد الملك وارتاعت منها وتهيبتها فأنستها فاطمة حتى اطمأنت
إليها وأنست بها فتالت لها يا سيدتي . ألا تشتريين عن هذا الطيان فابتسمت فاطمة
وقالت : هذا الطيان هو أمير المؤمنين !

وجاءه في خلافته بياع قماش يعرض عليه ثوباً ثمنه ثمانية دراهم فقال عمر :
انه حسن لولا أنه أنعم مما ينبغي !

فقال الرجل : لقد جئتك وأنت أمير المدينة بثوب ثمنه خمسة آلاف درهم ،
فقلت لي : أنه حسن لولا أنه خشن !!

ومرض الخليفة مرة وكان عليه قميص وسخ ، فدخل مسلمة بن عبد الملك على أخته ،
فقال لها : يا فاطمة ، اغسلوا قميص أمير المؤمنين .

قالت : نعم

فعاد من الغد فإذا هو لم يغسل ، فقال :

— يا فاطمة اغسلوا قميص أمير المؤمنين ، فإن الناس يدخلون عليه .

قالت : والله ما له قميص غيره !

(١) هي المدرسة السمساطية اليوم .

ولم يدع من الخدم إلا غلاماً صغيراً ، كان حو الخادم الوحيد في قصر الخلافة ،
فوضعت له فاطمة الطعام يوماً ، فضجر الخادم وتبرم وقال :

— عدس ! عدس ! كل يوم عدس ؟!

قالت فاطمة : يا بني ، هذا طعام مولاك أمير المؤمنين !

واشتهى الخليفة يوماً العنب فقال :

— يا فاطمة أعندك درهم تشتري به عنباً ؟

قالت : أنت أمير المؤمنين ، ولا تقدر على درهم تشتري به عنباً ؟

قال : يا فاطمة ، ما بقي لي إلا هذه القمطوة من الأرض ، وربيعها لا يكاد يقوم

بحاجاتي ، والصبر على هذا أهون من الصبر على نار جهنم !

ولم يكن قد بقي لفاطمة من أيام النعيم إلا جواهرها ، فقال لها يوماً :

— يا فاطمة ، قد علمت أن هذه الجواهر قد أخذها أبوك من أموال المسلمين

وأهداها إليك ، وإنني أكره أن تكون معي في بيتي . فاختاري أما أن ترديها إلى بيت

المال ، أو تأفني لي في فراقك !

قالت : بل أختارك والله عليها ، وعلى أضعافها لو كانت لي !

وردت الخلي إلى بيت المال .

وعاشت زوجة الخليفة معيشة لا تصبر على مثلها زوجة موظف من الدرجة العاشرة

ورضيت بذلك اتباعاً لزوجها وأملأ بثواب ربها .

وشاركته خوفه من الله ، وتفكيره في الآخرة ..

دندل عليه مرة رجل صالح من جلسائه ، فقال له عمر :

— أرقت البارحة مفكراً في القبر وساكنه .

فقال الرجل : فكيف لو رأيت الميت بعد ثلاثة أيام ، والدود قد غطى جسده ،

وأكل لحمه ، بعد حسن الهيئة ، وطيب الرائحة ، ونقاء الثوب !

فبكى عمر وخر مغشياً عليه ..

قالت فاطمة لمولاه مزاحم : ويالك يا مزاحم ، أخرج هذا الرجل .

فخرج الرجل ، ودخلت على عمر فجعلت تصب الماء على وجهه وتبكي ، حتى أفاق من عنده ، فرآها تبكي .. قال : يا فاطمة ما يبكيك ؟
قالت : يا أمير المؤمنين ، رأيت مصرعك بين أيدينا ، فذكرت مصرعك بين يدي الله للموت ، وتخليك عن الدنيا وفراقك لها ، فذلك الذي أبكاني .

• • •

بكت خوفاً عليه في حياته ، فلما مات بكت أسفاً عليه ، حتى عشي بصرها ، فدخل عليها أخوها مسلمة وهشام يسليانها ، ويعرضان عليها ما شاءت من الأموال ، قالت :

— والله ، ما أبكي على مال ولا نعمة ، ولكني رأيت منه منظرأ ذكرته الآن فبكت
قالا : ما هو .

قالت : رأيت ذات ليلة قائماً يصلي ، فقراً (يوم يكون الناس كالفراش المبتوث ، وتكون الجبال كالعهن المنفوش) ، فشقق من البكاء حتى ظننت أن نفسه قد خرجت .
فما صحا حتى ناديت للصلاة .

ولما ولى أخوها يزيد الخلافة ، رد عليها حليها ، فقالت :

— لا والله ، أبدأ ، ما كنت لأطيعه حياً ، وأعصيه ميتاً . لا حاجة لي بها .

فتسمها على أهلها ونسائه وهي تنظر .

رحمة الله على أولئك الناس . أولئك والله هم الناس .



الفهرس

الموضوع	الصفحة	الموضوع	الصفحة
رجل وامرأة	١٤٠	مقدمة الطبعة الثانية	٧
عالم	١٤٦	نحن المسلمين	١٥
ليلة الوداع	١٥٢	ودیعة الله	٢١
يوم اللقاء	١٦٩	في بيت المقدس	٣١
قضية سمرقند	١٨٧	ثلاثون الف دينار	٤٣
مع النابغة الذبياني	٢٠٣	ابن الحب	٥٧
في صحن الأموي	٢١١	على ابواب المدينة	٧٥
هيلانة ولويس	٢١٧	حكاية الهميان	٨١
تاج كسرى	٢٣١	هند والمغيرة	٩١
أبو جهل	٢٣٦	عشية وضحاها	٩٧
طالب علم	٢٤٩	هجرة معلم	١٠٧
سبدة من بني أمية	٢٥٥	آخر ابطال غرناطة	١٢٨
		محمد الصغير	١٣٣

للمؤلف

رسائل الإصلاح	١ -	قصص من الحياة	١٢ -
بشار بن برد	٢ -	في سبيل الإصلاح	١٤ -
رسائل سيف الاسلام	٣ -	دمشق	١٥ -
الهيثميات	٤ -	مقالات في كلمات	١٦ -
في التحليل الأدبي	٥ -	من حديث النفس	١٧ -
عمر بن الخطاب (جزءان)	٦ -	هتاف المجد	١٨ -
كتاب المحفوظات	٧ -	مباحث اسلامية	١٩ -
في بلاد العرب	٨ -	صور من الشرق	٢٠ -
من التاريخ الاسلامي	٩ -	نفحات من الحرم	٢١ -
ابو بكر الصديق	١٠ -	مباحث اسلامية	٢٢ -
رجال من التاريخ	١١ -	فصول اسلامية	٢٣ -
صور ونواظر	١٢ -	قصص من التاريخ	٢٤ -

وكتب اخرى ...